
Ϯⲁⲛⲁⲥⲧⲁⲥⲓⲥ
الخلاص الثمين
أيقونة نزول المسيح للجحيم

الخلاص الثمين

كما أعلنه الوحي في الكتاب المقدس
وكما تحياه الكنيسة المقدسة

دار مجلة مرقس

كتاب: **الخلاص الثمين**

كما أعلنه الوحي في الكتاب المقدس،

وكما تحياه الكنيسة المقدسة.

إعداد: **أحد رهبان برية القديس مقاريوس.**

الناشر: **دار مجلة مـــرقس.**

الطبعة الأولى: **١٩٩٨.**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩٩٤/١٠٧٦١

رقم الإيداع الدولي: ٦ _ ٠٥ _ ٥٥٤٥ _ ٩٧٧

المحتويات

القسم الأول

القسم الثاني:

الباب الثالث:

القسم الأول

الخلاص

في الكتاب المقدس

مُقَدِّمَة

الخلاص هو الاهتمام الأساسي للأديان كلها، حتى بالنسبة للأديان التي ترى في الإنسان مخلصا لنفسه.

وقد تـناولت الأديان فهم الخلاص بطرق مختلفة. ولهذا فكل ديانة يمكن أن توصف - بنوع ما - أنها "طريق" للخلاص، أو "نظرية" عن الخلاص.

ولسنا نريد هنا أن نناقش: هل يصح أن نضع المسيحية أو إيمـان الكتـاب المقدس بين الأديان المختلفة. ولكن ما لابد من ملاحظته أن الكتاب المقدس هو **الإعلان** عن مواجهة أعمق احتياج للإنسان، ألا وهو الخلاص.

إيمان الكتاب المقدس لا يسأل: من أي شيء يتكون الخلاص؟ ولـم يـوص الكتاب المقدس بتوصيات معينة من أجل بلوغ الخلاص؛ تصوفية كـانت هـذه التوصيات (مثل الغنوسية مثلا)، أم أخلاقية (مثل الكونفوشية)، أم نسكية (مثـل الهندوكية). لكن إيمان الكتاب المقدس مهتم - بالأحرى - **بإعلان حقيقة حدوث الخلاص في زمن ما من التاريخ**. ومن هنا فهو يختلف عن أي ديانة أخرى من حيث كونه **"كرازي"** السمة، أي أنه **يبشر بخلاص الله الذي تم**.

الكتاب المقدس مهتم **بإعلان** حقيقة أن **الله قد خلص** - فعلا وواقعيا وكحقيقة حدثـت في الزمن - خلص شعبه من الهلاك. وهو يعلن أن حـدث الخـلاص التاريخي (أي الذي حدث في زمن ما من التاريخ) والمشهود له فـي أسـفار الكتاب المقدس **ليس سوى ظل ورمز وعربون لخلاص آت مكتمل**.

هذا هو موضوع كلا العهدين القديم والجديد في الكتاب المقدس: «الله هو إله خلاص». هذا هو إنجيل الإيمان في العهد القديم ثم في العـهد الجديـد علـى

السواء. لقد خلص الله شعبه في القديم، وهو يخلص شعبه الجديد الذي هو كل من يؤمن من شعوب العالم كله بخلاص المسيح.

ولكننا لابد أن نلاحظ أن معنى الخلاص في العهد القديم كان له مفهوم غير معناه في العهد الجديد. ففي العهد القديم كان الخلاص يعني الخلاص المادي الجسدي فحسب، أي: هروب عبيد الله من أيدي أعدائهم، وانفكاك عبودية وأسر شعب الله من أيدي آسريهم، وسكناهم في أرض خصبة غنية. ولكن نجد أنبياء العهد القديم يبدأون في التأكيد على الحاجة إلى التحول الداخلي عن حالة الخطية والإثم التي في قلب الإنسان، وأن الخطر الحقيقي هو في موقف الإنسان والجماعة من الله حينما يعصون مشيئته. وقد تركزت وسائط الخلاص - بناء على ذلك - في العهد القديم، في تتميم الناموس بشقيه الأخلاقي والشعائري (أي بالوصايا السلوكية، وبالفرائض والذبائح والتطهيرات... الخ).

وسنرى فيما بعد قصور الإنسان الشديد، الذي كشفه الناموس، والذي مهد لتقبل الإنسان للمعنى العميق للخلاص كما أتى به المسيح في العهد الجديد. وهكذا تسامت رؤى الأنبياء إلى رؤية الخلاص الذي سيأتي به المسيا كفادي لشعبه من خطاياهم وآثامهم، وهكذا نجد أن العهد القديم يحمل الإشارات والرموز إلى خلاص العهد الجديد.

أما العهد الجديد، فهو يشير بوضوح إلى حالة عبودية الإنسان للخطية وخطورة سلطانها، وأن الخلاص هو التحرر - بقوة المسيح - من عبودية الخطية وسلطان إبليس، والدخول في الخليقة الجديدة. لذا فالعهد الجديد يؤكد أكثر فأكثر على الخلاص الداخلي بكل نعمه وبركاته الروحية التي تتجاوز حدود وطن أرضي بخصبه وغناه المادي، والتي تتخطى آمال النجاة من الأعداء وأوهام السيطرة والتفوق على سائر الشعوب.

الباب الأول

الخلاص في العهد القديم

تمهيد

الإيمان الذي يحمله لنا الكتاب المقدس هو - أساسا - إيمان في الله كمخلص. ويمكن تتبع تطور الخلاص في العهد القديم، من حيث نشأته، في المقام الأول، من إيمان الشعب العبراني، بأن الله قد خلصهم من الهلاك. وأنه كان في هذا متمما وعده بالخلاص.

ولكن ما يميز الكتاب المقدس هو أنه دائما يحول الحدث التاريخي إلى حقيقة اسخاتولوجية (أخروية أي ما يتصل بالحياة الأخرى)، بحيث أن كل عمل لله في الماضي يعتبر رمزا وظلا وعربونا لعمله في المستقبل. فالخلاص الذي تم في التاريخ يحمل دائما في طياته وعدا وضمانا لخلاص سيحدث في الزمن المستقبل. ومن هنا كانت مهمة الأنبياء العظام في العهد القديم، الذين رأوا خلاصا آتيا في منتهى التاريخ كعمل جديد في الخلقة والفداء، حيث ستأتي إلى الوجود بشرية جديدة، وبالتالي سموات جديدة وأرضا جديدة.

وهذه هي قضية العهد الجديد أيضا، أن هذا التوقع النبوي قد تحقق فعلا في مراحله الأولى بمجيء المسيح يسوع وقيام كنيسته. فالخليقة الجديدة التي تنبأ عنها الأنبياء هي الآن قائمة متحققة مع أنها غير ظاهرة - في هذا الدهر - إلا لعيني الإيمان. والمفديون ما زالوا ينتظرون الخلاص النهائي، أي زوال هيئة هذا العالم بالعمل العظيم للخلقة الجديدة (رؤ ٢١:٥)، والخلاص الأخير (١ بط١:٥)، المزمع أن تظهر معه السموات الجديدة والأرض الجديدة (رؤ ٢١:١)، مرئية بالعيان.

الفصل الأول

حالات النجاة و " تاريخ الخلاص "

من الملاحظ أن كلمة "**يخلص**" ومشتقاتها استخدمت في الكتاب المقدس، وعلى الأخص في إصحاحات الأسفار التاريخية، بمعان غير لاهوتية (أي لا تختص بخلاص الشعب الذي من نسله سيأتي المسيح المخلص الحقيقي لشعوب العالم كله). ومن أمثلة هذه الاستعمالات غير اللاهوتية ما ورد في الآيات التالية:

+ «فقالوا: **أحييتنا**.» (تك ٤٧: ٢٥)

(شعب مصر يقول ليوسف حينما أنقذه من المجاعة).

+ «ولكن القابلتين خافتا الله، ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر؛ بل **استحيتا** الأولاد.» (خر ١: ١٧و١٨)

+ «**وخلص** داود سكان قعيلة.» (١صم ٢٣: ٥)

(قعيلة: مدينة ليست من المدن التي كان يحيا فيها الشعب في القديم).

هذه وغيرها حالات "خلاص"، ولكنها ليست ضمن "تاريخ الخلاص": فالقبيلة أو الأمة التي تحاصرها قبائل معادية أو قوات مستعمرة، هي بلا شك مشغولة بمشكلة حماية نفسها أو "تخليص" نفسها من أعدائها. لذلك فليس عجبا على الإطلاق أن نقرأ كثيرا عن "الخلاص" من العدو دون أن يكون هذا الخلاص هو خلاص الله الداخل ضمن تاريخ تدبير خلاص العالم.

وهنا لابد أن ننبه بشدة إلى أن ما يحدث من ومع إسرائيل الدولة السياسية اليوم لا يمكن بأي حال نسبته إلى ما كان يحدث من ومع شعب الله في القديم، لأن تاريخ الخلاص لم يعد يمر بأطوار مادية وحسية كما كان في العهد القديم. ذلك لأن "المخلص" الذي هو بؤرة تاريخ الخلاص قد أتى ورفضته إسرائيل وقبلته الكنيسة، فخرجت إسرائيل الرافضة لخلاص الله نهائيا من "تاريخ الخلاص"، ودخلت كنيسة العهد الجديد (يهودا وأمما) التي قبلت خلاص الله في "تاريخ الخلاص"، وصارت تشكل محور هذا التاريخ؛ بل وترث كل ميراث معاملات الله القديمة مع شعبه.

إن التاريخ الذي يحتويه الكتاب المقدس ليس "تاريخ شعب"؛ بل "تاريخ خلاص". وكل من يقبل الخلاص يدخل ضمن هذا التاريخ، وتسري عليه قوانينه ونواميسه ويتمتع ببركاته ونعمه.

إن ما نعرفه من خبرة العهد القديم أن الرفاهية الفردية والقومية هي عطايا من الله وحده، وينبغي طلبها من يدي الله. والمعروف من الوحي الإلهي أن أمان إسرائيل القديم كان في إله إسرائيل وحده، وليس الأحلاف مع الدول القوية (أش ١:٣٠و٣١)؛ وأن الله وحده، وليس المقتنيات المادية أو أي أموال أو عقارات أخرى، هو الذي يعطي الرخاء للإنسان. لذلك من الصعب أن نجد فيما يسمى دولة إسرائيل اليوم أي شبه أو علاقة من بعيد أو من قريب بالشعب القديم الذي كان أداة الله لخلاص العالم كله.

وقد يصعب أحيانا، ونحن نقرأ في العهد القديم، التمييز بين حالات النجاة الطبيعية اليومية الطارئة من الخطر، وبين حالات النجاة التي يكون الله نفسه هو مصدرها. وذلك لأننا لا يمكننا أن نميز كما يجب بين ما هو "دنيوي"، وما هو "مقدس" في تاريخ الشعب في العهد القديم. هناك اعتبار - بنوع ما - بأن كل تاريخ العهد القديم هو **"تاريخ خلاص"**، حتى إنه من الحق أن نقول إنه بهذا

الاعتبار ليس في الكتاب المقدس أي تاريخ "دنيوي" للشعب القديم.

حقا إن أقساما كثيرة من التاريخ الوارد في الكتاب المقدس تشابه أقسام تاريخ الشعوب الأخرى، إلا أن رواية الكتاب المقدس هي وحدها التي يمكن اعتبارها "تاريخ خلاص". فمثلا قصص فرار وهروب داود خادم البلاط والمغامر الصغير الذي قام بغارات جريئة على الفلسطينيين الأشداء، وذبح بطلهم جليات في معركة واحدة (١صم ١٧:٢٦-٥٤)، لها مثيل في التواريخ الوطنية لكثير من الأمم، وهي ليست مختلفة عن قصص روبين هود حبيب الأطفال في كل الأجيال ورجاله المرحين، وأبو زيد الهلالي وغيرهم. إلا أن تاريخ داود هو تاريخ مقدس، وتاريخ روبين هود وغيره من الأبطال القوميين ليس كذلك. ليس لأن قصص داود أكثر بنياناً وأخلاقية من قصص روبين هود وغيره من قصص الأبطال، ففي مجال الفائدة الأخلاقية طبعاً لا يمكن المفاضلة بينهما. ولكن الاختلاف الجوهري بينهما، هو أن قصص داود تدخل في خط تاريخ الخلاص، أي خط عمل الله من جهة تدخُّله في أحداث تاريخ العالم القديم، والذي أدَّى في النهاية إلى تتميم قصده في خلاص البشرية كلها بالمسيح.

فإنه بسلسلة خاصة من الأحداث التاريخية، ومن خلال تاريخ شعب معين، كمل قصد الله الخلاصي في اسم يسوع المسيح. **ولأن الخلاص، هو في اسم يسوع المسيح وليس غيره** (أع ٤:١٢)، لذلك فالتاريخ الذي يسرده الكتاب المقدس هو **"تاريخ خلاص"**. ولهذا السبب فإن قصة الخلاص تتضمن قصص وسِيَر حياة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ويشوع وراحاب الزانية وجدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل وباقي الأنبياء (عب ١١).

فتاريخ الخلاص، هو قصة العمل الإلهي من أجل خلاصنا في ومن خلال حياة وأشخاص الشخصيات التاريخية الحقيقية اللابسة لحماً ودماً، منهم الشهوانيون، ومنهم الواقعون تحت الخطأ، ومنهم الأتقياء مثلهم في هذا مثل

كل الناس العاديين. إلاَّ أنهم، وبدون أي فضل منهم، كانوا آلات التدبير الإلـــهي من أجل خلاص العالم.

لذلك، ومن أجل ذلك كله، فلا نعجبن إن كنا كثيراً ما نجـــد صعوبـــة فـــي التمييز بين الاستعمال العادي لكلمة "يخلِّص" فـــي الكتـــاب المقـــدس، وبيـــن استعمالها اللاهوتي الجبار، ولكن نسيج التاريخ الكتابي كله يحمل في طياته سر الخلاص.

إن سفر المزامير يحتوي على أعظم "الترانيم الخلاصية" حيوية وفعاليـــة، وهو يشهد على وعي الشعب قديماً بخلاص الله العظيم (اقرأ بإمعان المزامـــير الآتيـــة: ١٨ و٣٠ و٣١ و٣٤ و٤٦ و٤٨ و٦٨ و٩١ و٩٥-٩٩ و١٠٥-١٠٧ و١١٦ و١١٨ و١٣٦ و١٤٥).

وحينما كان الشعب يجتاز محنة من المحن، فإن الأنبياء سرعان ما كـــانوا يُذكِّرون رجال أُمتهم أن ذلك ليس بسبب أن يهوه غير أمين لعهده ووعـــده، أو لأنه أضعف من أن يخلِّصهم، ولكن كان ذلك بسبب خطاياهم. فـــقد رفضـــوا الخلاص الذي يقدِّمه لهم دائماً، والذي يمكن أن يعود لهم ثانية بشرط توبتهم:

- «ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفي عصيانكم،

ها قد أتينا إليك لأنك أنت الرب إلهنا،

حقاً باطلة هي الآكام ثروة الجبال،

حقاً بالرب إلهنا خلاص إسرائيل.»

(إر ٣:٢٢و٢٣) (راجع: مراثي ٣:٢٦)

وهنا يتضح تماماً سر علاقة الله مع شعبه قديماً: إنها كانت حلقة ومرحلة في تدبير الخلاص الآتي بالمسيح لكل العالم. لذلك فحينما أتى المســيح، أكمـــل الله

علاقته لتكون مع شعوب العالم أجمع، وليس مع شعب واحد بعينه. وليس لـــدى الله محاباة لجنس من الأجناس كما يدَّعي اليهود.

وقد كشف الناموس عن عجز الإنسان عن استيفاء مطـــالب الله للخـــلاص، وصارت وسائط الخلاص في العهد القديم قاصرة عن إغاثة الإنسان لـــيرضي الله، وذلك بسبب الخطية المتغلغلة في طبيعة الإنسان، لأن وســـائط الخـــلاص الخارجية باعتبارها ناموساً أخلاقياً للسلوك الخارجي كانت مجردة مـــن القـــوة الروحية الداخلية الضامنة لدوام هذا السلوك. بل إن الله اعتـــبر هـــذا الســـلوك الخارجي مجرَّد "برّ" ذاتي يحاول به الإنسان أن يشـــتري الخـــلاص الإلـــهي، وهيهات!

الفصل الثاني

الخلاص كنجاة حدثت في التاريخ

إن اعتــقاد شعب إسرائيل قديما بأن الله هو مخلصهم الخاص إلى كل الآباد (إش ٤٥: ٧)، قائم على الخبرة الواقعية في الخلاص على مدى التاريخ القديــم. ولا شك أنه كانت هناك خبرات كثيرة جدا كمثل التي ذكرت فـــي كثـير مــن المزامير (على سبيل المثال ٤٦ و١١٨)، حينما اختبر إسرائيل نجاة خلاصيــة، ولكن الشواهد في العهد القديم لا تــترك مجالا، على الإطلاق، للشــك فــي أن الخبرة الحاسمة مع خلاص الله كانت هي أولا نجاتهم من عبوديــــة فرعــون، ومعجزة عبور البحر الأحمر، والخبرات اللاحقة لعناية الله الأبويــة لــهم فــي البرية.

لقد خرج بنو إسرائيل من مصر إلى البرية ثم إلى كنعان، ليس كمجموعـــة قبائل؛ بل كشعب واع بشخصيته، ومترابط معا بفهم واحد لإرســـاليته العامــة ومصيره، وبأن الرب قد صنع خلاصا لإسرائيل فـــي البحـــر الأحمـــر (خـــر ١٤: ١٣و ٣٠-٣١؛ ١٥: ١-٢و ١٣).

+ «فقال موسى للشعب: لا تخافوا قــفوا وانظروا خـــلاص الـــرب الـــذي يصنعه لكم اليوم... فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصرييـــن... ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين».

+ «حينئذ رنم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا: أرنم للـــرب فإنه قد تعظم، الفرس وراكبه طرحهما في البحر. الرب قوتي ونشـــيدي، وقـــد

صار خلاصي. هذا إلهي فأمجده».

لقد ترك اختبار الخلاص هذا علاماته على كل وجود الشعب الإسرائيلي اللاحق، وعلى كل جزء في العهد القديم. لقد ترنم به في الأبصلمودية (المزامير)، وسرد جيلا بعد جيل، وأعيد تمثيله في طقوس الفصح:

+ « اللهم بآذاننا قد سمعنا، آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم، في أيام القدم.» (مز ٤٤: ١)

إنه على اختبار إسرائيل القديم في الخلاص تأسس مفهوم الإيمان الذي يكرز به عن الخلاص. فتعليم الكتاب عن الخلاص ليس نظرية أو مجموعة أفكار عن الله، وهو ليس استدلالا من فلسفة إيمانية، ولا هو مبني على أي فن من فنون الاستغراق في الإلهيات. لكن إيمان الكتاب المقدس هو أساسا **"ترديد حادثة"**... ترديد الأعمال العظيمة التي صنعها الله في التاريخ من أجل شعبه. إن تعليم الكتاب المقدس عن الخلاص هو تأكيد لما قد حدث فعلا.

+ «تقول لابنك: كنا عبيدا لفرعون في مصر، فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة وصنع الرب آيات وعجائب عظيمة ورديئة بمصر، بفرعون وجميع بيته، أمام أعيننا. وأخرجنا من هناك، لكي يأتي بنا، ويعطينا الأرض التي حلف لآبائنا.» (تث ٦: ٢١-٢٣)

وهكذا نرى أن الكتاب المقدس يهتم ليس بفلسفة الدين؛ بل بإعلان: (كيرجما **Kerigma**= كرازة) الإنجيل (البشارة المفرحة)، إنه ترديد دستور إيمان، بنوده تتكون من الأحداث التاريخية أكثر من القضايا الفلسفية أو اللاهوتية. إن شخص الله لا يمكن التعرف عليه في ذاته أو بمعزل عن إعلان الله لذاته من خلال أعماله. إن حقيقة **"الله محبة"** ليست استنتاجا بلغناه بالفلسفة بعد تدرج طويل من التأمل في كيان الله وفي صفاته، ولكنه نتيجة إعلان الله

عن نفسه من خلال عمله الخلاصي في التاريخ:

+ «بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم، أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر. فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل.» (تث ٧:٨و٩)

إذاً، فالخلاص ليس شيئاً مستخرجاً من التأمل في شخصية الله وكأنه شيء وصلنا إليه بالفلسفة، لكنه الحقيقة التي استقرأ منها شعب الله شخصية الله المُحبة. نحن لا نؤمن بخلاصنا الكامل، لأننا اعتقدنا أولاً أن الله محبة؛ بل نحن نؤمن أن الله محبة بسبب خبرتنا في الخلاص الذي صنعه الله من أجلنا.

هذا هو ما يدل عليه قولنا حينما نتحدث عن الإيمان الذي يكرز به الكتاب المقدس، أنه إيمان "تاريخي"، وهذا أيضا ما يفرق هذا الإيمان عن كل "دين". وهذا هو السبب الذي من أجله لا يستسيغ كثير من اللاهوتيين اليوم التحدث عن "الإيمان الذي يكرز به الكتاب المقدس" كأنه دين من بين الأديان. إنه إعلان الله عن ذاته بأعماله الخلاصية التي صنعها ويصنعها وسيصنعها مع خليقته.

الإيمان الكتابي ترديد لتدبير الخلاص:

إيمان الكتاب المقدس يظهر، في مقارنته بالأديان الأخرى، من جهة شخصيته كترديد لتدبير الله الخلاصي: «افتقد وصنع فداء لشعبه» (لو ٦٨:١). إن عبادة الله تتضمن ترديد قانون الإيمان التاريخي، إعلان ما فعله الله... ولنتأمل هنا مثلا الفصل المختص بتقدمة باكورات الأثمار:

- «فتأخذ من أول كل ثمر الأرض الذي تحصل من أرضك التي يعطيك الرب إلهك وتضعه في سلة وتذهب إلى المكان الذي يختاره الرب إلهك ليحل اسمه فيه. وتأتي إلى الكاهن الذي يكون في تلك الأيام وتقول له:

أعترف اليوم للرب إلهك أني قد دخلت الأرض التي حلف الرب لآبائنا أن يعطينا إياها. فيأخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب إلهك، ثم تصرح وتقول أمام الرب إلهك: أراميا تائها كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل. فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة. فأساء إلينا المصريون وثقلوا علينا وجعلوا علينا عبودية قاسية. فلما صرخنا إلى الرب إله آبائنا سمع الرب صوتنا ورأى مشقتنا وتعبنا وضيقنا. فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة وذراع رفيعة ومخاوف عظيمة وآيات وعجائب. وأدخلنا هذا المكان وأعطانا هذه الأرض أرضا تفيض لبنا وعسلا. فالآن هاأنذا قد أتيت بأول ثمر الأرض التي أعطيتني يا رب. ثم تضعه أمام الرب إلهك وتسجد أمام الرب إلهك.» (تث ٢٦:٢-١٠)

وهذا ما يصنعه شعب الله المفدي اليوم، في العهد الجديد، في خدمة الإفخارستيا في الكنيسة المسيحية كنيسة العهد الجديد. هناك ترديد لحدث[١] الفداء التاريخي، وذلك حينما يصرخ الكاهن خادم الأسرار: «أن الرب في الليلة التي أسلم فيها ذاته أخذ خبزا...» (١ كو ١١:٢٣). والكنيسة في عبادتها تردد أيضا دستور إيمان نيقية، الذي ليس هو تصريحات فلسفية باعتقاداتنا عن الله؛ بل إعلان ما صنعه الله بنفسه فعلا في التاريخ **"من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا" "على عهد بيلاطس البنطي"**.

---

(١) يردده الكاهن باسم الشعب في صلاة "الصلح" وصلاة "آجيوس، آجيوس، آجيوس" التي تنتهي بترديد ما صنعه الرب يسوع يوم خميس العهد، والشعب يشترك في الترديد بكلمة آمين، ثم يختمها بصراخه بصوت واحد: "آمين آمين آمين بموتك يا رب نبشر وبقيامتك المقدسة وصعودك إلى السموات نعترف"، تعبيرا عن اشتراك الكنيسة معا كشعب الله في إعلان خلاص الله الذي تم على الصليب للبشرية كلها. وهذا هو ما يجعل الكنيسة هي حقا الكنيسة.

هناك عامل مهم في الخلاص التاريخي يظهر من المرات العديدة التي يُنسَب فيها لضمير المتكلم الجمع صلته بهذا الخلاص. فبالرغم من أن الحَدث التاريخي قد حدث منذ أجيال، إلاَّ أنه حدث **لنا نحن البشر**، نحن الذين صرنا بالإيمان أعضاء في الشعب الذي تم الخلاص من أجله. إن حدث الخلاص هو جزء من وجودنا، ليس شيئاً ميتاً أو حدثاً قد مضى وانتهى، ولا هو شيء حدث لشعب عاش منذ أمد طويل، كما أنه ليس حدثاً بلا فاعلية من أجلنا: «أرامياً تائهاً كان أبي، فانحدر إلى مصر... سمع الرب صوتنا، ورأى مشقتنا... فأخرجنا الرب من مصر...» (تث ٢٦:٥-٨)، «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا... نخبركم به...أيضا» (١ يو ١:١-٣)

الحدث الخلاصي يحتفل به سرائريا:

إن الحدث الخلاصي يحتفل به سرائريا، يقام - بالسر **Mystically** - في زماننا، في تذكار عشاء الفصح الجديد الذي هو تذكار عشاء الرب:

الرمز: «ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيدا للرب. في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية... فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلى الأبد... هي ليلة تحفظ للرب لإخراجه إياكم من أرض مصر. هذه الليلة هي للرب. تحفظ من جميع بني إسرائيل في أجيالهم.» (خر ١٢:١٤و٢٤و٤٢)

الحقيقة: «اصنعوا هذا لذكري» (لو ٢٢:١٩)، «لأنكم في كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كو ١١:٢٦).

إن فعل الخلاص، يظل حيا فعالا من خلال التاريخ المستمر للخــــلاص([٢]). **فالخلاص ليس مجرد حدث في الماضي؛ بل هو قائم وحاضر وحقيقة في حيـاة أولئك الذين يحتــفظون به بكلمة الله وبالأسرار، الخلاص الذي صنـــع مـرة واحدة ومن أجل الكل، من أجل كل الشعوب.** هذا الخلاص تستمده، وتــناله كل عائلة وكل فرد في كل مرة تجاوب العائلة أو يجاوب الفرد على عمل خـــلاص الله، بالعبادة والشكر (الإفخارستيا).

- «إذا سألك ابنك غدا قائلا: ما هي الشهادات والفرائض والأحكام التــــي أوصاكم بها الرب إلهنا. تــقول لابنك: كنا عبيــــدا لفرعــون مصــــر، فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة. وصنع الرب آيات وعجائب عظيمة ورديئة بمصر، بفرعون وجميع بيته أمام أعينـــنا. وأخرجنا من هنــــاك لكي يأتي بنا ويعطينا الأرض التي حلف لآبائـــنا. فأمرنا الرب أن نعمل جميع هذه الفرائض، ونتــقي الرب إلهنا ليكون لنا خـــير كــل الأيـــام، ويستبقينا كما في هذا اليوم. وإنه يكون لنا بر إذا حفظنــــا جميـــع هـــذه الوصايا لنعملها أمام الرب إلهنا كما أوصانا.» (تــث ٦:٢٠-٢٥)
- «ومتى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلـــهك نصيبـــا وامتلكتـــها وسكنت فيها، فتأخذ من أول كل ثمر الأرض الذي تحصل عليــــه مـــن أرضك التي يعطيك الرب إلهك.» (تــث ٢٦:١-١١)
- «فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنســـان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمــــي فلــه

([٢]) تاريخ الخلاص في العهد القديم، ثم تاريخ الخلاص في العهد الجديد، حقبتـــان لتـــاريخ واحد مستمر في نظر الكنيسة. أي أن شعب إسرائيل الذي رفض ومـــا زال يرفــض الإيمـــان بالمسيح، ليس في نظر الله الآن هو شعب العهد القديم الذي سمع المواعيد ونال العهود والمواعيد من الله وصدقها.

حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير.» (يو ٦:٥٣-٥٨)

- «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح. الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعا نشترك في الخبز الواحد.» (١ كو ١٠:١٦و١٧).

- «لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا، أن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي، اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري؛ فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١ كو ١١:٢٣-٢٦)

تذييل هام:

العهد القديم ومركزه في الكنيسة المسيحية

إن أهمية المركز الذي يحتله العهد القديم في الكنيسة المسيحية تظهر بأشد وضوح في ذلك الصراع العنيف الذي قاومت به الكنيسة بدعة الغنوسية في القرن الثاني الميلادي. وكان الصراع أساسا من أجل حفظ نقاوة الإيمان المسيحي. لقد كان الميدان الذي تعرض للتهديد في الإيمان المسيحي هو: **قبول العهد القديم لدى الكنيسة المسيحية**.

إن الغنوسيين كانوا ينظرون إلى الإنجيل كأنه آت دون إعداد سابق له – أو بتعبير أدق – كأنه "أنزل" فجأة في عصر من العصور! وهكذا ألغت الغنوسية من تفكيرها "**تاريخ تدبير الله الخلاصي للبشرية**"، ذلك التاريخ الذي بدأ منذ بدء السقوط، ولن ينتهي إلا بعد الظهور الثاني للمسيح. وهكذا نظرت الغنوسية إلى أحداث العهد القديم باعتبارها خرافة وتمادت في هذه النظرة، فلم تعد تأخذ السيرة التاريخية لحياة يسوع أيضا مأخذ الجد، وأدى بها الأمر في النهاية إلى بدعة "**الدوسيتية**" التي رأت في المسيح أنه يحمل جسدا خياليا، وأنه "شبه" لتلاميذه كأنه جسد وكأنه صلب ومات!

أرأيت، إذا، كيف أن رفض العهد القديم باعتباره حقبة في تاريخ خلاص البشرية، ومحاولة عزل العهد الجديد عن العهد القديم، هو خدعة وخطوة أولى نحو رفض يسوع المسيح أيضا الذي "**تألم من أجلنا، ومن أجل خلاصنا نحن البشر**"؟

وماذا يعني قبول العهد القديم من جانبنا نحن أبناء العهد الجديد؟

إن المسيحية لا ترى في الخلاص والوحي أحداثا عمودية، أي منفصلة بعضها عن البعض وعما سبقها ولحقها من أحداث. إن كل البشيرين والرسل الأوائل - بدون استثناء - الذين كتبوا أسفار العهد الجديد، اقتبسوا من العهد القديم وأشاروا إلى نبواته ورموزه وفسروها بأحداث العهد الجديد؛ وهذا يشير إلى أن إيمانهم في المسيح، هو إيمان في تاريخ تدبير الله للخلاص، وليس إيمانا في مجرد حدث خلاصي منفصل عما سبقه من سلسلة أحداث العهد القديم. فالأحداث كلها في العهد القديم مرتبطة بعضها بالبعض، كل حدث فيها يفسر ما قبله من أحداث ويزيد ما بعده وضوحا ومعنى. وكل أحداث العهد القديم، هي تمهيد وإعداد للخطة الحاسمة في تاريخ الخلاص كله، ألا وهي مجيء المسيا الذي صار "مركز" تاريخ الخلاص كله: يفسر ويوضح ويعطي معنى لكل ما سبقه من أحداث ونبوات ورموز، ويعمل بقوة في كل ما لحقه من تاريخ وأحداث على ضوء الفداء العظيم الذي صنعه بدمه على الصليب، على جبل الجلجلة عند المساء؛ حتى يرجع الخليقة كلها مرة أخرى لله أبيه، ليصير الآب الكل في الكل، ولتصير الأرض كلها حقا للرب ولمسيحه.

الفصل الثالث

الخلاص كحدث إسخاتولوجي

إن كلمة "إسخاتولوجي"، هي نُطْق مشتق من الكلمة اليونانية τὰ ἔσχατα التي تعني "الأشياء الأخيرة". وقد استُخدم هذا الاصطلاح العلمي منذ القرن التاسع عشر، وهو يشير إلى عقيدة الأحداث التي ستحدث في الأيام الأخيرة: أي نهاية التاريخ والكون وبداية "زمان" الخلاص الأبدي.

ولكننا حينما نقول إن الخلاص هو "حدث إسخاتولوجي"، فنحن نعني ما هو أكثر من كونه حدثاً مستقبلياً أو حقيقة مستقبلة.

فالحقيقة "الاسخاتولوجية"، هي الحقيقة القائمة الآن، الحاضرة والفعَّالة، ولكنها في نفس الوقت ليست متحققة ومنظورة إلاَّ بالإيمان.

ففي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد نجد أن الخلاص هو حقيقي، وقد حدث، وهو فعَّال، لكنه ليس متحققاً كليةً ولا منظوراً من الكل ولا بلغ كماله نهائياً. فنحن نعيش حالة متوسطة "بين الأزمنة"، حيث بالإيمان نعرف فعلاً الخلاص الذي هو خلاصنا، بالرغم من أننا لم نمتلكه تماماً ولم نستوعبه نهائياً. ففي العهد القديم نجد أن خلاص إسرائيل مؤكَّد تماماً من خلال الأسفار المقدسة، إذ أنه تم عند الخروج من مصر وختم عليه بالعهد الأبدي الذي صنعه الله مع موسى على جبل سيناء. وبحسب تعاليم الأنبياء، كان عمل الله في الخلاص عند البحر الأحمر عملاً فعَّالاً في تاريخ إسرائيل القديم، كان افتداءً مستمراً تَمثَّل في نجاة شعب الله من غزو الأشوريين وبعدها من السبي البابلي، ولكنه بحسب

تبشير الأنبياء، سوف يصل إلى كماله في افتداء شعب الله وكل الأمـــم بمـــوت المسيح، في نهاية الأزمنة، أي يوم خلقة السموات الجديدة والأرض الجديدة. إن نبوات إشعياء على الأخص هي التي تقدم هذا التعليم وتشرحه بوضوح.

إذاً، ليس من انفصـال أو تعارض بين الخلاص التاريخي (أي الذي حـدث)، والخلاص الاسخاتولوجي (أي المنتظر اكتماله)، لأن الخلاص الأول لكونه فعَّالاً في الحاضر وليس مجرد حَدَثٍ مضى وانتهى، هو بمثابة الرحم الذي يتصـــوَّر فيه الخلاص الثاني، أو هو الرمز للمرموز إليه. فالخلاص الاسخاتولوجي هـــو خلاص حادث منذ الآن، فعَّال في الحاضر؛ لكنه بالرجـــاء ســيكون التحقيـق النهائي هناك فيما وراء زمن وتاريخ الخلاص التاريخي الذي كان مثالاً ووعـداً سابقاً له.

الماضي، والحاضر، والمستقبل، لا يتضمنون ثلاثة أنواع من الخلاص؛ بـل خلاصاً واحداً.

الـبر والخلاص:

في بشارة الكتاب المقدس، هناك صلة وثيقة بين الخـــلاص والــبر، وقـد صارت الكلمتان واقعياً متشابهتين، لأنهما صارتا تعبِّران عن سمات الشـــخصية الإلهية المستعلَنة بالوحي. فالله يخلِّص شعبه لأنه بار، وليس لأن هذا الشعب هو البار:

- «لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلاً: لأجـل بـرِّي أدخلني لأمتلك هذه الأرض، ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الـــرب من أمامك. **ليس لأجل برِّك** وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم؛ بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك، **ولكي يفـــي بـــالكلام** الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلم أنه ليـــس

لأجل برِّك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صُلْبُ الرقبة.» (تث ٩:٤-٦)

فإنه ليس من أجل استحقاق شعب الله خلَّصه الله وطهره، لقد صنع الله ذلك من «أجل اسمه القدوس» (حز ٣٦:٢٢-٣٢). أي أن الله لا يمكن أن ينكر طبيعته أو ينقض عهده، وبالرغم من أن شعب إسرائيل كان غير أمين لعهده ووعده، فإن الله ظل أميناً. فلأنه بار، لذلك فلم يترك شعبه؛ بل وجد ما يمحو خطاياهم وما يبررهم به حتى يمكن أن يقفوا أمام حضرة الله كأبرار:

- «استخدمتني بخطاياك، وأتعبتني بآثامك،

(ولكن) أنا أنا هو الماحي ذنوبك **لأجل نفسي**،

وخطاياك لا أذكرها.

ذكِّرني (بالعهد) فنتحاكم معاً (كما في محكمة)،

حدِّثْ (أعرض قضيتك)، لكي تتبرر (أي تثبت براءتك).» (إش ٤٣:٢٤-٢٦)

وهكذا، فإنه ليس بسبب أي برٍّ ذاتي أو أي امتياز خاص خلَّص الله شعبه في القديم؛ بل بسبب برِّ الله. وهذا هو معنى التأكيد على أن يهوه «إله بار ومُخلِّص.» (إش ٤٥:٢١)

الخلاص والبر عنصران في صفات الله لا ينفصلان، لا قيام للواحد بدون الآخر. برُّ إسرائيل هو بالإيمان وحده، وقد تكلَّم إشعياء منذ القديم بهذا الحق الإلهي عن الخلاص الذي أتى بولس الرسول فيما بعد وكشفه من تحت ضلال تعاليم الرابيين عن الاستحقاق الشخصي. ولم يكن بولس مُغالياً حينما أوضح أن الأنبياء علَّموا عقيدة التبرير بالإيمان التي رفضتها اليهودية الرابيَّة: «أما البار

فبالإيمان يحيا» (حبقوق ٢:٤، رو ١٧:١، غل ٣:١١). ولقد أهمل الكثيرون هذه الحقيقة: إن تعليم بولس الرسول عن التبرير سبقت الإشارة إليه في أنبياء العهد القديم. إن تشبيه التبرير بمناظرة بين الله والإنسان مؤسَّس على صورة يهوه في أذهان الأنبياء، وقد ارتبط بالقانون في قاعة محكمة مع شعب متمرد:

- «هلمَّ **نتحاجج** يقول الرب...» (إش ١٨:١)
- «إن للرب **محاكمة** مع سكان الأرض...» (هو ١:٤)
- «للرب **خصومة** مع يهوذا...» (هو ٢:١٢)
- «فإن للرب **خصومة** مع شعبه، وهو **يحاكم** إسرائيل...» (ميخا ٢:٦)

ويتحدث الأنبياء عن حكم تبرئة أو تزكية أو تبرير المخطئ:

- «حدِّث لكي **تتبرر**.» (إش ٢٦:٤٣)
- «أخبروا، قدِّموا، وليتشاوروا معاً. مَنْ أَعلَم بهذه منذ القديم؟ أخبر بها منذ زمان؟ أليس أنا الرب ولا إله آخر غيري. إنه **بار ومخلِّص**. ليس سواي. التفتوا إليَّ واخلُصوا يا جميع أقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر. بذاتي أقسمتُ، خرج من فمي الصدق كلمة لا ترجع: **إنه لي تجثو كل ركبة. يحلف كل لسان.**» (إش ٤٥:٢١-٢٣)

إن استعمال القديس بولس لكلمة "يبرِّر" مأخوذ عن الترجمة السبعينية. وهو يستخدمها ليؤكِّد اعتقاد العهد القديم الشائع أنه «ليس يتبرر قدامك حيٌّ».

وتعليم القديس بولس عن الخلاص سبق وروده في إش ٥٩، فيما عدا أن إشعياء ٥٩ يتطلع في رجاء إلى الفادي الآتي لصهيون لابساً درع البر وخوذة الخلاص؛ بينما القديس بولس يعلن الإنجيل الذي هو فعلاً الآن **قوة الله للخلاص**. أي أن برَّ الله قد استُعلن في المسيح الفادي الذي فيه يتحقق وعد

الخلاص.

- «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل مَنْ يؤمن، لليهودي أولاً ثم لليوناني. لأن فيه مُعْلَن بر الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب: **أما البارُّ فبالإيمان يحيا**.» (رو ١:١٦و١٧)

- «الذي قدَّمه الله كفَّارة بالإيمان بدمه، لإظهار برِّه، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله، لإظهار برِّه في الزمان الحاضر، ليكون باراً ويبرِّر مَنْ هو من الإيمان بيسوع.» (رو ٣:٢٥و٢٦)

وهكذا فـ "الخلاص" و "التبرير" عند القديس بولس والنبي إشعياء، كلمتان هما في الواقع متشابهتان. أو بمعنى آخر، فإن بولس الرسول يعبِّر عن تعليمه عن الخلاص بكلمات "التبرير بالإيمان". الخلاص هو التبرير، وهو مترتب على بر الله.

الخلاص والخليقة الجديدة:

في نظر الأنبياء، الخلاص هو في الحقيقة مقترن مع الخلقة. فالعمل الخلاصي هو بالضرورة خليقة جديدة. وليس صدفة أن يقدم إشعياء أوضح تعبير نجده في العهد القديم سواء عن عقيدة: «الله الخالق ضابط الكل»، أو عن عقيدة أن الله هو الفادي. إن إشعياء يرى بجلاء أن الفداء ينطوي على خليقة جديدة. وهذه نقطة أخرى أوضحها القديس بولس واهتم بها في حديثه عن عمل المسيح الفدائي في (٢ كو ٥:١٧و١٨):

- «إذاً، إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً. ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة».

ويرى إشعياء النبي في فداء إسرائيل من مصر ونجاتهم من أسرْ بابل المزمع أن يكون[1]، عملاً خلاصياً وتجديداً للخلقة الأولى. فـ "الخالق – المخلِّص" الذي هزم التنين وأسَّس العالم، هو الذي قام بخلقة جديدة وافتدى إسرائيل من مصر بمعجزة البحر الأحمر (راجع خر ١٥:١–١٦، مز ١١:٧٧–٢٠؛ مز ١١٤). وها هو يهوه الآن يفتديهم مرة أخرى بعمل خلقة وخلاص، فيخلص مفديُّو يهوه ويرجعون (من سبي بابل)، ويأتون مرنمين إلى صهيون:

- «استيقظي، استيقظي، ألبسي قوة يا ذراع الرب،

استيقظي كما في أيام القِدَم، كما في الأيام القديمة،

ألستِ أنتِ القاطعة رَهَب، الطاعنة التنين؟

ألستِ أنتِ هي المنشِّفة البحر، مياه الغمر العظيم، الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين؟

ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنُّم، وعلى رؤوسهم فرح أبدي.» (إش ٩:٥١–١١)

- «هكذا يقول الرب فاديكم قدوس إسرائيل:

لأجلكم أرسلت إلى بابل، وألقيت المغاليق كلها (قضبان السجن)،

أنا الرب قدوسكم خالق إسرائيل ملككم...

الجاعل في البحر طريقاً وفي المياه القوية مسلكاً.» (إش ١٤:٤٣–١٦)

وهكذا، وبحسب فكر الأنبياء، فإن الخليقة تتجدد بالفداء، والخلاص يجب أن

---

[1] تنبأ إشعياء النبي عن السبي البابلي قبل وقوعه بـ ١٥٠ عاماً (قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية ١٩٧١، ص ٨١ و٨٢؛ وعن سفر إشعياء من ص ٨٢–٨٥)

ننظر إليه على أنه خليقة جديدة. حينما أخرج الله إسرائيل من مصر، أو من بابل، فإنه خلق إسرائيل جديداً. فكرة "إسرائيل جديد" واضحة في حديث الأنبياء عن خلاص يهوه، وبالتالي فإنه مع تنامي انتظار الخلاص العظيم الآتي، ظهر رجاء واضح أيضاً في عالم جديد. هذا الرجاء أخذ صوراً شتى. فقد ظهر على أنه – حسب إشعياء النبي – تجديد في النظام الطبيعي، أو هو وجود في فردوسٍ كما في بدء العالم (إش ٩:٢–٧؛ ١١:١–٩):

- «الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور. أكثَرْتَ الأمة، عظَّمت لها الفرح. يفرحون أمامك كالفرح في الحصاد كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة...

- لأنه يولَد لنا ولد ونُعطَى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً رئيس السلام. لنمو رياسته وللسلام لا نهاية، على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبِّتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا».

- «ويخرج قضيب من جذع يسَّى وينبت غصن من أصوله. ويحلُّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سَمْع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويُميت المنافق بنفخة شفتيه، ويكون البرُّ مِنْطقة مَتْنَيْه والأمانة مِنطقة حقويه.

- فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمَّن معاً، وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سرب

الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي، لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر».

وقد ظهر هذا الرجاء في شكل سموات جديدة وأرض جديدة سوف تأتي إلى الوجود، حينما تزول السموات والأرض القديمة:

• «لأني هاأنذا خالقٌ سمواتٍ جديدةً وأرضاً جديدة، فلا تُذكر الأولى ولا تخطر على بال.» (إش ٦٥:١٧؛ ٦٦:٢٢)

* * *

بعد السبي: التنبؤ بخلاص أسمى من الخلاص المادي:

وبعد رجوع اليهود من السبي، بدأ **الأنبياء يتنبأون عن خلاص متسامٍ على الخلاص المادي وعن مملكة أسمى من المملكة السياسية**. ولأن الله إله خلاص، فسوف يخلق عالماً جديداً فيه يتحقق قصده وفيه يدخل شعبه إلى راحته؟

• «لأني هاأنذا خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة...» (إش ٦٥:١٧-٢٥)

أورشليم الروحية الجديدة هذه، هي التي فيها تستقر حالة البراءة التي كانت في الفردوس، حيث يأكل الذئب والحمل معاً.

في ذلك الوقت الذي بدأ فيه الأنبياء يتنبأون، أصبح مفهوم الخلاص الآتي إسخاتولوجيا تماماً، فهو **الخلاص الذي سوف يشمل كل الأرض** في يوم يهوه العظيم. في ذلك اليوم سيأتي كلُّ "ذي جسد" ويسجد أمامه:

• «لأنه كما أن السموات الجديدة والأرض الجديدة التي أنا صانع تثبت أمامي يقول الرب... يكون أن **كل ذي جسد** يأتي ليسجد أمامي.» (إش

٦٦: ٢٢و٢٣)

إن هذا الخلاص الآتي موثوق به بسبب أعمال الله على مدى تاريخ العهد القديم لافتداء شعبه. وإن **معرفة هذا الخلاص** قد حُفظت في أسفار العهد القديم بتسجيل الأعمال التي صنعها الله مع الشعب العبري في القديم الذي اختبر افتداء الله له **على المستوى المادي الجسدي فقط.**

أما الذي سند هذه المعرفة وثبّتها، فهو تذكُّر أعمال الله العظيمة بالطاعة لوصاياه وبحفظ الفصح كذكرى له، أي بممارسة واستعادة ذكرى النجاة التي حدثت. والفصح كان في الوقت نفسه هو **عربون الخلاص الذي سوف يأتي.**

إن معرفة الخلاص في الكتاب المقدس تصل إلينا من خلال كلمة الله والأسرار معاً: أي من خلال **طاعة وصاياه، وتذكُّر الاحتفال بالخلاص سوائرياً** «اصنعوا هذا لذكري.» (١ كو ١١: ٢٤)

الفصل الرابع

توقّع المخلّص

الخلاص يعني طبعاً وجود مخلِّص، وفي الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون هذا المخلِّص غير الله.

والعهد القديم في معظم أجزائه يتكلم عن مخلِّص واحد وليس غيره، ألا وهو الله نفسه.

وكما رأينا من قبل أن يهوه قد يُرسل مَنْ يسميهم أحياناً مخلِّصين بشريين من لدنه، في بعض أزمات ومحن شعبه، ولكن التأكيد الرئيسي في العهد القديم أن الله نفسه هو الذي يخلِّص وليس غيره مُخلِّص.

- «أنا، أنا الرب وليس غيري مُخلِّص.»

(إش ٤٣:١١؛ ٤٥:٢١، هو ١٣:٤)

- «باطل هو خلاص الإنسان.» (مز ٦٠:١١؛ ١٠٨:١٢)

ولكن الذي نُلاحظه أن "المسيَّا" لا يُدعى في أسفار العهد القديم مُخلِّصاً، والسبب أن صورة المسيا لدى كتاب العهد القديم لم تكن واضحة تماماً، من حيث إنه كان معتبرا ملكا، مسيحا للرب أو ممسوحا من الرب. ومن حيث إنه معتبر أيضا أنه نبي مثل موسى الذي أقامه الله ليكون أداة لخلاص شعب الله وسمي لهذا السبب بلقب: "مخلص" أو "فادي" (كما يسميه إسطفانوس في أع ٧:٣٥)، مع أنه من المعروف عن موسى أنه كان فقط أداة الله في عمل

الخلاص الإلهي، لأن الله هو نفسه الذي قيل عنه أنه نزل ليخلص إسرائيل (راجع خر ٣:٨، أع ٧:٣٤)

إلا أننا إذا ما وصلنا إلى سفر إشعياء، نجده يصور فاديا جديدا على صورة موسى الذي يلقب باسم "عبد الرب" (خر ١٤:٣١، تث ٣٤:٥، يش ١:١و١٣و١٥، ٢؛ أي ١:٣؛ ٢٤:٦و٩). هذا الفادي الجديد المنتظر، هو الذي سيقوم بعمل الخلاص بالفداء. ولكنه باعتباره "عبد الرب" كما يلقبه أيضا إشعياء، يتألم عن خطايا شعبه ويحمل آثامهم إلى الموت (بخلاف موسى الذي لم يسكب نفسه بالموت ذبيحة إثم عن شعبه كما قيل وتحقق عن المسيح) وهذا ما يقوله إشعياء:

- «هوذا **عبدي** يعقل، يتعالى، ويرتقي ويتسامى جدا. كما اندهش منك كثيرون. كان منظره كذا مفسدا أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم. هكذا ينضح أمما كثيرين. من أجله يسد ملوك أفواههم، لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا به وما لم يسمعوه فهموه...
- محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمستر عنه وجوهنا، محتقر فلم نعتد به.
- لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا.
- **وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا**، تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا. كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه، **والرب وضع عليه إثم جميعنا**. ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه،
- كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه. من الضغطة ومن الدينونة أخذ، وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض

الأحياء، أنه ضُرب من أجل ذنب شعبي، وجُعل مع الأشرار قبره ومع غني عند موته. على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن في فمه غش.

- أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن. إنْ **جعل نفسه ذبيحة إثم** يرى نسلاً تطول أيامه ومسرَّة الرب بيده تنجح. من تعب نفسه يرى ويشبع، وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين، وآثامهم هو يحملها.
- لذلك أقْسِمُ له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأُحصي مع أثمة، وهو حَمَلَ خطية كثيرين وشفع في المذنبين.»

(إش ٥٢:١٣ إلى آخر إصحاح ٥٣)

□ □ □

بهذه الصورة التي رسمها إشعياء عن موسى الجديد الممسوح بالروح القدس من أجل عمل الفداء الجديد، أظهر الرب يسوع المسيح شخصيته في العهد الجديد:

- «فدُفع إليه سفر إشعياء النبي. ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس، وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم.» (لو ٤:١٧-٢١)

وهكذا فهمت الكنيسة الصورة الرمزية النبوية كما وردت تفاصيلها في إشعياء ٩و١١ و٤٠-٥٥ و٦١... الخ، باعتبارها نبوات عن المسيح نفسه

الممسوح بالروح القدس (وقت خروجه من المعمودية) من أجل العمل الجديد والنهائي للفداء، المتنبأ عن حدوثه في آخر الزمان الذي هو يوم الخليقة الجديدة.

بعد إشعياء ونبواته ذات النظرات اللاهوتية العميقة بدأت الرؤى النبوية في الذبول. وبدأت المفاهيم العظيمة للخلاص بالبر الإلهي وحده تنطمس بسبب تعاليم اليهودية المحدثة، وعلى الأخص التعاليم التي تنادي بإمكانية الخلاص بأعمال الاستحقاقات البشرية.

فبحسب تعاليم اليهود الرابيين يمكن الحصول على الخلاص بحفظ دقيق جداً لوصايا التوراة (ناموس موسى) المتشعبة التفصيلية. وكان من الممكن بنظام حسابي التأكد من نوال الإنسان الخلاص إذا فاقت أعماله الصالحة سيئاته. وقد قامت مدارس متنوعة للرابيين تقرر درجات أعلى وأقل للأعمال الصالحة وللأعمال الشريرة، ولكنها كلها كانت متفقة على الأساس العام لهذه العملية.

والأكثر من هذا فقد كان من المتفق عليه أن اليهودي الصالح الذي حاول ولكنه لم ينجح إلا بالكاد، قد يمكنه أن يستمد من بنك الأعمال الصالحة الفائضة عن رؤساء الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبطال المكابيين. وبهذه الصورة أصبح الخلاص مسألة إنجاز إنساني تتحدد قيمته بواسطة (كشف موازنة) بين الأعمال الصالحة والشريرة.

هذا هو حال اليهودية الرابيَّة حتى نهاية زمن العهد القديم، وإلى حوالي عام ٧٠ بعد الميلاد. فالخلاص في نظر اليهود في تلك الفترة كان للأبرار دون الخطاة. أما يسوع وتلاميذه – وعلى الأخص بولس الرسول – فهم الذين اكتشفوا مرة أخرى للتعليم النبوي عن الخلاص ببر الله وكرزوا به علانية.

الفصل الخامس

يســـوع المســيح

مشتهى الأجيال

تحدثـــنا في الفصول السابقة عن **الخلاص في العهد الـــقديم**، وقبل أن نبـــدأ في الحديث عن **الخلاص في العهد الجديد**، لابد من إلـــقاء الضوء الشديد علـــى ثـــلاث نـــقاط هامة تربط ما بـــين العهدين:

١. **اللوجوس "الكلمة"، هو بداية ونهاية خط تاريخ الكتاب المقدس** منذ ما قبل الخليقة وإلى ما بعد الدينونة.

٢. مبدأ "**الاختيار والتمـــثيل**" في: تاريخ شعب الله، والمسيح، والكنيسة.

٣. **أسفار العهد الـــقديم وعلاقتها بعمل المسيح** في العهد الجديد.

* * *

١. " خط المسيح " في تاريخ الكتاب المقدس

إننا نحدد تواريخنا عادة بنـــقطة تاريخية معينة هي حادثة تاريخية تـــؤرخ للسنوات ما قبلها وما بعدها. وهذه الحادثة التاريخية هي ميلاد الـــرب يســـوع المسيح. وهكذا نعدد في الاتجاهين العكسيين (قبل الميلاد وبعد الميلاد) أرقـــام السنوات. وهذا يعني أن حادثة ميلاد المسيح هي حدث مركزي لتاريخ العـــالم كله. وهكذا فإن المؤرخ الحديث لا يستطيع أن ينكر أن ظهور يسوع النـــاصري

كان نــقطة تحول حاسم في تاريخ العالم كله. ولكن ما يــهمنا هنــا ليــس أن المسيحية أتت معها بتغييرات تاريخية ملحوظة، ولكن من الوجهة اللاهوتية فإننا نرى أنه قد صار ممكناً فهم وتقييم كل التاريخ منذ هذه اللحظة الحاسمة. أي أن هذه الحادثة التي حدثت في نــقطة المركز من التاريخ هــي المعنــى الكــامل والمقياس الحاسم لكل التاريخ السابق واللاحق عليها. ولكن - مــرة أخــرى - ليس معنى هذا أن كل حادثة تاريخية في التاريخ العام للعالم مرتبطة ارتباطــاً تاريخياً مباشراً مع عمل الرب يسوع المسيح، ولكن المسيحية تركِّز وتهتم بعــدد محدد من الأحداث ذات الطابع الخاص، منها ما تم قبل ميلاد المسيح ومنها مــا تم بعد ميلاد المسيح، هذه الأحداث التي كانت ذات علاقــة مباشــرة بالحادثــة الحاسمة التي تمت في فلسطين حوالي سنة (واحد) ميلادية.

فاهتمام المسيحية **بتاريخ الكتاب المقدس** هو أساسا اهتمام بتــاريخ أحــداث مترابطة متماسكة، لا مجرد قصص متــناثرة. وحادثة مجيء يسوع المسيح هي أولا وقبل كل شيء النــقطة المحددة لكل التاريخ وهي التي تعطي معنى لكــل التاريخ.

وإذا قارنا تاريخ الكتاب المقدس بالتاريخ العام للعالم، نجد أن تاريخ الكتــاب متمركز حول شخصية المسيح، بــينما التاريخ العام بكل فروعه متمركز حــول خطوط دنيوية أخرى.

الخط التاريخي الواحد للكتاب المقدس:

من طبــيعة الله أنه يعلن ذاته. وهذا الإعلان يتم بابنه "الكلمة": «كلمــنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عب ١:٢). فالكلمة أو اللوجوس هو الله في إعلانه لذاته. والله يستعلن ذاته في التاريخ. وقد نظرت المسيحية الأولــى إلــى هــذه الحقيقة باهتمام شديد، فأكدت على أن ذروة ومحور كــل إعلانــات الله التــي

ظهرت على مدى التاريخ كانت إعلان الله لذاته في كلمته "اللوجـوس" حينمـا دخل مرة إلى عالمنا الأرضي دخولا محسوسا وصار قطعة من التاريخ. هـذا الدخول الفريد من نوعه صار يشار إليه بالتواريخ كما يشار إلى أي حدث مـن أحداث عالمنا بالتواريخ: «تحت حكم أغسطس قيصر» (لو ٢: ١)؛ «تحت حكـم طيباريوس» (لو ٣: ١)؛ [على عهد بـيلاطس البنطي.] (قانون الإيمان)

إن كلمة الله الذي أعلن نفسه، والذي سوف يعلن نفسه أيضا في منتهى الأيام بالخليقة الجديدة، قد «صار جسدا» في يسوع المسيح (يو ١: ١٤)، أي أنه ظـهر في "التاريخ" بكل ما في الكلمة من معنى. وليس أوضح على ذلك مـن ذلـك الربط الذي ربطه يوحنا البشير، في بداية إنجيله، بـين الخلـقة الأولى وبـين الفداء، إذ ظهر هذان الحدثان معا كعملية واحدة، كان المسيح "الكلمة" هو الفعال فيهما هما الاثـنين.

وحينما نعتبر أن تجسد المسيح هو الصورة الكاملة لإعلان الله ذاتـه فـي التاريخ، يصير لازما وضروريا أن نربط كل العصور الأخـرى لإعـلان الله لذاته مع هذه الصورة الكاملة **في خط تاريخي واحد مركزه شـخص المسـيح.** هذا الخط التاريخي المتماسك هو ما نسميه: **تاريخ الخلاص أو تـاريخ الكتـاب المقدس.**

ويتبع هذا أنه حيثما أعلن الله ذاته في الماضي أو سيعلن ذاته في المسـتقبل، منذ الخليقة الأولى وحتى الخليقة الجديدة في نهاية الأزمنة، فإن هذا "اللوجوس" الكلمة الذي صار جسدا، يكون هو العامل الفعال في هذا الإعلان.

معالم هذا الخط التاريخي

إنه منذ ما قبل الخليقة، كان للكلمة اللوجوس عمل فعـال، فـهناك وقبـل الزمان، كان الكلمة في حضن الآب الكلمة من قبل تأسيس العالم:

- «لأنك أحببتني **قبل إنشاء العالم**.» (يو ١٧: ٢٤)
- «المسيح، معروفا سابقا **قبل تأسيس العالم**، ولكن قد أظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم.» (١بط ١: ٢٠)

والكلمة الأزلي هو الوسيط في عملية الخلقة نفسها «**به** كان كل شيء»، «**به** عمل العالمين»، «**به** جميع الأشياء ونحن **به**»، «**فيه** خلق الكل.» (يو ١: ١، عب ١: ٢، ١ كو ٨: ٦، كو ١: ١٦)

على أي نظام صار الكلمة "ابن الإنسان"؟

ونحن نعلم أن الإنسان أعطي دورا رئاسيا على الخليقة، إذ أعطي للإنسان أن يتسلط على الخليقة (تك ١: ٢٨). لذلك كان على وسيط الخليقة "الكلمة" أن يتمم عمل الخلاص على الأرض **كإنسان أو كابن الإنسان**، أي من خلال **نفس النظام الإلهي** الذي خلق الكون عليه.

وهكذا كان اختيار الله لشعب إسرائيل في القديم متصلا بعمل المسيح، الذي بلغ غايته وأكمله في تجسد المسيح. وهكذا أيضا كانت الحركة الخلاصية في هذا الزمان الحاضر هي عمل المسيح، فإن عمل المسيح كوسيط للخلاص يستمر من خلال كنيسته التي هي جسده الحي في العالم، ومنها يمارس سيادته وملكه على السماء والأرض، تلك السيادة التي أعطيت له من الآب، وإن كانت غير ظاهرة ولا محسوسة الآن إلا بالإيمان (راجع مت ٢٨: ١٨، فيلبي ٢: ٩).

وهكذا سيظل المسيح هو الوسيط لتكميل تدبير الله الخلاصي بأكمله حتى النهاية. بل إن هذا هو سبب رجوعه الثاني المنتظر إلى الأرض. فإن الخليقة الجديدة العتيدة أن تكون – مثلها مثل عملية الخلاص بأكملها – إنما هي مرتبطة ومتوقفة على خلاص الإنسان الذي صار المسيح هو وسيطه ومتممه. ثم على أساس عمل المسيح، فإن قوة قيامته بالروح القدس سوف تغير كل

الخليقة – بما فيها أجسادنا المائتة – ثم تأتي سماء جديدة وأرض جديدة، والموت لا يكون فيما بعد. حينئذ فقط يكتمل عمل المسيح كوسيط. وحينئذ فقط المسيح نفسه (كحامل وممثل للخليقة) «يخضع للذي أخضع له الكل، كي يكون **الله الكل في الكل**» (١ كو ١٥:٢٨)، إذ عند هذه النقطة يكون الخط الذي ابتدأ بالخليقة الأولى قد بلغ منتهاه.

هذه هي معالم خط المسيح المتغلغل في التاريخ. ويمكن تلخيصه هكذا:

✦ المسيح كوسيط الخلقة الأولى.

✦ المسيح عبد الله المتألم الذي يكمل القصد من اختيار الشعب القديم في العهد القديم.

✦ المسيح الرب الذي يملك الآن.

✦ المسيح ابن الإنسان الذي سيعود ليكمل كل التدبير ليكون وسيط الخليقة الجديدة.

إنه الأزلي الموجود قبل كل الدهور: الذي صلب بالأمس – والذي يمارس سيادته المحتجبة عن العيان اليوم – والذي سيعود في نهاية الأزمنة. إنه واحد، هو نفس الكلمة اللوجوس، ولكنه يستعلن في أعماله المتعاقبة على مدى تعاقب أزمنة تاريخ الخلاص.

٢. مبدأ " الاختيار والتمثيل " في عملية الخلاص

للخطية بدايتها منذ سقوط الإنسان في العصيان. هذا يجعل من الضروري قيام تدبير للخلاص، لأن اللعنة التي حلت على الإنسان وبالتالي على الخليقة بأكملها، لم تكن هي الكلمة الأخيرة والنهائية لله الذي هو محبة. ففي رحمته دبر زمانا يرفع فيه لعنة الخطية والموت، ويصالح الإنسان لنفسه، وهكذا يحضر

الخليقة كلها إلى حياة جديدة لا يكون فيها الموت بعد.

وأساس هذا التدبير المبارك هو اختيار "أقلية" من أجل افتداء الكل، أو بتعبير آخر، "أقلية" تمثل الكل. وسنة الخليقة منذ البدء كانت في أن الإنسان منذ خلقته كان هو "ممثل" الخليقة، وهذا واضح منذ البداية في سلطانه وسيادته على باقي الخليقة، ولهذا السبب دخلت الخليقة في اللعنة بدخول الإنسان إليها.

هذا المبدأ: "**الاختيار والتمثيل**" يوضح بطريقة جلية تدرج عملية الخلاص. فكما أن مصير الخليقة كلها كان يعتمد على موقف الإنسان، هكذا الآن وفي المراحل الأولى من مأساة الإنسان فإن مسيرة شعب واحد تصير حاسمة في خلاص كل الناس. فمن وسط البشرية الخاطئة اختار الله جماعة واحدة، التي كانت شعب إسرائيل، وذلك من أجل إكمال خلاص البشرية.

وبحسب مبدأ "**الاختيار والتمثيل**" أيضا، فقد حدث تطور في تاريخ الخلاص إذ حدث نوع من الاختزال المتدرج في شعب إسرائيل هذا. فحيث أن شعب إسرائيل - ككل - لم يتمم الرسالة والمسئولية التي اختير من أجلها، فقد ظهر ما يسمى بـ "**البقية**" الأمينة لتصير **ممثلة** لهذا الشعب؛ هذه البقية هي التي تكلم عنها الأنبياء كثيرا.

ثم أخذت هذه البقية تتضاءل وتختزل حتى صارت **إنسانا واحدا، هو وحده** الذي استطاع أن يأخذ على عاتقه عمل شعب إسرائيل. وفي نبوات إشعياء يظهر هذا الإنسان أنه "**عبد يهوه**" (وهو نفس اللقب السابق إعطاؤه لشعب إسرائيل) الذي كانت آلامه تكفيرية عن الآخرين. وفي نبوة دانيال يظهر أنه هو "ابن الإنسان" أو "الإنسان" الذي **يمثل** شعب القديسين (دا ٧:١٣). هذا الإنسان الواحد يدخل إلى التاريخ، ويقوم برسالة عبد الرب المتألم وابن الإنسان: وبموته الكفاري يتمم الغرض الذي سبق أن اختار الله شعب إسرائيل

لإتمامه ولم يتممه. وهكذا فحتى مجيء يسوع المسيح يمكن تصوير تاريخ الخلاص هكذا:

البشرية جمعاء

شعب إسرائيل

البقية

الواحد يسوع المسيح

ومنذ ذلك التاريخ صار يسوع المسيح هو مسيح إسرائيل مخلص البشرية وبالتالي مخلص الكون كله. وهكذا وصل تاريخ الخلاص إلى نقطته الحاسمة. ولكن مسيرته لم تنته بعد، بل سوف تتقدم أكثر فأكثر.

فمن هذه النقطة الحاسمة: "مجيء يسوع المسيح" يحدث ثمة تغيير هام على أساس مبدأ **"الاختيار والتمثيل"** أيضا، ولكن هذه المرة ليس بطريق **الاختزال** بل **بالامتداد**. إذ تبدأ الدائرة تتسع منذ قيامة الرب يسوع من الأموات لتبدأ من **"الواحد"** لتشمل **"الكثيرين"**. ويصير هؤلاء الكثيرون بمثابة من **يمثلون** الواحد باتحادهم السري في جسده السري المقدس.

إن الحركة تنبثق هنا من **"المسيح"** لتمتد إلى أولئك الذين يؤمنون به، الذين يعرفون بالإيمان أنهم خلصوا بموته الكفاري على الصليب. إنها تبدأ

بالرسل ثم تمتد إلى الكنيسة التي هي جسد **"الإنسان الواحد"**، والتي تقوم بمهمـة **"البقية"** بالنسبة للبشرية جمعاء، إنهم "شعب الـقديسين". إن التطور يتقدم مـن هذه النـقطة إلى البشرية جمعاء وإلى الكون كله، إلى السماء الجديـدة والأرض الجديدة هكذا:

الواحد يسوع المسيح

الـــــرســـــل

الكنيســـــــــــة

البشــــــــــريـــــــة

الكـــــــــون كلـــــــــــه

إنهما حركتان في تاريخ الخلاص:

وهكذا فإن تاريخ الخلاص يتلخص في حركتين:

+ حركة تبدأ بالكثيرين **وتختزل** إلى الواحد، وهذا هو العهد الـقديم.

+ حركة تـنبثـق من الواحد وتمتد إلى الكثيرين، وهذا هو العهد الجديد.

وفي منتصف الحركتين يقـف شامخا صليب المسيح الكفاري عـن العـالم وقيامته المجيدة. وواضح أن الحركتين تقومان على أسـاس مبـدأ "**الاختيـار والتمـثيل**".

والمرحلة التي نعيشها الآن نجد فيها هذا المبدأ واضحـا. فالكنيسـة علـى الأرض تمـثـل جسد المسيح، وهي تقوم بدور رئيسي من أجل خلاص العـالم وبالتالي خلاص الكون كله.

٣. رسالة العهد القديم بالنسبة لمجيء المسيح

إن المسيح لم يأت بوحي جديد، أي أنه لم يقدم لنا مـثـلا قصة جديدة عـن خلـقة العالم، ولكن في المسيح وعلى ضوء نوره، صار يمكـن فـهم قصـة الخليقة الأولى. وكما يكتب معلمنا بولس الرسول في (٢ كو ٣:١٤)، فإن ثمـة برقعا كان موضوعا على أسفار موسى طالما أن المسيح لم يأت بعد. ولكن فـي المسيح نزع هذا البرقع، فصار ممكنا الآن ومحببا جدا أن نـقرأ أسفار موسـى ونفهمها بنور المسيح، أي بالروح الـقدس([1]).

وهكذا أوضحت أسفار العهد الجديد علاقة الخليقة الأولى بمجيء المسيح كما في (يو ١:١ وما بعده، كو ١:١٦، عب ١:٢و١٠). فيوحنا البشير مـثـلا بـدأ إنجيله بنفس الكلمات التي بدأ بها موسى سفر التكوين «في البدء»، ولكنـه لـم يقدم قصة جديدة عن الخليقة بل قدم تـفسيرا لها.

وقد احتـفظت الكنيسة منذ أول أيامها بالعهد الـقديم واعتبرته كتابا **مقدسا**

([1]) لذلك عبثا يحاول غير المستـنيرين بالروح الـقدس أن يفهموا أسرار العـهد الـقديم مهما شرحنا لهم.

أو بالأحرى كتابا "**مسيحيا**"، لكون الأحداث الواردة **فيه** برزت **أهميتها** ومغزاها في تاريخ الخلاص باعتبارها إعدادا للمسيح. لذلك، فحفظ الكنيسة المسيحية لأسفار العهد القديم كان من **قبيل أن حقبة تاريخ الخلاص في العهد القديم كانت تتجه وتشير إلى التجسد، باعتبار أن التجسد هو تكميل واستيفاء كل مقاصد الله الأزلية** من نحو خلاص العالم. هذا ينطبق على قصة الخليقة كما ينطبق على اختيار شعب إسرائيل. فقصة الخليقة حفظتها الكنيسة المسيحية كحدث ممهد لحدث التجسد، وتاريخ شعب إسرائيل كتاريخ خلاص؛ ولكن الاثنين صارا يفسران بطريقة نبوية، أي يشيران إلى المسيح.

ولكن قد يستثار لدى المسيحيين سؤال هام:

– ما دام العهد القديم هو إعداد وتمهيد للمسيح، فما أهمية وجوده وقراءته لدى المؤمن بالمسيح بعد أن تحقق ما كان يمهد له؟

• والإجابة على هذا السؤال:

– إن حادثة مجيء المسيح الذي هو مركز تاريخ الخلاص – كما أوضحنا – قد استضاءت جدا بإعداد العهد القديم له، بعد أن استضاء العهد القديم واستنار بمجيء المسيح.

.فنحن هنا أمام دائرة مستمرة. فإن موت وقيامة المسيح أعطيا المؤمن إمكانية قراءة تاريخ آدم وتاريخ الشعب القديم قراءة جديدة باعتبارهما إعدادا وتمهيدا للمسيح المصلوب القائم من بين الأموات. وهذه الرؤية الجديدة عينها لتاريخ آدم وتاريخ الشعب القديم تعطي للمؤمن بالتالي قدرة جبارة على فهم واستيعاب عمل المسيح المصلوب القائم بعمق وكمال أكثر، وذلك من خلال قراءته أسفار العهد القديم وناظراه مثبتان على صليب المسيح وقيامته.

ولشرح هذا نـــقول:

+ إن ثمة علاقة لاهوتية متينة بـــين **تـــاريخ آدم** (بالرؤيـــة المســـيحية)، وبـــين **لـــقب "ابن الإنسان"** الذي للمسيح. وبهذا نفهم لماذا كـــان رب المجـــد يفضل تسمية نفسه بهذا اللـــقب أكثر من أي لـــقب آخر.

+ وهناك أيضا علاقة لاهوتية متينة بـــين **تاريخ إبراهيم باعتبـــاره أبـــا الشعب المختار** وبـــين **"عبد الله المتألم"**. وحينئذ يمكننا أن نفهم أكـــثر فـــأكثر السمة التكفيرية لموت المسيح على الصليب.

+ وهناك أيضا علاقة لاهوتية متينة بـــين **النـــاموس** وبـــين الســـمة الـــذبائحية **لذبـــيحة الصليب**. وهنا يمكننا أن نتعمق أكثر فأكثر في فهم أوجـــه ذبـــيحة الصليب وكفايتها لخلاص البشرية.

هذه العلاقات الثـــلاث تبـــين كيف أن العهد الـــقديم، إذا اســـتضاء بنـــور المسيح، فإنه يؤدي دورا هاما جدا في فهم أسرار الإيمان المسيحي.

الباب الثاني

الخلاص

في العهد الجديد

الفصل الأول

الخلاص في العهد الجديد

في كل قسم من أسفار العهد الجديد يتضح أن في المسيح تحقق الخلاص الكامل الذي طالما تنبأ عنه العهد القديم: الخلاص الذي «فتش وبحث عنه أنبياء.» (١بط ١:١٠)

١. خدمة وتعليم المسيح عن الخلاص

«لأن ابن الإنسان قد أتى ليطلب ويخلص ما قد هلك» (لو ١٩:١٠). خدمة المسيح كانت موجهة للخراف الضالة: «اذهبوا بالأحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٠:٦)، «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٥:٢٤)، مثل الخروف الضال (مت ١٨:١٢-١٤، لو ١٥:٣-١٠)، مثل الابن الضال (لو ١٥:١١-٣٢). إن تعليم المسيح عن الخلاص يتميز بأنه موجه ومعطى للخطاة، الأمر الذي كان غير موجود نهائيا في تعليم اليهود الرابيين وغيرهم: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى. لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة» (مر ٢:١٧). لهذا عثر الفريسيون في المسيح (مت ١١:١٩، مر ٢:١٦... الخ). القضية كانت هل يمكن نوال الخلاص ببر الله أم ببر الناس؟ لقد رد المسيح على هذا السؤال في مثل الفريسي والعشار (لو ١٨:١٠-١٤). فالإنسان الذي اعترف أنه خاطئ ومحتاج إلى رحمة الله نزل إلى بيته مبررا. أما الفريسي الذي افتخر بأعماله الصالحة ولم يشعر باحتياجه إلى خلاص الله فلم ينل شيئا. الخطاة هم الذي يدركون احتياجهم لمغفرة الله،

وهم الذين تجاوبوا مع إنجيل المسيح دون الفريسيين المراعين للناموس: «العشارون والزواني يسبقونكم إلى ملكوت السموات» (مت ٢١:٣١). وضيوف الوليمة السماوية كانوا هم الفقراء والجدع والعرج والعمي المجتمعين من خارج السياجات والطرقات (لو ١٤:١٦-٢٤).

كل هؤلاء تبرروا ببر الله وليس ببر ذواتهم: «إيمانك خلصك»، بهذه الكلمات خاطب المسيح المرأة الزانية التي مسحت رجليه بالطيب في بيت سمعان الفريسي (لو ٧:٥٠).

٢. معنى الخلاص

١. مغفرة الخطايا. ٢. المصالحة مع الله. ٣. عطية الخليقة الجديدة (أو الإنسان الجديد) «إيمانك خلصك. اذهبي بسلام» (لو ٧:٥٠).

التوبة والندامة هما تجاوب الإنسان مع خلاص الله، كما في قصة زكا: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت» (لو ١٩:٩). لا يغفر الله الخطية إلا إذا كان الخاطئ في حال الرغبة للمغفرة ("كما في قصة الابن الضال" لو١٥:١١-٣٢). الرب يسوع المسيح لا يمكن أن يفعل شيئا للمغرور الذي لا يحس باحتياج للطبيب (مر ٢:١٧). فخلاص الله جاهز ومستعد في كل حين لأن يحرر الإنسان، متى كف الإنسان عن المعاندة أو التلهي عن هذا الخلاص.

آيات الشفاء وعلاقتها بمغفرة الخطية:

إن خدمة الرب يسوع التي موضوعها الخلاص مرتبطة تماما بمغفرة الخطية، وهذا يتضح جدا في معجزات الشفاء. إن مغفرة الخطية كانت تمنح قبل شفاء المريض. إن «إيمانك خلصك» قيلت للمريض الذي شفي (مر ٥:٣٤؛ ١٠:٥٢، لو ١٧:١٩). إن كلمة «**خلصك**» في أصلها اليوناني (**Sozein** سوزين) تعني أيضا الشفاء الكامل: أي يشفي من كل شيء. فهنا كأن المسيح يقول:

«إيمانك شفاك الشفاء الكامل».

إن معجزات الشفاء هي أمثلة للخلاص، هي علامات، آيات، تفصح عمن هو يسوع، على الأقل لمن لهم عيون ليبصروا، أي لمن لهم إيمان فيه. هذه الحقيقة ظاهرة جدا في قصة "المفلوج" (مر ٢:١-١٢)، حيث يتضح أن غفران خطايا المفلوج كانت هي السبب في قيامه ومشيه من بعد كساح. الشفاء يتضمن قوة مغفرة الخطية (كما رأينا في المعنيين لكلمة "سوزين"). وقد كان الفريسيون يعتقدون حقا أن الشفاء والمغفرة مقتصران على الله (مر ٢:٧، يو ٩:٣٣). إن شفاء المسيح للمريض هو برهان على أن يسوع هو المسيا. وهذا حق، حتى بالرغم من أن المسيح لم يكن يوافق على اعتبار المرض **عقابا** على الخطية كما كان الناس يعتقدون في ذلك الوقت (لو ١٣:١-١٥، يو ٩:٢و٣).

ولكن آيات الشفاء كانت هي العمل الرئيسي لابن الإنسان الخادم خلاص البشر، كما جاءت في نبوات إشعياء عن المسيا. ففي زمان المسيا كان لابد للأعمى أن يبصر والأصم أن يسمع والأعرج أن يمشي والأخرس أن يترنم (إش ٣٢:٣و٤؛ ٣٥:٥و٦؛ ٤٢:٧). هذه الآيات التي تنبأ عنها إشعياء هي التي حققها المسيح، والتي أعلنها ليوحنا المعمدان ليتأكد أنه هو هو المسيا (مت ١١:٤و٥، لو ٧:٢٢).

إن آيات الشفاء كانت أمثلة على قوة المسيح المخلصة، فمثلا الذي تطهر بلمسة المسيح (في مر ١:٤٠-٤٥) هو رمز لأولئك الذين لكونهم خطاة لم يكونوا قادرين على إتمام ناموس الله، بينما هم الآن بلمسة المسيح الرحيمة قادرون على الوقوف بثقة ليقدموا ما أمر به موسى.

أما آيات شفاء الذين تسلطت عليهم الأرواح النجسة فهي دليل على إرسالية المسيح للخلاص. فالأرواح النجسة هي الأرواح الخاضعة الشيطان الذي سبى خليقة الله وأخضعها لمملكة الشر (لو ٤:٦؛ ٢٢:٥٣، يو ١٢:٣١، ١ يو ٥:١٩،

رؤ ٢:١٣). إن معجزات إخراج الشياطين هي دلائل على أن بيت القـــوي (أي الشيطان) قد بدأ ينهب، أي أن مملكة الشيطان هي إلى زوال (مـو ٣:٢٦و٢٧). والمسيح هو قاهر الشيطان، ونصرة المسيح هي نصرة كونية، أي مؤدية إلـــى تحرير الخليقة كلها من الخضوع لقوى الشر التي استعبدته. فهنا المسيح يظـــهر محررا، لأنه يغفر لنا خطايانا، ليس ذلك فقط (رؤ ١:٥)، بل لأنه أطلق حريتنـا أيضا من رباطات قوى العالم المعادية.

التجسد هو واسطة الخلاص:

لقد رأى المسيح إرساليته متركزة في كلمات إشعياء النبي عن عمل العبـــد كمحرر: «أرسلني لأطلق المأسورين للحرية، لأعطي عتقا للمأســورين» (لـو ٤:١٨، إش ٦١:١). وقد عبر المسيح عن هذا العمل بكلمة "فداء": «لأن ابـــن الإنسان أيضا أتى... ليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (مر ١٠:٤٥). إن هذه الآيـة ترديد لما جاء في إشعياء (٥٣:١٠–١٢): «أما الرب فسر بأن يسحقه بـالحزن، إن جعل نفسه ذبيحة إثم ... وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامـــهم هـو يحملها. لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجـــل أنـه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمة. وهو حمل خطية كثـــيرين وشـفع فـي المذنـــبـين»، وهذه النبوة شهادة تؤكد حقيقة أن المسيح كان يعـــي إرســاليته كعبد للرب، كما تنبأ عنها إشعياء، تلك الإرسالية التي فيها يكفر عـــن خطايـا العالم بحمله إياها في جسده، على الخشبة، وأن بآلامه وموته يعتق الذين كـانوا في عبودية مرعبة أكثر من عبودية مصر أو سبي بابل، أي العبودية للشيطان.

لقد وضع المسيح نفسه كذبيحة جديدة، ففي دمه تأسس العهد الجديد بيـن الله وإسرائيل الجديد المفتدى، وذلك حينما قدم جسده ودمه سرائريا لتلاميـــذه مـن خلال الخبز والخمر يوم خميس العهد (مت ٢٦:٢٦–٢٩، مر ١٤:٢٢–٢٥، لو ٢٢:١٧–٢٠، ١ كو ١١:٢٣–٢٥. راجع وقارن مع خـــروج ٢٤:٨ وإرميـا

٣١:٣١).

إن عمل خلاص المسيح مقدَّم لنا من خلال مواقف حياة المسيح كلها. فهو ليس مقتصراً على موت المسيح فقط، لأن حياة المسيح كلها بما فيها القيامة معتبرة أنها عمل الله الخلاصي: «أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا» (رو ٤:٢٥)؛ «لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مُصالَحون نخلُص بحياته.» (رو ٥:١٠)

إن خلاصنا يعتمد، ليس فقط على حقيقة أن المسيح شاء أن يموت من أجل حياة العالم، بل أيضاً وأولاً على حقيقة مشيئته أن يُخلي ذاته ويُولد: «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه **من أجلكم افتقر وهو غني، لكي** تستغنوا أنتم بفقره» (٢ كو ٨:٩)؛ «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، **لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد** صائراً في شبه الناس» (في ٢:٦و٧). إن تجسد ابن الله هو في حد ذاته عمل فدائي كفَّاري، به اتَّحَدَ الله والإنسان في جسم بشرية يسوع المسيح الجديدة. ومن أجل هذا كان قصد المسيح من مجيئه إلى العالم أن يخلص الخطاة: «لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (يو ٣:١٧)؛ «إذ أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد» (رو ٨:٣)؛ «صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا» (٢ تي ٣:١٥)؛ «وبهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١ يو ٤:٩)؛ «ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مخلصا للعالم.» (١ يو ٤:١٤)

وهكذا **فإن حياة المسيح هي التي تخلصنا**. ولكن من الطبيعي أن يكون موت المسيح هو الذي يكفر عن خطايانا بحسب طقس الكفارة لدى اليهود، وهكذا يقال إن المسيح مات ليخلصنا أو أننا خلصنا بموته. إن دم المسيح هو

الذي به خلصنا من الموت: «كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أع ٢٠:٢٨)؛ «متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله» (رو ٣:٢٤و٢٥). «ولكن الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا، فبالأولى كثيرا ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب» (رو ٥:٩)؛ «الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته» (أف ١:١٧)؛ «لأنه فيه سر أن يحل كل الملء، وأن يصالح به الكل لنفسه عاملا الصلح بدم صليبه» (كو ١:٢٠)؛ «وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبديا» (عب ٩:١٢). من هذه النصوص يتضح أن الدم مرادف للموت المحيي، لقد تقدم المسيح كقربان وذبيحة بها ننال الشركة مع الله ومغفرة خطايانا، **لأن كل ذبيحة في العهد القديم كانت تعتبر أنها واسطة للشركة مع الله.** لقد تم موت ربنا يسوع المسيح في وقت الفصح، والمسيح بهذا صار هو حمل الفصح الجديد «خذوا كلوا هذا هو جسدي» (مر ١٤:٢٢)؛ «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد» (يو ٦:٥١)؛ «لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل، عظم لا يكسر منه (عن خروف الفصح في العهد القديم)» (يو ١٩:٣٦)؛ «لأن فصحنا هو المسيح قد ذبح لأجلنا.» (١ كو ٥:٧)

٣. الاحتفال بالخلاص وممارسته

هذا هو موقف البشرية المفتداة

وعلى ذلك فقد أقيمت الإفخارستيا في الكنيسة لتكون هي الاحتفال الفصحي الأسبوعي بذبيحة المسيح المرفوعة في السماء. فهي ذكرى الخلاص الذي تم

في الزمن والذي أكمله المسيح، فهي إعلان قيامته من بين الأموات.

حقا لم يتكلم العهد الجديد عن سر الإفخارستيا كثيرا وعن معناه، ربما لأنه كان معتبرا من غير المناسب تسجيل أقدس الحقائق عن أعمق أسرار الإيمان بالكتابة، حفظا لها من تدخل غير المؤمنين. ولكن من المعروف أن الإفخارستيا في الكنيسة الأولى كما في الكنيسة اليوم، وعندنا من الشهادات الكافية لذلك، كانت معتبرة بنوع ممتاز أنها الواسطة التي بها تستمد الجماعة المسيحية لنفسها حياة الله وتقتني ثمار خلاص المسيح (يو ٦:٥٣-٥٥): «فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم: إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه... كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي»؛ «كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح. الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح. فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا نشترك في الخبز الواحد.» (١ كو ١٠:١٦و١٧)

وهكذا، فإن **موت المسيح** قد وضح في العهد الجديد واحتفل به في الكنيسة، كواسطة لخلاصنا. ولكن موت المسيح كان دائما معتبرا أنه لحظة في العمل العام للخلاص.

ومما تجدر ملاحظته أن الرسالة إلى العبرانيين بتأكيداتها الهائلة على موت المسيح الفعال مرة واحدة، قد أكدت بشدة على أهمية **صعود المسيح** ضمن عمل الخلاص (عب ٩:٢٤-٢٦)، وقارن (أف ٤:٨).

وفي مواضع أخرى، وفي موضوع **المصالحة**، تتأكد حقيقة أن الله نفسه هو الذي يوفر للخطاة وسائط المغفرة وبالتالي الشركة معه: (رو ٥:١-١١)، (٢ كو ٥:١٨و١٩): «ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح

وأعطانا خدمة المصالحة. أي أن الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم وواضعا فينا كلمة المصالحة». **إن الله هو الذي صالحنا لنفسه في المسيح**، الله نفسه هو منشئ خلاصنا، ولقد سمي في مرات كثيرة «مخلص» في العهد الجديد: «تبتهج روحي بالله **مخلصي**» (لو ١:٤٧)، «ألقينا رجاءنا على الله الحي الذي هو **مخلص** جميع الناس» (١ تي ٤:١٠)، «الإله الحكيم الوحيد **مخلصنا** له المجد... » (يهوذا ٢٥)

ومما لابد ملاحظته أن عمل الخلاص أو المصالحة هذا الذي أكمله الله بواسطة المسيح ليس قاصرا على الجنس البشري، فالخلاص في العهد الجديد ذو مفهوم كوني. ففي المسيح صالح الله كل شيء لنفسه "**ما على الأرض وما في السموات**" (أف ١:١٠) «ليجمع **كل شيء** في المسيح **ما في السموات وما على الأرض**»؛ «وأن يصالح **الكل** به لنفسه عاملا الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات» (كو ١:٢٠). إن ما ظهر الآن في المسيح، وهو ما تنبأ به الأنبياء، ليس سوى **الخليقة الجديدة، خليقة السموات الجديدة والأرض الجديدة**: «إذا إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديدا» (٢ كو ٥:١٧). في هذا الدهر الخليقة الجديدة لا يمكن تمييزها إلا بعيني الإيمان، وهي نفسها مجال الكنيسة، لأن الكنيسة هي إسرائيل الله الجديد، شعب العهد الجديد المهيأ لافتداء الخليقة، لأن افتداءنا هو في الواقع الروحي باكورة البلوغ إلى الكمال المزمع أن يكون.

بهذا المعنى يمكن أن نقول إنه في العهد الجديد **لا خلاص خارج الكنيسة**، الكنيسة التي تتكون من المفديين، أولئك المخلصين، الذين هم الآن كائنون في دائرة ومجال الخلاص (١ كو ١:١٨، ٢ كو ٢:١٥): «كلمة الصليب ... عندنا نحن **المخلصين** هي قوة الله»، «لأننا رائحة المسيح الذكية لله في **الذين يخلصون**».

٤. الخلاص حقيقة جماعية، بجانب كونها فردية

إن الخلاص التاريخي (أي الذي حدث في الزمن) قد حدث مرة واحدة على الصليب، ووجود الكنيسة وكرازتها تقدم برهان هذا الخلاص، إلا أننا لا نقتني الآن الخلاص أو الحياة بالمعنى الكامل والنهائي، فإن هذا سيكون لنا بعد هذا الدهر «فالذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص.» (مر ١٣:١٣)

لقد أعلن المسيح أن اليوم والساعة لهذه النهاية لا يعرفهما أحد ولا الابن إلا الآب، وليس على المسيحيين سوى أن يمارسوا **الثبات والصبر وسط الآلام** التي يقابلونها (عب ٢٥:١٠). لابد أن **يتمموا خلاصهم** بخوف ورعدة (في ١٢:٢)، غير مفتخرين بحالتهم الحاضرة: «من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط» (١ كو ١٢:١٠). والتجارب التي تأتي مع حلول النهاية، ليس لها مثيل منذ خلقة العالم. ولو لم يقصر الله تلك الأيام لما خلص جسد (مر ١٩:١٣و٢٠).

لقد وصف المسيح الخلاص الأخير بصور مستقاة من التقليد اليهودي عن وليمة المسيا، أي الجلوس مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت الله (مت ١١:٨، لو ٢٨:١٣و٢٩). هذا الجلوس في ملكوت الله، يمارس مسبقا في الإفخارستيا في الكنيسة، وليمة المختارين مع المسيا، الذين اختيروا «ليأكلوا ويشربوا على مائدتي في ملكوتي.» (لو ٢٩:٢٢و٣٠)

الإفخارستيا هي إظهار موت المسيح المخلص إلى أن يجيء (١ كو ٢٦:١١). الإفخارستيا تعلن أن الخلاص **حقيقة جماعية**. ليس في خلاص العهد الجديد أي نزعة **فردية**، وقد قيل قديما أن **الإنسان إذا سقط فهو يسقط وحده، وحينما يخلص فهو يخلص في الجماعة**، أي في الكنيسة. فكل التعبيرات المستخدمة لتصور حالة الخلاص هي جماعية في سماتها: إسرائيل الله، المختارون، جسد المسيح، شركة القديسين، شركة الروح القدس، الوليمة المسيانية، ملكوت الله، الكنيسة، الإنسان الجديد، الخليقة الجديدة. عظيم هو هذا

الخلاص الذي لا يمكن للأرض أن تسعه. حقا فإن الخليقة كلها تئن وتتمخض منتظرة التحرر من قيود فسادها (رو ٨:١٩-٢٣): «لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله إذ أخضعت الخليقة للبطل، ليس طوعا بل من أجل الذي أخضعها على الرجاء. لأن الخليقة نفسها أيضا ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله. فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معا إلى الآن. وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضا نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا».

إن أحداث الخلاص النهائي لابد ستتجاوز الأرض والتاريخ في العالم الآتي، تتجاوز الزمان والفساد والموت، يجب أن نضع أمام ناظرينا منظر هذه السموات الجديدة والأرض الجديدة بحسب إعلان إشعياء النبي. هذا المنظر رآه يوحنا اللاهوتي مرة أخرى في العهد الجديد كمدينة الله، أورشليم الجديدة التي هيكلها هو الله الرب العظيم والحمل حيث لا حاجة لمصباح أو شمس لتنيرها لأن الرب الإله نفسه هو نورها إلى الأبد وإلى أبد الآبدين (رؤ ٢١:١-٢٢:٥).

هذا كله مجرد تصوير بكلماتنا البشرية، لأن الخلاص الأخير خبرة تفوق إدراكنا. والكلمات البشرية هي مجرد تصوير له يمكن أن تقربه إلى أذهاننا. ولكن بعطية الروح نستطيع أن نتكلم عنه ما دام قد استعلن لنا كما هو مكتوب: «ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه، فأعلنه الله لنا نحن بروحه.» (١ كو ٢:٩و١٠)

إن يوم الخلاص الذي نادى به الأنبياء قد انبلج فجره للناس بالإيمان: «هكذا قال الرب: في وقت مقبول استجبتك، وفي يوم الخلاص أعنتك» (إش ٤٩:٨)، «لأنه يقول في وقت مقبول سمعتك وفي يوم خلاص أعنتك» (٢ كو ٦:٢)، «لذلك يقول الروح القدس: اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم كما في الإسخاط يوم التجربة في القفر...» (عب ٣:٧-٤:١٣). "اليوم"، هو زمن

الكرازة بالخلاص، هو يوم انتهاز الفرصة واتخاذ القرار: «كيف ننجو إن أهملنا خلاصا هذا مقداره.» (عب ٢:٣)

إن لحظة المعمودية في الكنيسة هي وقت انسكاب الخلاص على الإنسان الفرد كما يقول بولس الرسول لتيطس ٣:٥: «... خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس»؛ و أع ٢:٤٧: «وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون» بالمعمودية؛ «ماذا نصنع أيها الرجال الاخوة ؟ ... توبوا وليعتمد كل واحد منكم...» (أع ٢:٣٧و٣٨)

«بالإيمان أنتم **مخلصون**» (أف ٢:٨، وقارن ٢:٥). إن صيغة المضارع المستمر في كلمة "مخلصون" توضح أن خلاص المسيحي الفرد هو حدث تم في لحظة خاصة محددة في تاريخ حياته الماضي وأن فعله مستمر الآن في الحاضر.

وهذه النظرة تتفق مع النظرة اللاهوتية للكنيسة الرسولية من جهة أنه بينما **موت المسيح على الصليب يمثل معمودية الطبيعة البشرية ككل للدخول في مجال الخلاص، فإن لحظة معمودية أي فرد للمسيح هي لحظة مشاركته المسيح في موته عن الخطية وقيامته للخلاص بالنسبة له، وهي بدء تمتعه داخل الكنيسة بخلاص المسيح الذي تم وكمل من أجله على الصليب، وعليه أن يمارس ويتمم هذا الخلاص "كل يوم" في حياته.**

الفصل الثاني

الخلاص كحدث تم في الزمن

إن الخلاص مُعتَبَر في العهد الجديد، كما هو في العهد القديم، أنه عمل الله في التاريخ الإنساني. فالإنسان لا يخلص بالحكمة أو بالمعرفة الصحيحة (كما تقول الغنوسية)، ولا بعمل الخير أو الأعمال الصالحة (كما تقول اليهودية)، ولا بالاستغراق الصوفي في الإلهيات (كما في الصوفية الهللينية)، بل بعمل الله في ميلاد وحياة وموت وقيامة وصعود المسيح. وبناء على هذا، فالمسيحية ليست فلسفة، ولا هي قانوناً أخلاقياً، ولا هي فن ممارسة التصوف. لكنها "كيريجما" (أي كرازة)، تبشير، إفانجليون، بالمعنى الذي ورد في نبوة إشعياء عن البشارة بحقيقة تحرير الإنسان (إش ٤٠:٩؛ ٥٢:٧؛ ٦١:١و٢). إن لقب "مخلِّص" (سوتير)، وهو اسم الله في العهد القديم، صار هو نفسه اسم المسيح في العهد الجديد.

ومن أمثلة ذلك:

+ «إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب.» (لو ٢:١١)

+ «وقالوا للمرأة: إننا لسنا بعدُ بسبب كلامك نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم.» (يو ٤:٤٢)

+ «هذا رفَّعه الله بيمينه رئيساً ومُخلِّصاً ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا.» (أع ٥:٣١)

+ «من نسل هذا (داود)، حسب الوعد، أقام الله لإسرائيل مخلِّصاً يسوع.»

(أع ١٣: ٢٣)

+ «المسيح مخلِّص الجسد» (أف ٥: ٢٣)،

+ «فإن سيرتنا هي في السموات التي منها ننتظر مخلِّصاً هو الرب يسوع المسيح.» (في ٣: ٢٠)

الخلاص كحقيقة إسخاتولوجية:

إن الدفع والجذب بين "الآن" و"ليس الآن"(١) الذي نراه واضحاً في مفهوم العهد القديم للخلاص، نلاحظه أيضاً بقوة في العهد الجديد. فبرُّ الله الذي للخلاص قد استُعلن في المسيح، ولكنه استُعلن فقط لعينَيِّ الإيمان. وإنجيل المسيح الذي هو قوة الله للخلاص يصل إلينا في هذا الدهر «بإيمان لإيمان» (رو ١٦: ١و١٧)، ولكن حدث الخلاص الذي تم في التاريخ هو ضمان الخلاص العظيم المزمع أن يُعلَن في الزمان الأخير.

إن بولس الرسول يعيد صراحةً إعلان مفهوم إشعياء النبي عن البر الإلهي الذي يصنع الخلاص. فهو أكثر من كل كُتَّاب العهد الجديد الآخرين يستخدم كلمة "البر" بالمعنى العميق الوارد في نبوات إشعياء عن قوة الله التي تعمل لخلاص الناس، وليس بالمعنى الذي استخدمه الرابِّيون بأنه إرضاء الله بأعمال الإنسان. فالبر الإلهي ظهر في التاريخ عاملاً للخلاص: «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص... لأن فيه مُعلَن بر الله.» (رو ١: ١٦و١٧)

ونحن ننال هذا البر بالإيمان: «لكي أربح المسيح وأُوجَدَ فيه. وليس لي برِّي

---

(١) راجع: الفصل الثالث "الخلاص كحدث إسخاتولوجي"، من "أولاً: الخلاص في العهد القديم"، ص ٢٨.

الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان» (في ٣:٨و٩). لقد أظهر الله برّه (أي إخلاصه لوعد عهده بأن يُخلِّص الناس) بإرساله المسيح كفّارة عن خطايا الناس. لقد برهن موت المسيح أن الله بار وأنه يبرر - تحقيقاً لنبوة إشعياء («وعبدي البار ... يبرر كثيرين» -٥٣: ١٠-١٢) - إنه يبرِّر كل مَنْ يؤمن بالمسيح (رو ٣:٢٥و٢٦)، «الذي قدمه الله كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله. لإظهار برّه في الزمان الحاضر ليكون باراً **ويبرر مَنْ هو من الإيمان بيسوع**».

إن معرفتنا الحاضرة للخلاص («لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم» - لو ١:٧٧) التي صارت لنا بواسطة المسيح، ليست سوى سَبْق تذوق وإشباع اشتياق للخلاص الذي سوف نعرفه حين استعلان المسيح في مجيئه الثاني. خبرتنا الحاضرة عن الخلاص في كنيسة الرب يسوع المسيح هي سبق تذوقٍ للخلاص الآتي، بهذا المعنى يحق لنا القول إنه حتى الخلاص التاريخي الذي عرفناه هو خلاص إسخاتولوجي، أي سَبْق استعلان الخلاص المزمع أن يأتي.

الخلاص أساساً هو حقيقة مستقبلية نتمتع بها منذ الآن، وذلك بالإيمان بما تم من خلاص على الصليب. لذلك فلا يمكن معرفة حقيقة هذا الخلاص بمعزل عن **الإيمان**، لأن الإيمان هو طريقة المعرفة في حياتنا الحاضرة. حينما نقول: "إن المسيح خلَّصنا" (تي ٣:٥)، فنحن نتكلم باصطلاح كتابي عبري مميَّز بموجبه يتشابك الماضي والحاضر بعضهما مع البعض. وحينما نقول: "إن الله خلَّصنا"، فهذا يعني أيضاً أن الله سوف يخلِّصنا أيضاً. إن التضادة بين الخلاص الحاصل **"الآن"** وبين خلاص **"ليس الآن"** تعني أن خلاصنا سيكتمل أيضاً بخلاص الله المزمع أن يأتي في الزمان الأخير. أي أن هذا الخلاص الذي تحقق في التاريخ في حياة وموت وقيامة ربنا يسوع المسيح، سيكتمل في **"الخلاص**

المستعد أن يُعلَن في الزمان الأخير" (ابط ١:٥).

وهكذا يمكن لبولس الرسول أن يقول: «خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنّا» (رو ١٣:١١)، أو «بالرجاء خلصنا» (رو ٨:٢٤). فالخلاص في معناه الكامل النهائي سيكمل في «يوم ربنا يسوع المسيح» (١ كو ٥:٥)، يوم ظهور الرب (المسمَّى باليونانية: **Paroussia** الباروسيا). هو «يوم خلاص»، «يوم الغضب». فالخلاص وغضب الله كلاهما قد استُعلنا في يسوع المسيح: «لأن فيه مُعلَن برُّ الله بإيمان لإيمان كما هو مكتوب، أما البار فبالإيمان يحيا. لأن غضب الله مُعلَن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم» (رو ١:١٧و١٨). وبالإيمان ببر الله سنتصالح مع الله «ونخلص به من الغضب» (رو ٥:٩)، أي من الهلاك الذي سيصيب الأشرار في يوم الدينونة.

بالحياة على رجاء الخلاص المستعد أن يُعلن في الزمان الأخير، ينتظر المسيحيون من "السموات التي منها **ننتظر مُخلِّصاً هو الرب يسوع المسيح**" كما يقول القديس بولس الرسول (فيلبي ٣:٢٠، تي ٢:١٣). وكما يقول القديس بطرس أيضاً: «أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان **لخلاص مستعد أن يُعلَن في الزمان الأخير**» (ابط ١:٥). هذا الخلاص يمكن أن يُفهم من خلال الآية اللاحقة عن **«ميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ لنا في السموات»**.

المسيحيون هم العتيدون أن يرثوا الخلاص (عب ١:١٤)، خلاص الزمان الأخير الذي سيُتمّمه المسيح: «وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي» (عب ٥:٩). إن الاتجاه العام للعهد الجديد ككل هو ما ورد في (عب ٩:٢٨): «هكذا المسيح أيضاً بعد ما قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، **سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه.**» (عب ٥:٩)

معنى الخلاص في العهد الجديد بالنسبة للزمن:

الخلاص في العهد الجديد يتصل ليس بهذه الحياة فقط بل أيضاً بحياة الدهر الآتي. إن "الخلاص" و"حياة الدهر الآتي" تعبيران متشابهان. إنجيل يوحنا مثلاً يستخدم كلمة "Soteria سوتيريا"(٢)، أي الخلاص، مرة واحدة (يو ٤:٢٢) «الخلاص هو من اليهود». ولكن مفهوم "الخلاص" هنا متمايز عن كلمة "زوئي = الحياة"، أو " Aionios Zoii أيونيوس زوئي" التي تعني حرفياً في اليونانية الإنجيلية، ليس "الحياة الأبدية" ولا "الحياة الخالدة" بالمعنى الأفلاطوني، بل "حياة الدهر (الآتي)"؛ أي **ليس حالة عدم وجود الزمان بل حالة الزمان الذي لن ينتهي**. لقد أتى المسيح ليهب للناس حياة (يو ١٠:١٠)، وقدم لهم مياه الخلاص «الماء الحي» (يو ٤:١٤) الذي يعني عند القديس يوحنا الروح القدس الواهب الحياة (يو ٧:٣٧-٣٩). إن كلمة "الحياة" عند القديس يوحنا البشير هي بديل لكلمة "ملكوت الله" في الأناجيل الأخرى. فالدخول إلى ملكوت الله هو الدخول إلى الحياة، والدخولان يشيران إلى خلاص إسخاتولوجي، فأن تخلص يعني أن تدخل حتى منذ الآن، بالإيمان، إلى حياة الدهر الآتي. وحتى منذ الآن أنت تقتني هذه الحياة إسخاتولوجيا.

ولشرح هذه الحقيقة، نسأل أنفسنا هذين السؤالين:

هل الزمان سجن؟

وهل الحياة الأبدية هروب من الزمان؟

وللإجابة على هذين السؤالين لابد أن نوضح أن الزمان (أي الحياة في الجسد التي نعيشها الآن تحت الزمان) كانت في نظر أفلاطون والديانات

---

(٢) وردت كلمة "سوتيريا" في الأناجيل خمس مرات، وفي العهد الجديد كله حوالي ٤٦ مرة.

اليونانية تمثل سجناً، وكأنها حلقة تُطبق على خِناقِ الإنســان، وأمــا الخــلاص عندهم بناء على هذه النظرة فهو يعني الانفلات من هذه الحلقـــة أو ذلــك السجن بالهروب من سلطان الزمان والانطلاق من سجن الجســد البغيــض أي بالموت! كل هذه الأفكار ألقت ظلاً كئيباً على حياة الإنسان وجعلته يعيش فـــي شقاء إلى أن يموت وإلى أن يستودع جسده في القبر فتنطلـــق الــروح لتتمتــع وحدها بالخلاص في حالة اللازمان.

أما الرؤية المسيحية فهي مختلفة تماماً عن هذه النظرة الخاطئة. (وللأســف الشديد كثيراً ما يلجأ الوعاظ ورجال الدين في الكنائس إلى ترديد هذه الأفكـــار الأفلاطونية الداعية إلى الكآبة وعلى الأخص في أثناء إلقائـــهم العظــات فـــي الجنازات والمآتم، حيث في مثل هذه الأفكار ينتفي كل معنى للحياة، لظنـــهم أن المسيحية هي مضادة الجسد للروح، والزمن للحياة الأبدية).

إن الزمن ليس حلقة مغلقة مُطبِقة على خِنَاق الإنسان، لكنــه يمثّــل بخــط مستقيم لا نهاية له. لقد قدَّس المسيح - له المجد - الزمن إذ دخل تحت الزمــن من أجلنا: «لما جاء **ملء الزمان** أرسل الله ابنه مولوداً من امـــرأة...» (غــلا ٤:٤)، وامتد المسيح بالزمن ليصير زمناً لا ينتهي، وذلك بالقيامة من الأموات.

وبناءً على هذه الحقيقة، فإن الجسد لم يَعُدْ سجناً، بل تقدس وتحرر بتجســد المسيح، ونال مرة أخرى قدرة التجلّي والإفصاح والإعلان عن ســر القيامــة المتغلغل فيه بقوة قيامة المسيح من بين الأموات. وهذا هو معنى الخلاص فـــي العهد الجديد: فالجسد هو واسطة إعلان عطية الحياة الجديدة الموهوبة للإنسان. والزمن لم يعد ثقلاً على الإنسان، لم يَعُدْ دائرة مغلقة يطلب الإنسان منها فكاكـاً لكي يخلص، بل صار الزمان - بمقتضى البُعْد الأبدي الــذي أعلنــه المســيح بقيامته يحمل راحة ومسيرة مفرحة لا نهاية لها، نحو الله وفي الله، باعتبـــار الله هو الشبع والملء والاكتمال لشخصية الإنسان.

و **"حياة الدهر الآتي"** لم تعُدْ هي حياة الروح دون الجسد، بل هـي تجلّي الاثنين في وحدة واحدة معاً، معلنة مجد الله في حياة الإنسان، وإن كان يبدأها الإنسان منذ **"هذا الدهر"** بالإيمان لكي يكملها في **"الدهر الآتي"** بعد الموت والقيامة العامة بالعيان.

الخلاص والواقع الإنساني:

هذه الحقيقة الإنجيلية كفيلة بأن تنفي عن المسيحية أي اتهام بالهروبية (أي كما لو كانت تحض على كُره الحياة وعلى الهروب من العالم والواقع الإنساني، كوسيلة للخلاص). فالمسيحي الذي يحيا خلاصه يعيش في العالم ويجتاز واقعه ومحنه بشجاعة وواقعية، ولكن بالبعد الاسخاتولوجي (المستقبلي الأبدي) الذي يتأصل في قلبه(٢)، والذي بموجبه يسير على درب الزمان الأبدي منذ الآن بالإيمان: «ها ملكوت الله داخلكم»، فتتغير معاني الحياة والموت في نظره تماماً.

فالألم في حياة المسيحي – بتأثير هذا البُعد المستقبلي الأبدي – ليس عبئاً، بل يصير خفيفاً إذا اعتُبر سبب «ثِقَلِ مجدٍ أبدي» «إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه.» (رو ٨:١٧)

والموت في حياة المسيحي – بتأثير هذا البعد المستقبلي الأبدي – لا يُعتبر نهاية حياة أو بداية حياة، بل نقلة سريعة واجتيازاً رقيقاً من حالة التذوُّق بالإيمان للحياة الأبدية إلى حالة التذوُّق بالعيان لها. فالموت هكذا ليس سوى نزع البرقع الرقيق عن الحقيقة. لهذا اعتُبر الموت عند المسيحي المؤمن انتقالاً، وسُمّي عند الآباء «الموت المُفرح».

---

(٢) أي بتعلقه المستمر بالسماء، وإحساسه الدائم بأنه نزيل غريب على هذه المسكونة.

والجسد والمادة والكون ليست في نظر المسيحي العائش خلاصه شراً أو نجاسة ولا حجاباً كثيفاً يحجز قداسة الله عن الإنسان أو يعطله أو يعثره، بل هي خادم الإنسان: إذ هي موصل له عطايا الله، فهي واسطة إظهار حب الله للإنسان، كما أنها في الوقت نفسه أداة لمجاوبة الإنسان على محبة الله بالعطاء والبذل. فهي نافذة مُطلّة على مجد الله، ومجال لعمل الروح المنبثق من الآب والمرسَل بواسطة المسيح على العالم من أجل اكتمال استعلان الخليقة الجديدة. **وهذا المفهوم هو أساس عقيدة أسرار الكنيسة كواسطة للخلاص.**

والوطن الأرضي ليس بمتعارض ولا هو **مُعطِّل** للوطن السماوي، وكذلك الوطن السماوي ليس مُلغيّ أو مضاداً للوطن الأرضي، بل بالأحرى فإن المسيحي العائش خلاصه وهو متأثر بالبعد المستقبلي الأبدي - يصير أكثر إيماناً وإخلاصاً وحباً وخدمة وبذلاً وفداءً في مواطنته - لأنه حينئذ سيجهد نفسه ليعلن وليشهد لكمال الوطن السمائي أمام الوطن الأرضي - أي يصير صورة مسبقة للمواطن السمائي، وذلك بخدمته المتفانية وحبه الشامل الجامع الحاضن لبني وطنه بل وبني البشر كلهم دون ما تمييز أو تفريق، ذلك الحب الذي يصل إلى حد بذل النفس بالموت عن الجميع - إن استدعى الأمر - شهادة على عدم الخوف والجزع من الموت وعلى ما يفيض به قلب الله من حب أبدي للبشرية جمعاء.

إن موسى الأول الذي أخرج شعب إسرائيل من مصر، وهب حياته من أجل مغفرة خطايا شعبه وخلاصه بالصلاة والتشفع (خر ٣٢:٣٢). وقد تنبأ سفر التثنية وسفر إشعياء عن موسى جديد سوف يبذل حياته بالموت من أجل افتداء شعبه، وقد كان موت يسوع هو سبب خلاص العالم بإنشائه عهداً جديداً بين الله والإنسان. ولقد علَّمنا الرب يسوع أنه هو المخلِّص الذي تنبأ عنه الأنبياء، وبالكلمات التي قالها بولس الرسول نفهم هذه الحقيقة: «إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل. كما

هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب، وهذا هو العهد من قِبَلِي متى نزعت خطاياهم.» (رو ١١: ٢٦و٢٧)

+ «ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب يقـول الرب. أما أنا فهذا عهدي معهم قال الرب.» (إش ٥٩: ٢٠و٢١)

إن خادم الرب، كما يتضح لنا من نبوة إشعياء، سيؤسس عهداً جديـداً مـع شعب الله وينير كل أمم العالم، سيفتح أعين العميان ويطلـق المأسـورين مـن عبوديتهم (إش ٤٢: ٦و٧)

هكذا فهمت الكنيسة الرسولية الأولى عمل المسيح الخلاصي.

الفصل الثالث

تبت كتابي

بالخلاص في أسفار العهد الجديد

أ - الأناجيل ذات الرؤية المشتركة (متى - مرقس لوقا):

١. كلمة "**خلاص**" ذكرت مرة واحدة بفم الرب يسوع في (لو ١٩: ٩)، حيث تشير إلى شخصه كتجسيد للخلاص الذي منحه لزكا، أو إلى السلوك الذي سلكه ذلك العشار بعد ندامته وتوبته. وقد استخدم الرب يسوع كلمة "يخلص" ومشتقاتها ليشير:

أولا: إلى ما أتى من أجله (ضمنا: مر ٣: ٤؛ صراحة: لو ٤: ١٨، مت ١١: ١٨، لو ٩: ٥٦، مت ٢٠: ٢٨).

وثانيا: إلى ما هو مطلوب من الإنسان (مر ٨: ٣٥، لو ٧: ٥٠، ٨: ١٢؛ ١٣: ٢٤، مت ١٠: ٢٢).

+ «فإن من أراد أن **يخلص** نفسه يهلكها».

+ «فقال للمرأة: إيمانك **خلصك**».

+ «والذين على الطريق هم الذي يسمعون، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم لئلا يؤمنوا **فيخلصوا**».

+ «فقال له واحد: يا سيد أقليل هم الذين **يخلصون**؟ فقال لهم: اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق. فإني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا

يقدرون».

+ «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا **يخلص**».

٢. وتوضح آية لو ١٨:٢٦ من سياق الكلام أن الخلاص يستدعي القلب المنسحق المشابه للأطفال والإحساس بالعجز وجحد كل شيء من أجل المسيح، الأمور التي من المستحيل على الإنسان أن يتممها بدون معونة الله: «**فمَنْ يستطيع أن يخلص**»؟ «غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله».

٣. شهادة الآخرين عن عمل المسيح الخلاصي إما تأتي بطريق غير مباشر كما في (مر ١٥:٣١): «خلَّص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلِّصها»، وإما بطريق مباشر كما في (مت ٨:١٧): «لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا». هناك أيضاً الشهادة المتضمَّنة في اسم "**يسوع**" (مت ١:٢١و٢٣): «فستلد ابناً وتدعو اسمه **يسوع** لأنه **يخلِّص** شعبه من خطاياهم». كل هذه الآيات تدل على أن الخلاص كان يكمن في شخص المسيح وخدمته وعلى الأخص في موته.

ب - إنجيل يوحنا:

هذا الحق واضح تماما في إنجيل يوحنا الذي فيه يتضح جانب من جوانب الخلاص في كل إصحاح:

يو ١:١٢: يتضح أن كل من يؤمن ويعتمد باسم المسيح «كل الذين قبلوه» يصير من أولاد الله.

٢:٥: علاج مرض الإنسان وعوزه يكمن في الطاعة له «كل ما قاله لكم فافعلوه».

٣:٥: الولادة الجديدة من الماء والروح أساسية لدخول الملكوت (سر المعمودية): «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت

الله».

ولكن في ٣:١٤و١٧ يوضح هذه الحقيقة أكثر، فهذه الحياة الجديدة ليست ممكنة بمعزل عن الإيمان في موت المسيح، الذي بدونه يصير كل الناس واقعين تحت الدينونة (١٨:٣).

٢٢:٤: الخلاص هو من اليهود بالاستعلان التاريخي ومن خلال شعب الله، وهو عطية تجدد الإنسان داخليا وتهيئه للعبادة.

١٤:٥: الشخص الذي شفاه المسيح لا ينبغي أن يخطئ بعد لئلا يكون له أشر (الجهاد وسر التوبة).

٣٩:٥: الكتب المقدسة تشهد للحياة (إنجيل يوحنا يستخدم كلمة "الحياة" بديلاً وبمعنى "الخلاص") في الابن الذي أعطي له أن يمنح الحياة ويقيم الدينونة.

٢٤:٥: المؤمنون انتقلوا من الموت إلى الحياة: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة».

٣٥:٦: يسوع يستعلن نفسه أنه خبز الحياة الذي ينبغي أن يطلبه الناس وحده.

٦٨:٦: هو كلام الحياة الأبدية المحيي، (سر جسد الرب ودمه – الثبات في المسيح).

٣٩:٧: الماء هو رمز حياة الروح المخلصة، ذلك الروح المزمع أن يأتي بعد أن يتمجد المسيح.

١٢:٨: يوضح المسيح أمان السير في النور: «من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة».

٣٢:٨و٣٦: الحرية من خلال الحق الذي هو الابن الكلمة: «وتعرفون الحق

والحق يحرركم، ... فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا».

٩:٢٥ و ٣٧و٣٩: الخلاص هو بصيرة روحية: «كنت أعمى والآن أبصر»...«قد رأيته والذي يتكلم معك هو هو».

١٠:١٠: الدخول إلى حياة اليقين والوفرة داخل الحظيرة يكون بواسطة المسيح: «أنا هو الباب، إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى».

١١:٢٥: حياة القيامة هي للمؤمنين «من آمن بي ولو مات فسيحيا».

١١:٥٠: (وقارن معها ١٨:١٤) يعترف قيافا رغما عنه بأن المسيح مخلص: «أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

١٢:٣٢: المسيح، المرتفع عن الأرض بالصليب، يجذب إليه الجميع.

١٣:١٠: غسله أرجل التلاميذ يرمز إلى الخلاص (يطهر كل إثم): «الذي قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله».

١٤:٦: هو الطريق الحي الحقيقي إلى مسكن الآب: «أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي».

١٥:٥: الثبات فيه باعتباره الكرمة، هو سر سريان الحياة في الناس باعتبارهم الأغصان.

١٦:٧-١٥: من أجل المسيح سوف يأتي الروح القدس وسوف يذلل كل عقبات تقف في طريق الخلاص، وهو يعد العالم لهذا الخلاص: «لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على الخطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضا. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين».

٢:١٧ و ٣و١٢: يحفظ أولئك الذين يعرفون الله الحقيقي ويعرفون ابنه: «...هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته ...».

٣٠:١٩: الخلاص «قد أُكمِل».

٢٠:٢١-٢٣: كلمات السلام مع عطية الروح القدس جنباً إلى جنب.

٢١:١٥-١٨: محبته الشافية تستودع المحبة في قلوب تابعيه وتسترجع المحبة في قلب مَنْ أنكره.

ج - سفر الأعمال:

يتتبع سفر الأعمال طريق الخلاص أو المناداة بطريق الخلاص (راجع ١٦:١٧) بتأثيره:

أولا: على الجموع التي وعظها بطرس أن تخلص من هذا الجيل الملتوي (٢:٤٠)، بالتوبة (التوبة في حد ذاتها عطية ومرحلة تؤدي إلى الخلاص - راجع ١١:١٨)، وبمغفرة الخطايا وقبول الروح القدس.

وثانيا: على مريض كان يجهل احتياجه الحقيقي وشفي باسم يسوع الذي «ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع ٤:١٢).

وثالثا: على أهل بيت الرجل الذي سأل الرسل: «ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟» (١٦:٣٠)

ويزخر سفر الأعمال بكلمات "**الخلاص**".

د – رسائل بولس الرسول:

يقول بولس الرسول إن الكتب المقدسة تحكم الناس للخلاص بالإيمان الذي بربنا يسوع المسيح (٢ تي ١٥:٣)، وتوفر الأساسيات الجوهرية للتمتع بملء الخلاص الكامل.

١. فهو يلقي ضوءا شديدا بينما يقدم مفهوم العهد القديم عن الخلاص ببر الله، الذي هو في حد ذاته رمز لبر الله الذي للخلاص في العهد الجديد. فيقول إنه لا يوجد أي خلاص بوسائط الناموس، الذي كل ما فعله أنه أشار إلى وجود الخطية، ونبه إلى فعاليتها، وأوقف احتجاج الناس بسبب ذنوبهم أمام الله:

+ «ونحن نعلم أن كل ما يقوله الناموس فهو يكلم به الذين في الناموس، لكي يستد كل فم ويصير كل العالم تحت قصاص من الله.» (رو ١٩:٣)

+ «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضا بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس.» (غلا ١٦:٢)

٢. الخلاص مقدم كعطية مجانية من الله البار الذي يتوجه بالنعمة تجاه الخاطئ غير المستحق، الذي بعطية الإيمان يثق في بر المسيح الذي فداه بموته وبرره بقيامته: «أسلم من أجل خطايانا، وأقيم لأجل تبريرنا.» (رو ٢٥:٤)

٣. الله، من أجل خاطر المسيح، يبرر الخاطئ غير المستحق (أي يحسب له البر الكامل الذي للمسيح ويعتبره وكأنه لم يخطئ)، ويغفر له خطيته، ويصالحه لنفسه في المسيح صانعا سلاما بدم صليبه:

+ «ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة.» (٢ كو ١٨:٥)

+ «وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضا بالله بربنا يسوع المسيح الذي نلنا به

الآن المصالحة.» (رو ٥:١١)

+ «لأنه فيه سر أن يحل كل الملء، وأن يصالح به الكل لنفسه، عاملا الصلح بدم صليبه بواسطته، سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات.» (كو ١:٢٠)

٤. وهو يتبناه ويدخله إلى أهل بيته:

+ «ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني.» (غلا ٤:٥)

+ «إذا لست بعد عبدا بل ابنا، وإن كنت ابنا فوارث لله بالمسيح.» (غلا ٤:٧)

٥. ويعطيه **ختم الموعد وثمار الروح في قلبه**، وهكذا يخلقه خليقة جديدة. وبنفس الروح القدوس الذي ناله فإن منابع الخلاص تتيح له أن يكون قادرا على أن يسلك في جدة الحياة، مميتا أعمال الجسد باستمرار:

+ «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨:١٣)، إلى أن **نشابه صورة المسيح**: «الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه.» (رو ٨:٢٩)

٦. وخلاص هذا الإنسان **يكمل في المجد**:

+ «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء.» (في ٣:٢١)

* * *

هذه هي مظاهر الاختبار الذي يجوزه باطنيا الإنسان الخاطئ البعيد عن الله الذي لم يعتق بعد من عبودية الفساد، كما يصوره بولس الرسول في رسائله. ولكن بولس الرسول يلمح أيضا إلى وسائط الخلاص، أي الوسائط التي من خلالها ينال الإنسان كل اختبار من هذه الاختبارات بعطية الله المعطاة بالروح

القدس.

١. فبداية طريق الخلاص هو الموت عن الخطية من خلال الدفن مع المسيح بشبه موته:

+ «نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها؟

أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنا معه **بالمعمودية** للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة.

لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه **بشبه موته** نصير أيضا بقيامته، عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضا للخطية. لأن الذي مات قد تبرأ من الخطية. فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضا معه.

عالمين أن المسيح بعد ما أقيم من الأموات لا يموت أيضا، لا يسود عليه الموت بعد. لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة والحياة التي يحياها فيحياها لله.

كذلك أنتم أيضا احسبوا أنفسكم أمواتا عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذا لا تملكن الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته. ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية. بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات بر لله. فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة.» (رو ٦:١-١٤)

٢. ثم يوضح بولس الرسول أن المعمودية تعني بالنسبة لنا ألا نعود مرة أخرى فنستعبد أنفسنا للخطية للموت بعد أن أعتقنا منها، بل أن يكون لنا **ثمر الخلاص**: القداسة التي تؤدي للحياة الأبدية.

إن لسر المعمودية فاعلية دائمة في حياة المؤمن، هي فاعلية عتق وتحريره الإنسان من إنسانه العتيق، هي سر خلاصه من سلطان الخطية من خلال الموت السري مع المسيح، هذه الفاعلية تظهر في سلوكين:

أ) **سلوك سلبي:** عدم فعل الخطية لئلا نعود للاستعباد لها مرة أخرى (سر التوبة).

ب) **سلوك إيجابي: تكريس** وتقديس الأعضاء والحياة للمسيح ويسميها بولس الرسول: «ثمركم للقداسة» (أي فاعلية سر جسد الرب ودمه).

ونركز هنا على الخلاص في الرسالة إلى العبرانيين:

الخلاص العظيم الذي تقدمه هذه الرسالة إلى العبرانيين يسمو على كل رموز العهد القديم. فخلاص العهد الجديد يوصف بلغة الذبيحة، فالتقدمات الكثيرة التكرار في طقوس العهد القديم التي كانت تختص بخطايا السهو والتي كانت تؤدي إلى خلاص مصطنع، الآن استبدلت بذبيحة المسيح الواحدة، والمسيح هو الكاهن والذبيحة معا (عب ٩:٢٦؛ ١٠:١٢)، وتؤدي إلى الخلاص الحقيقي.

١. ذبيحة واحدة:

+ «فإذ ذاك كان يجب أن يتألم مرارا كثيرة منذ تأسيس العالم، ولكنه الآن قد أظهر مرة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه».

٢. كاهن واحد:

+ «وأما هذا فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله».

إن انسكاب دم حياته بالموت أثمر فداء حتى يمكن للإنسان الذي اغتسل ضميره أن يدخل إلى حضرة الله بشروط العهد الجديد مصدقا عليها من الله

بسبب وسيطه يسوع المسيح (عب ٩:١٥؛ ١٢:٢٤):

+ «ولأجل هذا هو وسيط عهد جديد لكي يكون المدعوون، إذ صار موت لفداء التعديات التي في العهد الأول، ينالون وعد الميراث الأبدي».

+ «بل قد أتيتم إلى... وسيط العهد الجديد، يسوع، وإلى دم رش يتكلم أفضل من هابيل».

وهكذا تؤكد رسالة العبرانيين على تعامل المسيح إزاء الخطية بآلامه وموته ليصير فداء أبديا، وننتظر ظهور المسيح ثانية ليس لكي يتعامل مع الخطية فيما بعد، بل لكي يكمل خلاص شعبه، وبالتالي مجدهم المنتظر (عب ٩:٢٨):

+ «هكذا المسيح أيضا بعد ما قدم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه».

إن رسالة العبرانيين وهي تأخذنا إلى السماء لنتطلع إلى نبيحة الحمل الإلهي القائمة أمام عرش الآب تتشفع في المذنبين كل حين، هي التي تتصور في فكر الكنيسة وهي تجتمع كل يوم أحد لتقدم الإفخارستيا (الشكر) والتسبيح للآب على هذه الذبيحة، وتتقدم في خوف ورعدة لتأكل الخبز والخمر، وقد حملهما المسيح جسده المكسور ودمه المسفوك، حياة للكنيسة وطهارة وقداسة وبرا لأعضائها.

هـ- رسالة يعقوب:

١. يعلم يعقوب الرسول بأن التبرير ليس بالإيمان وحده بل وبالأعمال أيضا (٢:٢٤). هذا التأكيد الجديد لازم لتبديد كل وهم قد يقع فيه المؤمن حينما يضع خلاصه في مجرد اعتقاد عقلي بوجود الله أو باقي الحقائق اللاهوتية دون أن يسمح لعمل الله الخلاصي بأن يغير قلبه ويثمر في سلوكه أعمال بر المسيح. هذا لا يمكن أن يحسب إيمانا حقيقيا، بل الإيمان الحقيقي هو الذي يفصح عن

نفسه بسلوك يشير إلى قوى الخلاص العاملة في النفس من خلال الثبات في كلام الله.

٢. ويهتم يعقوب الرسول بمن يسعى ليرد الخاطئ عن ضلال طريقه قائلا إنه إنما **يخلص نفسا من الموت** (٥: ٢٠).

٣. يوصي يعقوب الرسول باستخدام الزيت (زيت المسحة) لتقديم الخلاص (بمعناه اليوناني الذي ذكرناه في "الخلاص في العهد الجديد" أي الشفاء الكامل لأمراض الجسد والروح) على مثال آيات الشفاء التي أجراها السيد:

+ «أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان **تشفي** المريض والرب يقيمه. وإن كان قد فعل خطية **تغفر له**.» (٥: ١٤و١٥)

وهذا هو سر مسحة المرضى.

٤. ويوصي بالاعتراف بالخطايا من أجل **الشفاء** (الكامل الشامل أي الخلاص بمعناه الأصيل): «اعترفوا بعضكم لبعض... لكي تشفوا.» (يع ٥: ١٦)

و - رسالتا بطرس الأولى والثانية:

١. تقدم رسالة بطرس الأولى ملاحظة مشابهة لما ورد في رسالة العبرانيين عن الخلاص الثمين (١: ١٩): «الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء» (٢: ٢٥)، لكنه الآن قد صار حقيقة لأولئك الذين كانوا كخراف ضالة لكنهم «رجعوا إلى راعي نفوسهم وأسقفها» (٢: ٢٥).

٢. أما **الجانب الاسخاتولوجي** للخلاص فهو الذي يذكره بطرس الرسول في رسالته الأولى بأنه: «خلاص مستعد أن يعلن في الزمان الأخير... محفوظ في السموات لأجلكم.» (١بط ١: ٥و٤)

٣. في رسالة بطرس الرسول الثانية، الخلاص يستلزم الهروب من الفساد

الذي في العالم بالشهوة، حتى نبلغ إلى أن نكون **شركاء الطبيعة الإلهية** (٤:١).

وهذه إشارة إلى موهبة التأليه في المسيح (أو بالتعبير الآبائي باليونانية "Theosis ثيئوسيس") المعطاة كثمرة نهائية لجهاد الإنسان، تلك الموهبة التي تسبح الكنيسة عريسها من أجل إعطائه إياها قائلة: "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له. أخذ جسدنا وأعطانا روحه القدوس. وجعلنا واحدا معه من قبل صلاحه" (التسبحة اليومية – ثيئوطوكية الجمعة).

فالشركة في الطبيعة الإلهية من خلال اتحادنا بالمسيح بالروح القدس هو قصد الخلاص النهائي وغايته الأخيرة وهبته الفائقة:

+ «كما أن قدرته الإلهية **قد وهبت لنا** كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة، لكي تصيروا بها **شركاء الطبيعة الإلهية**،

هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة.

ولهذا عينه وأنتم **باذلون كل اجتهاد**، قدموا في إيمانكم فضيلة، وفي الفضيلة معرفة، وفي المعرفة تعففا، وفي التعفف صبرا، وفي الصبر تقوى، وفي التقوى مودة أخوية، وفي المودة الأخوية محبة.

لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت، تصيركم لا متكاسلين ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح. لأن الذي ليس عنده هذه هو أعمى قصير البصر **قد نسي تطهير خطاياه السالفة**.

لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الإخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين. لأنكم إذا فعلتم ذلك **لن تزلوا أبدا**. لأنه هكذا يقدم لكم بسعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي.» (٢بط ١:٤–١١)

٤. هنا يوضح بطرس الرسول العلاقة بين هبة الخلاص المجاني وبين

اجتهاد المؤمن للاحتفاظ بهذا الخلاص، لحفظ عمل معموديته الذي فيه تطهر من كل خطاياه السالفة. ويعطي بطرس الرسول معنى هذا الاجتهاد: **إنه لحفظ الإنسان من الزلل.**

٥. وفي سياق الكلام عن الخطية، يوضح أن المؤمن يشتاق إلى السموات الجديدة والأرض الجديدة التي فيها يسكن البر، بينما يلفت النظر إلى أن تأخر مجيء المسيح الثاني يرجع إلى طول أناة ربنا الذي هو في حد ذاته خلاص:

+ «ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضا جديدة يسكن فيها البر... واحسبوا أناة ربنا خلاصا.» (٢بط ٣:١٣و١٥)

٦. ويلمح بطرس الرسول إلى الوسائط السرائرية لنوال نعم الخلاص فيعقد مشابهة بين فلك نوح والأنفس التي نجت فيه من الطوفان وبين حقيقة خلاص الله للعالم من خلال الكنيسة بالتغطيس في المعمودية:

+ «فإن المسيح أيضا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا، البار من أجل الأثمة، لكي يقربنا إلى الله، مماتا في الجسد ولكن محيى في الروح.

الذي فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التي في السجن، إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح إذ كان الفلك يبنى الذي فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء. **الذي مثاله يخلصنا نحن الآن أي المعمودية.** لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح.» (١بط ٣:١٨-٢١)

ز - رسالتا يوحنا الأولى والثانية:

نجد أيضا هنا تشابها مع لغة رسالة العبرانيين الذبائحية. فالمسيح هو خلاصنا بكونه الكفارة عن خطايانا كدليل محبة الله لنا. فالله هو الذي في حبه وفي سكب دم ابنه، محا خطايانا وطهرنا. وكما في إنجيل يوحنا، كذلك في هذه

الرسالة: الخلاص يفهم باعتباره ولادة من الله، معرفة الله، اقتناء الحياة الأبدية في المسيح، الحياة في النور والحق أي في الله، الحياة في الله ومعرفة حياة الله فينا من خلال المحبة التي بروحه القدوس:

+ «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية، لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله.» (١ يو ٣:٩)

+ «نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال... بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه.» (١ يو ٤:٦و١٣)

+ «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه.» (١يو ٥:١١)

ح - رسالة يهوذا:

عدد ٣ يشير إلى **"الخلاص المشترك"**، وهو مماثل لما ورد في الرسالة إلى تيطس ١:٤ عن الإيمان المشترك. هذا الخلاص العام يساوي الإيمان الذي على المؤمنين أن يجاهدوا من أجله. هذا الخلاص أو الإيمان يتضمن حقائق الخلاص، بركات ونعم الخلاص، متطلباته واختباراته المعطاة للمؤمنين على اختلافهم. في الآيات ٢٢ وما بعدها، يقدم هذا الخلاص للمجموعات المختلفة التي في شك أو خطر أو انحطاط: «ارحموا البعض مميزين. وخلصوا البعض بالخوف، مختطفين من النار، مبغضين حتى الثوب المدنس من الجسد». فالخلاص هو في الكنيسة، ويتحقق في شركة المؤمنين بعضهم مع البعض.

ط - سفر الرؤيا:

يردد سفر الرؤيا ما ورد في رسالة يوحنا الأولى عن الخلاص أنه انعتاق وتطهير من الخطية بواسطة دم المسيح واعتباره المؤمنين **"كهنوتا ملوكيا"**،

أي بتقديم نفوسهم وأجسادهم ذبائح روحية لله:

+ «ومن يسوع المسيح الشاهد الأمين، البكر من الأموات ورئيس ملوك الأرض، الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه، وجعلنا **ملوكا وكهنة لله** أبيه، له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين آمين.» (١: ٥و٦)

وكترديد لكلمات المرنم في سفر المزامير ينسب يوحنا الرائي الخلاص في معناه الشامل لله: «الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف.» (رؤ ٧: ١٠)

وفي الإصحاحات الأخيرة من السفر يصف الخلاص بأوراق **شجرة الحياة** التي لشفاء الأمم. هذه الشجرة وهذه المدينة الجديدة التي من يدخل إليها هو الذي يكتب اسمه في سفر الحياة:

+ «وأراني... شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة وورق الشجرة لشفاء الأمم... وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله... ولن يدخلها شيء دنس ولا ما يصنع رجسا وكذبا، إلا المكتوبين في سفر حياة الخروف... طوبى للذين يصنعون وصاياه لكي يكون سلطانهم على شجرة الحياة ويدخلوا من الأبواب إلى المدينة.» (رؤ ٢١و٢٢)

الفصل الرابع

الكنيســـة

طـريــق الخلاص

الكتاب المقدس يُعلن بكل قوة ووضوح أن الإنسان منـــذ السـقوط، كفـرد وكجماعة، محتاج إلى الخلاص. وأنه ليس من قوة بشرية تستطيع أن تخلّصـــه من دائرة الفساد التي أطبقت على خناقه. لابد أن يأخذ الله المبادرة حتى يمكـــن خلاص الإنسان.

وما أكثر المحاولات الباطلة التي حاولها ويحاولها الإنسان للعلاج: الاستثارة العقلية، الإصلاح الأخلاقي، المداواة الطبية والسيكولوجية، التنمية الاجتماعيـــة عن طريق استعمال التقدم التكنولوجي، التطور الاقتصادي والسياسي. وفوق كل هذه، فهناك المحاولات الدينية نفسها التي ابتدعها الإنسان بعيدا عـــن الوحـي الإلهي. وقد اتضح للإنسان وما زال يتضح له أنــه لــن يسـتطيع أن يصنـع خلاصه، بسبب تأصل طبيعة الخطية فيه وتمركزه حول ذاته.

والمسيح هو وحده الذي استعلن خلاص الله للإنسان. والروح القـدس هـو الذي يجعل هذا الخلاص الذي أكمله المسيح للعالم مرة واحدة حقيقة لكل إنسان. ومن خلال الأسرار المقدسة، ينال الإنسان كل مفاعيل الخلاص، ومــن خـلال جهاده اليومي يتممه ويثبت فيه، مترجيا الخلاص الآتي.

الكنيسة والخلاص:

تشبه الكنيسة دائما بأنها سفينة الخلاص على مثال فلك نوح. فالإنسان يتوب ويؤمن بالإنجيل من خلال الكنيسة، ويتعمد إلى جسد الكنيسة الواحد ليصير واحدا من شعب الله المخلصين. فكلمتا: "Ecclesia إكليسيا" أي كنيسة و"Laos لاؤس" باليونانية أي "شعب" هما لقبان لشعب الله المختار في العهد القديم الذي اختبر خلاص الله وصار شاهدا لهذا الخلاص للعالم أجمع. وفي العهد الجديد انتقل هذان اللقبان ليصفا شعب الله المخلصين حيث صار هو الخميرة والنور والملح والشبكة التي تجمع السمك من البحر وتصطاده للحياة الأبدية (مت ١٣:٣٣؛ ٥:١٤؛ ٥:١٣؛ ١٣:٤٧و٤٨).

فمن خلال سر **المعمودية**، يتحد المؤمن بموت المسيح ودفنه ويقوم معه ليسلك في جدة الحياة. في سر المعمودية يحدث أول خلاص للإنسان، أي سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح من الأموات.

المعمودية تقدم للإنسان الخلاص الثمين جدا الذي ليس بذهب ولا فضة بل بدم ثمين غال. فالخلاص مع أنه موهوب لنا مجانا، ولكن غال جدا. فثمن الخلاص مثمن بدم كريم زكي، دم ابن الله. وبسبب هذا الثمن الغالي للخلاص، فلابد للإنسان أن يحفظه ويتممه بخوف ورعدة لكي تكون دعوته واختياره ثابتين (٢بط ١:١٠). فليس معنى مجانية الخلاص أنه رخيص، فنتهاون أو نستهين بالتزامنا ومسئوليتنا تجاه هذا الخلاص.

ولهذا فالإنسان مطالب بأن يجاهد ليحفظ نفسه من العالم بقمع شهوات جسده واستعبادها، ولينمو في الإيمان مقدما في إيمانه فضيلة، وليثبت في المسيح (من خلال سر الإفخارستيا) كضمان لثبوته في الخلاص ولثبوت عمل خلاص الله فيه.

الكنيسة هي، إذا، جماعة "المخلصين" الذين اجتازوا بحر الموت (الذي كان

البحر الأحمر رمزا له، والمعمودية واسطة تحقيقه بالسر). يقول بولس الرسول: «فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله (للخلاص)» (١كو ١:١٨). والكنيسة بهذه الصفة تجتمع في أول الأسبوع لكي تتمم رسالتها في العالم بأن:

١. **تتذكر خلاص الله** الذي دبره الله منذ أخرج شعبه من أرض مصر وعبر بهم البحر الأحمر إلى خلاص الله الكامل الذي أكمله في المسيح. لذلك تسرد وتتلو أعمال الله الخلاصية على مدى التاريخ الخلاصي المقدس. فأول هوس (تسبحة) في الأبصلمودية المقدسة تترنم بها الكنيسة ليلة الإفخارستيا هو الهوس الأول، وهو أول حدث خلاصي لشعب الله: تسبحة موسى بعد عبور الشعب البحر الأحمر. ثم الهوس الثاني: الذي تسبح بها الكنيسة الله المخلص شعبه خلال رحلتهم إلى أرض كنعان. ثم إبصالية الثلاث فتية: الذين نجاهم الله من أتون النار، والذين كانوا رمزا للقيامة العتيدة من الأموات، وفي هذه الإبصالية ترتل الكنيسة "للذي صلب عنا وقام وأبطل الموت وأهانه"، حيث تمم الخلاص الحقيقي لبني الإنسان. وهكذا تستمر الأبصلمودية التي ترتلها الكنيسة المفدية، مسبحة وشاكرة مخلصها على أعمال خلاصه منذ عبور شعب الله في القديم من خلال مياه البحر الأحمر وحتى عبور شعبه من الموت إلى الحياة من خلال مياه المعمودية.

٢. **تحتفل بذكرى الخلاص التاريخي** احتفالا سرائريا بقصد أن تعيد وتحقق حضوره في الزمان الحاضر، إذ تجتمع حول خروف الفصح (كما في العهد القديم)، ولكن هنا في العهد الجديد فإن فصحنا هو المسيح، الذبيحة الأبدية التي لا تنتهي والتي لا تستنفذ فاعليتها وشفاعتها، والواقفة أمام عرش الآب في السماء والدماء تنزف منها من أجلنا (رؤ ٥:٦)، وتأكل منها (كما كان في العهد القديم، فالذبيحة التي كان يؤكل منها هي ذبيحة الخلاص المسماة ذبيحة المسلء، ذبيحة السلامة σωτηρία سوتيريا) ليسري فعل الخلاص في داخلها، ولتمتلئ

من حياة الحمل الحقيقي الذي رفع خطايا العالم وأعطى الحياة بموته وقيامته للإنسان. المسيح سلّم لنا سر التناول من الفصح الجديد يوم خميس العهد: "خذوا كلوا، هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم وعن كثيرين. خذوا اشربوا، هذا هو دمي الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا." (مت ٢٦:٢٦-٢٨، لو ٢٢:١٩و٢٠)

٣. **ترجو وتنتظر الخلاص "الاسخاتولوجي" أي تكميل الخلاص المزمع أن** يصنعه الله مع قديسيه في السماء. لأن كل خلاص في الحاضر يحمل في ذاته انتظار خلاص مكتمل في الأبدية.

الكنيسة المخلصة والشهادة للخلاص:

حينما تمتلئ الكنيسة من قوة الخلاص الإلهي بالفعل من خلال الممارسة السرائرية، وحينما تتحول إلى جسد المسيح حقا، وحينما تختبر حضور المسيح وتتحد به فيصير المسيح حاضرا بمجده ومجد أبيه والروح القدس، حينئذ تتأهل أن **تبشر وتردد قصة الخلاص للعالم**. فالكنيسة الأرثوذكسية لا تكرز بالمؤسسات الخارجية والمدارس والمستشفيات بل بتجديدها الباطني السري الذي يتم أولا في الأسرار، ثم بعد ذلك تخرج إلى العالم لتكرز وتبشر.

لهذا فمسئولية الكنيسة تجاه الأطفال والفتيان والشباب في الكنيسة ليس إعطاؤهم الوصايا الأخلاقية أو القصص البطولية أو التأملات التصوفية، بل مسئولية الكنيسة تجاه أولادها هي كما أوصى الله موسى:

+ «ويكون متى سألك ابنك غدا قائلا ما هذا؟ تقول له: بيد قوية أخرجنا الرب من مصر من بيت العبودية، وكان لما تقسى فرعون عن إطلاقنا أن الرب قتل كل بكر من أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم. لذلك أنا أذبح للرب الذكور من كل فاتح رحم وأفدي كل بكر من أولادي. فيكون علامة على يدك وعصابة بين عينيك،

لأنه بيد قوية أخرجنا الرب من مصر.» (خر ١٣: ١٤-١٦)

أي حينما "يسألك ابنك"، حينما "يسألك عن ليتورجية الكنيسة وإفخارستية القرابين". لذلك ينبغي أن تبدأ خدمتنا للأطفال من الليتورجية الإلهية حينما يحضرها الأطفال والشباب مع الشيوخ، ومن خلال الطقس يشرح رب الأسرة والكاهن وخادم مدارس الأحد عمل الله الخلاصي لهذه النفوس، لكي تعرف وتؤمن وتمجد الله على خلاصه لها وتعي أنها ضمن شعب الله الذي يسبح الله على أعماله الخلاصية ويحتفل بالخلاص ويتناول منه.

الفرد في الكنيسة والخلاص:

واضح أن الفرد في الكنيسة لا يمكنه أن ينتفع من نعمة الله المخلصة لجميع الناس، إلا إذا كان هو نفسه شاعرا بحاجته الشخصية للمسيح المخلص المحرر من الخطية. لا يمكن أن ينتفع من نعمة الله المخلصة من لا يحس بخطيته ويتقدم إلى الكنيسة تائبا عنها توبة حقيقية لينال غفران الخطايا من الله في الكنيسة ممثلة في شخص الكاهن. لا يمكن أن ينتفع من خلاص الله من نسي تطهير خطاياه السالفة أي نعمة الاغتسال والميلاد الثاني وتهاون في تتميم خلاصه ولم يجاهد الجهاد الحسن، إذ ماذا سيقدم من قرابين أمام الله وهو لم يقدم نفسه أولا له ليطهرها ويقدسها. فالقداس الإلهي وصلواته وابتهالاته ليست فقط من أجل تطهير وتقديس القرابين بل هي أولا من أجل تطهير النفوس التي قدمت القرابين وتقديسها. فالقداس يبدأ بتوبة المؤمنين ونوالهم الحل من الثالوث الأقدس والكنيسة الجامعة.

ثم في سر بخور البولس يصلي الكاهن:

+ "كن معنا نحن أيضا يا سيدنا في هذه الساعة وقف في وسطنا كلنا. طهر قلوبنا وقدس نفوسنا، ونقنا من كل الخطايا التي صنعناها بإرادتنا والتي صنعناها بغير إرادتنا، وامنحنا أن نقدم أمامك ذبائح

ناطقة وصعائد بركة".

وهكذا في سر اعتراف الشعب وفي سر البولس والكاثوليكون والإبركسيس، يطلب الكاهن سرا من أجل تطهير الشعب من خطاياه، ولتكميلـه فـي الحيـاة بحسب مشيئة الله. وهكذا في كل مناسبة تلي ذلك في القداس.

وبعد حلول الروح القدس على القرابين الموضوعة علـى المذبـح يطلـب الكاهن أيضا قائلا:

+ "اللهم الذي قدس هذه القرابين الموضوعة بحلول روحك القـدوس عليها وطهرتها. طهرنا نحن أيضا يا سيدنا، مـن خطايانـا الخفيـة والظاهرة وكل فكر لا يرضي صلاحك يا الله محب البشر فليبعد عنا. طهر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا وقلوبنا وعيوننا وأفـهامنا وأفكارنـا ونياتنا...".

ولهذا أعطت الكنيسة الفرصة لكل مؤمن أن يعترف بخطاياه أمـام الكـاهن لينال الحل والمغفرة قبل القداس الإلهي ليتأهل للثبات في شخص المسـيح مـن خلال سر تناول الجسد والدم.

وبعد انتقال المؤمن من حياة الجسد هذه، تشيعه الكنيسة في **أوشية الراقديـن** بالصلاة إلى السماء ليكمل الله خلاص هذا الإنسان، وكلها رجاء في الخـلاص الأخير القائم على رحمة الله ونعمته المكملة لكل نقص وعيب:

+ "وإن كان لحقهم توان أو تفريط كبشر وقد لبسوا جسدا وسكنوا فـي هذا العالم، فأنت كصالح ومحب البشر تفضل يا رب أنفـس عبيـدك المسيحيين الأرثوذكسيين الذين في المسكونة كلها من مشارق الشـمس إلى مغاربها ومن الشمال إلى اليمين، كل واحد باسمه وكـل واحـدة باسمها، يا رب نيحهم واغفر لهم..." **(أوشية الراقدين)**

إبصالية يوم السبت وباقي الأيام:

+ "يا ربي يسوع المسيح مخلصي الصالح"

إن إحساس المؤمن بالمسيح مخلصا شخصيا له يتضح بأعمق وضوح في الإبصالية المؤثرة: "**أعطى فرحا لنفوسنا، تذكار اسمك القدوس. يا ربي يسوع المسيح مخلصي الصالح**".

في ليلة الفصح (أي ليلة الأحد) يصرخ المؤمن مناجيا المسيح إلهه ومخلصه بهذه التسبحة، وهي مستقاة من الاختبار الروحي التقوي الأرثوذكسي الذي بدأه أول من بدأه آباء البرية الأقباط وعلى الأخص القديس أنبا مقار الكبير، وتسمى صلاة يسوع أو الصلاة السهمية. وفيها يلهج المؤمن بقلبه وبفكره وبفمه كل لحظات حياته بالصلاة والابتهال قائلا: يا ربي يسوع أعني...

وتتميز إبصالية كل يوم من أيام الأسبوع بأنها استدعاء لاسم يسوع الذي للخلاص وهي ممتلئة بالابتهالات والتوسلات الشخصية التي يرفعها كل مؤمن طالبا الخلاص لنفسه أولا من الرب يسوع المسيح، حتى يمكنه أن يتقدم ليكون ضمن الكنيسة جسد المسيح القائمة وسط العالم تتشفع من أجل تكميل خلاص النفوس كلها وتجديد الخليقة.

+ "لأنك أتيت (ولدت، صلبت، قمت) وخلصتنا":

هذا المرد الذي يتغير حسب موسم الحياة الكنسية تختم به الكنيسة اجتماعاتها أو تختم بها تسبيحاتها شاكرة وساجدة للابن الكلمة لأنه أتى (أو ولد، أو صلب، أو قام) وخلصنا، وهذا تعبير عن أن الكنيسة تعيش كل لحظات وزمان عبادتها وصلواتها تحت مظلة خلاص الله.

وهكذا تزخر كنيسة العهد الجديد بكل وسائط الخلاص للمؤمن، من داخل وحدة جماعة المؤمنين واتحادهم معاً في التسبيح والصلاة وشركة التناول من الجسد الواحد.

الفصل الخامس

الخلاص والإنسان

"من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا".

"... تأنَّس وصُلب عنّا على عهد بيلاطس البنطي".

(قانون الإيمان)

الإنسان وخلاصه الشخصي هو غاية تدبير الله. لذلك فإن كافة أعمال المسيح أثناء حياته على الأرض والتي اكتملت بصعوده إلى السموات ودخوله إلى ما داخل قدس أقداس الله، ثم إرساله الروح القدس؛ إنما ترتبط بحياة كل واحد منّا الشخصية، ارتباطاً وصفه بولس الرسول على مدى رسائله الأربع عشرة هكذا: (راجع: رو ٨:٧، ١ كو ١٢:٢٦ **التألم مع المسيح**؛ رو ٦:٥، غلا ٢:٢٠ **الصلب مع المسيح**؛ ٢ تي ٢:١١، ٢ كو ٧:٣ **الموت مع المسيح**؛ رو ٦:٤، كو ٢:١٢ **الدفن مع المسيح**؛ أف ٢:٦، كو ٢:١٢، ٣:١ **القيامة مع المسيح**؛ رو ٦:٨، ٢ تي ٢:١١ **الحياة مع المسيح**؛ رو ٨:١٧ **التمجد مع المسيح**؛ أف ٢:٦ **الجلوس في السماويات مع المسيح**؛ ٢ تي ٢:١٢، ١ كو ٤:٨ **الملك مع المسيح**؛ رو ٨:١٧، أف ٣:٦ **الميراث مع المسيح**... الخ).

مع المسيح يموت الإنسان، ومع المسيح يقوم، ومع المسيح يصعد إلى السموات، ومع المسيح يدخل إلى الحضرة الإلهية، ويجلس عن يمين الآب في السماويات، ومع المسيح يشارك في ذلك الجانب غير المنظور من مجد المسيح

الذي سيأتي فيه ظاهرا لنستعلن نحن معه.

هذا هو عمل الخلاص في الإنسان.

وكلمة الرسول بولس في رسالة فيلبي ١:٢١ أن «**المسيح حياتنا**»، تعني تماما نفس ما تعنيه «مع المسيح صلبت **فأحيا** لا أنا بل المسيح يحيا في» (غلا ٢:٢٠). وكل هذا هو التحقيق السري الذي نطقه رب المجد كاشفا خلاصه بالنسبة لأشخاصنا «وأنا إن ارتفعت عن الأرض **أجذب إلي** الجميع.» (يو ١٢:٣٢)

فالإنسان صار له أن يشارك المسيح في أفعاله الخلاصية (الصليب والقيامة والصعود) مشاركة حية، فيسري فيه فعل هذا الخلاص.

معنى الإيمان بالنسبة لخلاصنا:

الإيمان في العهد الجديد هو الواسطة التي بها تصير أفعال المسيح الخلاصية، أي الفداء، حاضرا فعالا لي أنا اليوم. بهذا الإيمان فإن كل هذا التاريخ المقدس يهمني أنا شخصيا، كفرد وكخاطئ متبرر بدم المسيح. إحساسي بالخطية لا ينبغي أن يكون إحساسا عاما مبهما يخص البشرية ككل فقط، لكنه بالنسبة لي حقيقي، فكلما تذكرت خطيتي وذنبي أنا كلما أحسست بحاجتي إلى الفداء، وكلما اقتربت مني حقيقة الفداء.

ومن هنا ومن تذكري بخطيتي يمكنني أن أجد مكاني في الكتاب المقدس باعتباره تاريخ الخلاص، الذي فيه قصة خلاصي أنا.

هذا هو الإيمان الذي به أتيقن بأن كل ما حدث في "الماضي" إنما حدث لي أنا شخصيا ومن أجلي أنا الذي أعيش على بعد ألفي عام مما فعله المسيح من أجلي. فالإيمان في العهد الجديد هو تصديق أخبار الإنجيل بيقين حي يشمل

حاضري، وكل كياني.

الإيمان والاختيار:

هذا الإيمان يتضمن أيضا يقيني بأني مختار في المسيح منذ قبل تأسيس العالم (أف ١:٤). كل عضو في الكنيسة هو مختار منذ قبل تأسيس العالم في المسيح. هذا اليقين بأني مختار يعني إيماني بشركة الفداء، فأنا داخل ضمن تدبير الله للخلاص العام.

سر امتداد الماضي إلى حاضري:

ولكن كل هذا يصير بلا فاعلية لو اقتصر على النظرية الفكرية التأملية، لابد من ممارسة هذا الإيمان بالسر. فالخلاص كما قلنا ليس فكرة ولا موضوع تأمل لكنه فعل، سر مستعلن. والرب يقدم لنا الواسطة لذلك:

فبالمعمودية يصير الموت والقيامة مع المسيح حياة جديدة شخصية للفرد تسري في كيانه الجسدي والنفسي والروحي بالروح، وهكذا ينال الفرد هبة المشاركة في أعمال المسيح الخلاصية التي تمت في الماضي. هذه المشاركة تتم وتصل إلينا اليوم بالروح القدس الذي يأخذ مما للمسيح ويعطينا.

النعمة وسر المعمودية:

سر المعمودية هو هبة إلهية لا تتوقف على قدرات الإنسان الطبيعية ولا على قداسته الشخصية أو تأملاته وأفكاره واعتقاداته. **فمهما عمل أو بلغ الإنسان، لا يقدر أن ينقل ماضي الخلاص ليصير حاضرا فعالا في كيانه الحاضر.** أي أنه لا يقدر أن يصلب مع المسيح أو يموت ويدفن معه أو يقوم معه أو يصعد إلى السماء معه أو يصير شريكا معه في المجد والميراث بمجرد التأمل مثلا. الإنسان سيظل عاجزا أن يخلص نفسه، ولكن ما عجز الإنسان عن

صنعه، صنعه الله بالسرّ لنا في نفسه – في شخص يسوع المسيح – ليهبه لنا كعطية. هذه هي النعمة – الشركة في الحياة الإلهية – التي بها تبدأ الخليقة الجديدة فينا، بالمعمودية.

وهكذا تظل لحظة المعمودية في تاريخ حياة المؤمن، ينبوعاً لهبات الله المعطاة له رغماً عن عجزه البشري وقصور فهمه البشري، متجاوزة هذا وذاك «هو أحبنا أولاً» (١ يو ٤: ١٩)، لتحقيق قوة خلاص المسيح بالصليب الذي أكمله الرب عنّا مرة واحدة وإلى الأبد.

المعمودية تحقق لكل فرد على مدى الأجيال كلها مشاركة حية في ذبيحة الصليب التي تمت مرة واحدة في زمن محدد من التاريخ، لكنها لا تحتاج إلى تكرار، والتي بها ينال عطية الشركة في الحياة الأبدية، أي هبة القيامة مع المسيح، كخليقة جديدة، ليبدأ حياته ابناً لله بالنعمة في المسيح.

إذا، فأحداث الخلاص الماضية، لا يكفي أن نختزنها في الذهن كتاريخ أو كأخبار حدثت في الماضي؛ وحتى ولو داومنا التفكير فيها، فستظل بالنسبة لنا ماضيا انتهى ولن يعود، بل **الروح القدس** هو الذي يقدر أن يجعل ماضي الخلاص حاضرا فعالا في الكيان الشخصي بسر المعمودية، كقوة مذخرة في حياة الإنسان الجديدة، لا تضيع أبدا، لتجديد حياة الإنسان على الأرض وفي الأبدية:

+ «من آمن واعتمد خلص.» (مر ١٦: ١٦)

+ «إننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدفنا معه بالمعمودية للموت. حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة.

لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضا (متحدين)

بقيامته.

عالمين هذا أن إنساننا العتيق (إنسان الخطية المستحق المـوت) قد صلب معه ليبطل (يكف عن تأثيره - يتحرر مـن طغيـان) جسد الخطية، كي لا نعود نستعبد أيضا للخطية.

لأن الذي مات قد تبرأ من الخطية.

فإن كنا قد متـنا مع المسيح، نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.»

(رو ٦:٣-٨)

هذا هو سر تحويل الماضي من تاريخ الفداء إلى خـلاص حـاضر دائـم بالنسبة للفرد. فالمرء يشارك فيه سريا، فيصير هذا الفداء حيا متجددا وفعالا لـه وفيه.

الخلاص وتحقيقه في حياتي اليوم:

المؤمن اليوم يعيش حاضر تاريخ الفداء. هذا الحاضر ذو جانبين متلازمين:

١.**جانب غير منظور** هو ما تحقق فعلا بقيامة المسيح وصعوده، وهو بفعل ربوبية المسيح وسيادته المطلقة. هذا الجانب يعيشه المؤمنـون بالسـر داخـل الكنيسة في اجتماعهم حول سر الإفخارستيا، والذي يتكلل بحضور "عمـانوئيل" بمجده ومجد أبيه والروح القدس وسط شعبه كإله وملك، والذي يمتد بخضوعـهم كلهم له من كل القلب والفكر والعمل في الحياة بأكملها.

٢.**الجانب المنظور** فهو الكنيسة في شكلها الزمني التاريخي، فيها يشـترك المؤمنون وينتمون إليها بالرغم مما قد يبدو لعيني الجسد أحيانا من وجود تضاد بين ضعفات وأخطاء المؤمنين مع ربوبية المسيح. وعلى الأخص إبان المحـن والاضطهادات والهرطقات ووجود الضعف البشري في أعضائها فـي الحيـاة

اليومية.

لكن هذين الجانبين يصيران متلازمَيْن متكاملَيْن في التاريخ والكنيسة بمقتضى آية التجسد: «والكلمة صار جسداً... ورأينا مجده» (يو ١:١٤)، حيث يتجلّى مجد الكلمة من خلال ضعف الجسد. وهذه الرؤية للكنيسة التي تبدو كأنها مزدوجة أمام أعيننا، لكن بسبب **اتحاد** البشري بضعفه مع الإلهي بقداسته، تنجلي لتصير رؤية لجسد المسيح الطاهر بالإيمان، وذلك من خلال اجتماع المؤمنين معاً بالتوبة حول حضرة الرب الذي يهب ذاته لهم بالتناول، حيث يَستَعلِن الكنيسة الطاهرة المقدسة التي بلا عيب، أي جسد المسيح الطاهر، كعربون مُسبق لحياة الدهر الآتي وللكنيسة الكاملة إلى الأبد. «رأيتُ المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيَّأة كعروس مزيَّنة لرجلها. وسمعتُ صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: **هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم، وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى مضت.»** (رؤ ٢١:٢-٤)

زمان الكنيسة:

في هذا الزمان الحاضر تظهر **أهمية** سرّ **المعمودية** وفعاليته المزدوجة في حياة الفرد:

١. **فالمعمودية** توصّل أولاً للمؤمن قوة وموهبة غفران خطاياه، ثم تأتي التوبة التي هي تجديد لفعل المعمودية كقوة دائمة لمغفرة الخطايا: "نؤمن بمعمودية **واحدة** لمغفرة الخطايا." (قانون الإيمان)

٢. وهي إذ تلدنا من الكنيسة وفي الكنيسة، **توصّل لنا الروح القدس** أي العطية التي تحقق الخلاص في كيان الإنسان الآن، وفي الوقت نفسه تحقق له

نصيبه في المصير الأبدي في الدهر الآتي.

الكنيسة والروح القدس والمواهب الفردية:

الكنيسة هي مجال عمل الروح القدس وفعاليته. والمواهب الروحية التي انسكبت على المؤمنين أفراداً من خلال عضويتهم في الكنيسة جسد المسيح بموجب سر الميرون، محددة لخدمة وبنيان الكنيسة كجسد واحد. فالرسول بولس في نفس اللحظة التي يشير فيها إلى **«بروح واحد أيضا اعتمدنا إلى جسد واحد»** (١ كو ١٢:١٣)، يعدِّد مواهب الروح القدس الفردية المختلفة (١ كو إصحاح ١٢ كله) في نطاق "الجسد الواحد" مُفاضَة من خلال وحدة المؤمنين الإفخارستية. **فالحديث عن المواهب يسبقه الحديث عن اجتماع المؤمنين حول سر الإفخارستيا في الكنيسة** (راجع ١ كو ١١و١٢).

هذه المواهب هي عمل الروح القدس الذي يُحيي الكنيسة ويحقق وحدتها، فالحياة الممتلئة بالروح القدس تخدم تاريخ الفداء المعتبَر أنه هو زمان الكنيسة، أي جسد المسيح الممتد والمستعلَن في الزمان والمكان وفي الأعضاء.

لذلك فكل خدمة بالروح في الكنيسة وكل موهبة بالروح إنما تُضاف إلى تاريخ الفداء وتشارك في تكميله عَبْر الزمن. وكل ممارسة صحيحة واختبار صادق للخلاص في الكنيسة بالروح القدس هو يعمل سرًا في بنيان جسد المسيح وتكميله وسط العالم: «إيمانكم يُنادى به في كل العالم» (رو ١:٨)، **«غيرتكم قد حرَّضت الأكثرين.»** (٢ كو ٢:٩)

مكانة الجهاد في تدبير الخلاص

حياة المؤمن المعمد في يومه الحاضر ووسط معترك أحداث هذا الدهر، هي مجال الشهادة لربوبية المسيح من خلال ضعف الجسد. وهذا ما يسمى بالحياة المسيحية للمؤمن. والحياة المسيحية التي عاشها المؤمنون في الكنيسة الأولى لا يمكن فهمها بدون فهم لاهوتي صحيح للخلاص كما اختبره الآباء القديسون(١).

ونحن نجد دائما عند الآباء وفي حياة الكنيسة الأولى وفي حياة القديسين ارتباطا عضويا بين ما نلناه في المعمودية بصليب المسيح وقيامته، وبين ما نحن مطالبون بفعله. هذا الارتباط هام جدا في وعي وإيمان المؤمن.

فما "تحقق" بالسر المقدس فينا، "يجب" ممارسته وإعلانه بالفعل بواسطتنا.

فكل ثمار الأعمال الخلاصية التي ذكرت أنها حدثت فينا مجانا وبالنعمة، **كخبر وبالسر**؛ صرنا مطالبين بفعلها وممارستها كل يوم، **كأمر**.

أمثلة:

• فنحن "**قديسون**" في المسيح (هذا خبر أي حقيقة حدثت فينا بالسر بمقتضى شركتنا في الروح القدس بسري المعمودية والمسحة كما يصرح

---

(١) غياب هذا الفهم اللاهوتي الآبائي للخلاص إما يؤدي إلى رفض البعض للحياة النسكية في الكنيسة الأرثوذكسية مما يحجب عنهم نعما وطاقات روحية كثيرة تسندهم في طريق تتميم خلاصهم، وإما إذا كان الغياب لدى الأرثوذكسي فسيجعله يمارس ممارسة خاطئة غير مثمرة الحياة النسكية من صوم وصلاة وسجود ومطانيات وإماتة للمشيئة الذاتية وللأهواء والشهوات، وفي هذه الحالة إما سيكون جهدا ذاتيا بحتا قاصرا، وبالتالي لن يكون له دور في تتميم خلاصه؛ وإما سيؤدي به إلى قنوط ويأس وعدم قدرة على المثابرة في طريق الخلاص.

القديس بولس: «لكن اغتسلتم بل **تقدَّستم** بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» ١ كو ٦: ١١). ولكن هذا "الخبر" يقابله "أمر" واضح: **«كونوا أنتم أيضاً قديسين»** (١بط ١: ١٥).

• لقد "**تلنا الروح**" (غل ٣: ١٤)؛ ولكن هذا يقابله أمر **«امتلئوا بالروح»** (أف ٥: ١٨)، **«اسلكوا بالروح.»** (غل ٥: ١٦)

• لقد "**افتُديتم** من الخطية بدم المسيح" (كو ١: ١٤)، ولكن هذا يستلزم أن "**تقاوم** الخطية حتى الدم." (عب ١٢: ٤)

• «**مُتُّم** مع المسيح» (كو ٢: ٢٠)، يقابله الوصية: **«أميتوا** أعضاءكم التي على الأرض.» (كو ٣: ٥)

وغير ذلك مما يمكن لقارئ الكتاب المقدس النشيط أن يستخرجه بنفسه.

وهكذا نرى أن ما انطبع وانسكب في أشخاصنا وفي طبيعتنا سرًّا من خلاص المسيح وعمله الفدائي والتجديدي (بالأسرار)، يحدد ويستلزم مطلباً هاماً هو الجهاد الشخصي من أجل تحقيق هذا العمل بالفعل والإرادة على الدوام في الحاضر.

هنا دَفعٌ وجَذبٌ، أي: أنَّ ما كمل فينا بالأسرار يدفعنا، وما لم يكتمل فينا بعد يجذبنا. ومشيئة الله التي هي أن نخلص (وهذه المشيئة كملت ببذله ابنه من أجلنا)، لابد أن يقابلها مشيئة الإنسان بقبول الخلاص (بالإيمان والطاعة للمسيح)، حتى تكتمل مقاصد الله في تدبير الخلاص. لأننا إذا فهمنا الخلاص في غايته النهائية على أنه استرجاع وشفاء الإنسان كمخلوق على صورة الله ومثاله، يكون تلاقي مشيئة الإنسان مع مشيئة الله هو الخطوة الحاسمة في بلوغ هذا الخلاص غايته وهدفه. **فالله مرتبط بالحب مع الإنسان في حرية إرادته.**

المؤمن الفرد يعلم أنه مسافر على طريق الخلاص الذي ابتدأ بقيامة المسيح، وسيبلغ هذا الطريق مشارف نهايته في الأبدية بمجيء المسيح الثاني واستعلانه

في مجده. فجهادنا منحصر الآن بين ما "قد أُكمل" الذي لم يتطلب منا عملاً، وبين ما هو مطلوب تكميله الذي يتطلب منا العمل وتنفيذ الأمر.

العلاقة بين الإيمان والرجاء في الخلاص:

إن سلوك المسيحي في حاضر الخلاص ينبغي أن يتحدد على أساس **إيمانه** بما قد أُكمل، وعلى **رجائه** في ما سيكتمل، وبقوة دفع هذا الإيمان، وبقوة جذب هذا الرجاء، يجاهد ويسعى ليجعل دعوته واختياره ثابتَيْن.

بهذا يصير الزمان عند المسيحي "مُفْتَدَى" أي سيؤول به إلى أبدية لا تنتهي.

«توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٣:٢). فلأن المسيح قد صار ملكاً وربًّا، فلابد أن نتوب دائماً لنحفظ بُنوّتنا وخضوعنا لسيادة المسيح المطلقة على نفوسنا، أي لنحفظ مواطنيتنا في ملكوت الله منذ الآن. **فملكوت الله ليس مؤجَّلاً إلى الدهر الآتي، بل منذ الآن نحن مدعوون أن نعيشه ونذوقه بالإيمان وننتظره بالرجاء "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي** آمين." (قانون الإيمان)

الوصية والخلاص:

وصايا العهد الجديد، هي ذات "**الوصية القديمة**" التي هي جديدة دائماً أي المحبة (١ يو ٢:٧، يو ١٣:٣٤). أي أن المسيح لم يعطِ وصايا تنقض وصايا العهد القديم بل تكمّلها، فكل الوصايا القديمة هي المطلوب تتميمها ولكن على أساس "**الخبر**"، أي بالقوة التي حدثت فينا بالسرّ، بمقتضى خلاص المسيح.

الوصية القديمة في العهد القديم يجب أن تؤخذ مأخذاً جديًّا: «فمَنْ نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت

السموات» (مت ٥:١٩). لكن المسيح تكلّم عن **"كمال الناموس"، وهو يقصد** أن لا يقتصر تنفيذ الوصية على حدّها الحرفي بل يمتد **إلى أبعد من ذلك** بمقتضى مضمونها الجوهري الذي تحمله وهو "المحبة"، "فالمحبة هي ملء (تكميل - امتداد) الناموس." (رو ١٣:١٠)

والوصية في العهد الجديد هي تطبيق دقيق لوصية العهد القديم في النور وبالقوة المستمدَّين من خلاص المسيح الواصل إلينا والمنسكب فينا بالروح القدس لحظة المعمودية. والإصحاح السادس من رسالة رومية يُظهر بطريقة واضحة جداً كيف أن **"صيغة الأمر"** بتنفيذ الوصية (الحث على الجهاد والنسك: «احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا. إذاً لا تَملِكَنَّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته. ولا تقدّموا أعضاءكم آلات إثم للخطية بل قدّموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات وأعضاءكم آلات برٍّ لله...» رو ٦:١١-١٤)، تنبع في تعليم بولس الرسول من **"صيغة الخبر"**، أي مما نلناه بالمعمودية (قوة صليب وموت المسيح وقيامته - رو ٦:٣-٩). **فالروح القدس يهب السلوك بالروح**: «لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨:١٣)، ومنه يتضح دور الروح القدس الذي لا يمكن التغاضي عنه أو التقليل من أهميته في عملية تتميم خلاصنا.

وهكذا نجد أن **الإيمان يلد الرجاء، والمحبة هي الرباط** الذي يصل بين الاثنين، بجهاد قانوني من أجل تنفيذ الوصية، مسنوداً بالنعمة النابعة من الإيمان وبالصبر الذي يشع من انتظار الرجاء.

الفصل السادس

تاريخ الخلاص والعبادة الليتورجية

إن رسالة الكنيسة اليوم – كما في كل عصر – ينبغي أن تركِّز على البشارة بملكوت الله وبربوبية الله في الكنيسة وذلك بخضوع المؤمنين له وتسليمهم حياتهم لربوبية الله المطلقة على حياتهم (رو ٦: ٢٢)، والكشف عن تدبيره الخلاصي في علاقته بأحداث العصر. وذلك بتقديم تاريخ الخلاص بالكرازة الشفوية، هذا بالإضافة إلى ذلك الحَدَث المعين الذي يحقق، بالفعل، أفعال المسيح الخلاصية والرجاء في الدهر الآتي، والذي يأخذ مجراه داخل الكنيسة، هذا الحدث هو: العبادة بالليتورجيا. هنا في هذه العبادة، وبطريقة مباشرة، تصير الحقبة الأولى من تاريخ الخلاص ومستقبله حاضرين معا، وليس من وسيلة لإظهار الدور الرئيسي لتاريخ الخلاص بأكثر وضوح من هذه الحقيقة الباهرة أن كل العبادة في الكنيسة المسيحية توجه نحو إبراز تاريخ الخلاص (ما تم وما هو عتيد تكميله في الدهر الآتي).

وهنا يظهر الترابط بين الخلاص كعقيدة وبين الخلاص كحياة. فأعياد تجسد المسيح بأحداثه: الميلاد والآلام والقيامة والخمسين، إن لم تسمح لنا باستمرار أن نختبر مجددا وفي الوقت الحاضر مراحل تدبير الخلاص التي حدثت في الماضي، فماذا تعني الأعياد الكنسية إذا؟ والأحداث الخلاصية التي تمت بالمسيح ينبغي أن نأخذها لا منفصلة، أي باعتبارها نقطا منفصلة في التاريخ فقط، **ولكن بارتباطها بتدبير الخلاص كله**، وهذا هو عين ما يحدث في الليتورجية، بل هو لا يحدث في سواها. فالعبادة الليتورجية في الكنيسة

المسيحية تجعل الحدث الذي تم مرة واحدة في لحظة من التاريخ، تجعله حاضرا وبنفس قوته كل عام على مدى الأجيال، وذلك بفعل الروح القدس.

وقد يظن واحد أننا نهتم بتاريخ الخلاص فقط لمعرفة أو تذكر أحداث الماضي، **وهذا ليس كل الحقيقة**. فإذا تأملنا في **سفر المزامير**، نجد أنه يحول أحداث الماضي إلى شكر وتسبيح على الأعمال الخلاصية العظيمة **التي تمت** مع شعب الله. وهنا يتضح بأجلى وضوح أن تاريخ الخلاص **هو أكثر بكثير** من مجرد كونه سردا تاريخيا أو تحفيظا لمفاهيم لاهوتية. **إنه ممارسة ليتورجية** مستمرة، أي **تسبيح جماعي** دائم على خلاص الله الذي حدث لشعبه، **وتوقع لا يمل** لتكميل هذا الخلاص. فالعبادة الليتورجية هي **شكر على ما كمل في** الماضي، **وتوقع لما سيكمل** في الدهر الآتي. وهكذا يصير الخلاص بمثابة **حقيقة حاضرة مستمرة**. إن شعور المؤمن بالتوقع والانتظار لما لم يتحقق الآن بعد، لا يشبعه إلا المسيح المنظور بالإيمان في الأسرار، وذلك في احتفال العبادة المسيحية (أي القداس الإلهي)، فإن المسيح في سر الإفخارستيا حاضر باعتباره الرب المصلوب، والقائم من بين الأموات، وأيضا المسيا الذي سيأتي بمجده ومجد أبيه ليجمع مختاريه.

تأمل في صلاة الكاهن: "لأنه فيما نحن أيضا نصنع ذكرى آلامه المقدسة، وقيامته من الأموات، وصعوده إلى السموات، وجلوسه عن يمينك أيها الآب، **وظهوره الثاني الآتي من السموات المخوف** المملوء مجدا. نقرب لك قرابينك...". قارن بين كلمة "نصنع ذكرى"، وكلمة "ظهوره الثاني الآتي"(١).

وهنا نريد أن نفرق بين جعل الماضي حاضرا وبين **تكرار** الماضي. فأعمال

---

(١) الذكرى في الحياة العادية، هي تذكر الماضي فقط. أما في تدبير الخلاص، فهي تذكر الماضي وإحضاره مجددا في الحاضر، وتذكر – أو بالأحرى – للرجاء والانتظار والتوقع لما سيحدث يقينا في الدهر الآتي.

المسيح الخلاصية التي تتسم بكونها تمت "مرة واحدة" فقط (الميلاد، العماد، الآلام، الموت، القيامة، الصعود، وإرسال الروح القدس)، لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف في فعلها. لذلك فإن فهم بعض اللاهوتيين القدماء غير الأرثوذكس للإفخارستيا أنها تكرار لذبيحة الصليب في كل مرة تحتفل فيها الكنيسة بسر الإفخارستيا، هو فهم يخالف ما تؤمن به الكنيسة الأرثوذكسية من أن الذبيحة تمت مرة واحدة، ولكنها مقدمة ومرفوعة في السماء أمام عرش الآب دائما ومن أجل الكل، ونحن حينما نحتفل بسر الإفخارستيا، فإنما نعترف بكون هذه الذبيحة حدثا واقعا حاضرا أمامنا الآن.

إن كل مظاهر العبادة التي نقرأ عنها في الكتاب المقدس تجعل الماضي والمستقبل حاضرين. ولكن بسبب أن تاريخ الخلاص في العهد الجديد يتسم أساسا بذلك "التوتر" بين ما قد حدث وما سيحدث، أي بين تتميم الماضي وتوقع التكميل التام في الدهر الآتي، فإن الصلة بين تاريخ الخلاص وبين تحقيقه، هي صلة كاملة تتم في ليتورجية الكنيسة المسيحية. فإن تتميم الماضي وتوقع التكميل النهائي يختبران في العبادة المسيحية كحقائق حاضرة.

إن هذا "التراوح" بين "الآن" و "ليس الآن" الذي نوهنا عنه إنما يتلاشى في شخص المسيح، لكنه بالنسبة لنا ـ نحن الذين ما زلنا نعيش في الجسد وتحت سلطان الزمان ـ ما زال مستمرا. أما هدوء هذا التراوح فهو يتحقق في المسيح، ونحن نعيشه في العبادة المسيحية. ففي العبادة الليتورجية، يكون المسيح حاضرا، باعتباره في نفس الوقت: المسيح المصلوب، وأيضا القائم من بين الأموات، وأيضا المسيا الذي سيأتي. ولأن حضور المسيح يصير حقيقة في وليمة الشركة، فالعبادة المسيحية لا يمكن أن نتصورها بدون كسر الخبز.

فما اختبره التلاميذ أثناء حياة المسيح على الأرض، سواء في العشاء الأخير يوم خميس العهد الذي أقامه ابن الله المتجسد، أو في الولائم الفصحية التي كان

يقيمها الرب القائم من بين الأموات خلال الأربعين يوما بعد القيامة، أو الوليمة الماسيانية التي سيقيمها المسيح الآتي في مجيئه الثاني (والتي نوه عنها لتلاميذه في لو ٢٢:١٦، مر ١٤:٢٥، مت ٢٦:٢٩)؛ كل هذا **يصير حاضرا عندنا اليوم في لحظة رائعة واحدة**، هي لحظة احتفالنا اليوم وبعد عشرين قرنا بسر الإفخارستيا. وهكذا فإن المراحل الحاسمة في تاريخ الخلاص كلها **لم تعد ماضيا وانتهى، بل هي تصير، بالعبادة الليتورجية التي تتوج بسر الإفخارستيا، حاضرة حضورا واقعيا بالإيمان**، حاملة معها قوة حضور المسيح الذي أتى، وأيضا الرجاء في مجيئه الثاني بوليمته في الملكوت الآتي.

صلاة ماران آثا " تعال يا رب ":

الكلمة الآرامية: "**مارانا آثا**"، هي أقدم الصلوات الليتورجية، وتعني: "تعال أيها الرب"، وهي نفس الكلمة اليونانية التي سجلت في آخر سفر الرؤيا (٢٢:٢٠). فالكلمة هي فعل رجاء، أي هي صلاة، وليست كما وردت في الترجمة التي بين أيدينا بصيغة الفعل المضارع: "الرب آت". فالنداء كتب ونودي به أصلا باللغة الآرامية، وسجل بنطقه الآرامي في نهاية رسالة كورنثوس الأولى (١٦:٢٢). وفي كتاب "الديداخيه"، نجد أن هذه الصلاة كانت تقال على الأخص في نهاية وليمة الأغابي المرتبطة بليتورجية الإفخارستيا (١٠:٦). واحتفاظ القديس بولس الرسول بهذه الكلمة الآرامية بنفس لغتها غير مترجمة وحتى وقت تأليف كتاب الديداخيه، يظهر الدور المهم وغير العادي الذي كانت تؤديه هذه الصلاة في أوساط الكنيسة المسيحية الأولى.

وقد سلمت لنا الديداخيه صلوات إفخارستية أخرى لها شبيه بما في اليهودية. ولكن في صلاة "ماران آثا"، نحن نتواجه مع العنصر المسيحي الخاص في الصلاة الليتورجية المبكرة، وهذا العنصر يرتبط تماما مع حقيقة أخرى، وهي أن يوم العبادة المسيحية (وهو يوم الأحد) هو نفس يوم قيامة

المسيح. ففي هذا اليوم ظهر المسيح مع تلاميذه في وقت الأكل (راجع إنجيل يوحنا إصحاح ٢١؛ لو٢٤: ٣٦-٤٣)، ولذلك فالمسيح الآن (أي يوم الأحد) لابد أن يظهر ثانية في احتفال الوليمة المسيحي من حيث أنه بحسب وعد المسيح: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت ١٨: ٢٠). هذا الحضور بالروح القدس وسط الجماعة، هو عربون لمجيئه المنتظر في النهاية. هذه الصلاة القديمة تشير إذا في نفس الوقت إلى **الماضي**، أي إلى ظهور المسيح في يوم قيامته، وأيضا بظهوره في **الحاضر** في الأكلة المشتركة (التناول من الجسد والدم الأقدسين) للجماعة المؤمنة بالمسيح اليوم؛ وأيضا تشير إلى **المستقبل**، أي إلى الدهر الآتي الذي كثيرا ما يشار إليه بصورة وليمة المسيا في ملكوت الله.

وفي سفر الرؤيا الذي يسرد خدمة العبادة الحاضرة واكتمالها في أحداث الأيام الأخيرة، يقول المسيح: «ها أنا ذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه **وأتعشى معه وهو معي**» (رؤ ٣: ٢٠). هذا هو **الجواب الإلهي** على الصلاة الإفخارستية: **ماران آثا**! فالصلاة تكون قد استجيبت فعلا في احتفالات الجماعة بالعشاء الرباني باتحاد المؤمنين بالمسيح في سر الإفخارستيا.

إن التأكيد على حضور المسيح القائم من بين الأموات في هذه الاجتماعات الإفخارستية، يكمن في حقيقة أن المسيحيين الأوائل اختاروا يوم قيامة المسيح ليكون هو يوم العبادة، يوم ظهور المسيح لتلاميذه يوم قيامته وأكله معهم (لو٢٤: ٤٣)؛ وهذا يتفق أيضا مع المعنى الرئيسي العام لصلاة "ماران آثا".

رسالة شركة الجسد الواحد وعلاقتها بسر الإفخارستيا:

في رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ١٠: عدد ١٦، يتكلم بولس الرسول عن الاتحاد الإفخارستي بالجسد الروحي القائم من بين الأموات للمسيح الذي هو

الكنيسة: «الخبز الذي نكسره، أليس هو شركة جسد المسيح. فنحن الكثيرين الذين نأكل **خبزة واحدة** نصير **جسدا واحدا**» (ترجمة دقيقة).

إن فكرة **الشركة** نشأت من خلال حضور المسيح، وهي تتأكد في تلك الصلاة القديمة الجميلة والتي تتبع نماذج الصلوات من العهد القديم، والتي تقول: "كما أن هذا الخبز المكسور كان منتثرا على الجبال، ولكنه تجمع وصار واحدا، هكذا فلتجتمع كنيستك معا من أقاصي الأرض إلى ملكوتك." (الديداخيه ٩:٤)

بعض الطقوس الكنسية ومعناها الأصلي على ضوء حضور الرب في سر الإفخارستيا:

إن كل **الترتيبات الطقسية** لليتورجية (القبلة المقدسة، التوبة والاعتراف بالخطايا، المصالحة مع الغير – راجع: رو ١٦:١٦، ١ تس ٢٦:٥، ٢ كو ١٢:١٣، ١ بط ١٤:٥)، تنبع بالتأكيد من ليتورجية الإفخارستيا للجماعة الأولى وتشير إلى أنه قبل الوليمة كان لابد أن تكون هناك أخوة كاملة بين المؤمنين، حتى يمكن أن الرب، الذي أقيمت كل هذه الصلوات من أجل حضوره، **أن يحضر حقيقة وسط شعبه وهم في وحدة ومصالحة معا**. إننا نستطيع أن نرى أن كل الاحتفال موجه نحو هذه النهاية التي فيها يأتي المسيح بالروح إلى خاصته: "مبارك الآتي باسم الرب"... "هوذا عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن".

التكلم بالألسنة ربما يكون تفسيره أنه كان ناشئا عن الانفعال الذي يرتفع في النفس باختبار الرؤية الروحية لمجيء وحضور المسيح على المذبح في العبادة الليتورجية التي تختتم بوليمة الشركة بتحقيق نداء "ماران آثا".

الاعتراف بأن المسيح رب (كما يرد في رو ١٠:١٠، في ١١:٢)، ويدور

حول المسيح ويؤكد استعلان ربوبية المسيح، وبأن المسيح الرب القائم يقف في الوسط "عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن".

كلمات البركة: "محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، وشركة وموهبة الروح القدس فلتكن مع جميعكم"، و"سلام الرب مع جميعكم"، و"السلام لجميعكم". ثم توقف الكاهن عن إعطاء البركة بيديه والالتفات إلى الشعب مفسحا المكان ما بين الذبيحة **التي على المذبح التي تقدست وتحولت** وبين الشعب الواقف في صحن الكنيسة، لتكون البركة بدون وسيط دليلا على إعلان حضور المسيح.

هدف العبادة هو بنيان جسد المسيح (١ كو ١٤)، وهو يتم في الاجتماع. وكل العوامل الأخرى (خدمة الكلمة، القراءة من الأسفار، التسبيح... الخ)، تخضع لهذا الغرض الذي يصل إلى قمته بحضور المسيح. لذلك فالعشاء الرباني هو أساس وهدف كل تجمع، أي حضور الرب وسط شعبه حاملا معه بركات الخلاص وموزعا المواهب على المؤمنين.

المسيح الحاضر وسط الكنيسة، يبني جسده المقدس:

تبني الكنيسة بالتئامها معا، ولأن الكنيسة التي تبنى هكذا هي امتداد الجسد الروحي للمسيح القائم من بين الأموات نفسه، فيمكننا أيضا القول أن المسيح يستعلن في اجتماع (التئام) الكنيسة: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم المسيح، فهناك يكون المسيح في وسطهم".

هذا الهدف ينقي الخدمة المسيحية للعبادة من مجرد الاكتفاء الذاتي بأداء شعائر وطقوس، ومن المحاولات البشرية المتمركزة حول الذات. ولكن في المسيحية الأرثوذكسية، فإن الجماعة الملتئمة تصير هي اللسان المعبر - أو الأداة - الذي يستخدمه المسيح ليظهر جسده أنه الكنيسة. **فهذا التجمع هو عطية**

الله للناس وللعالم.

هناك سمتان تحددان الغرض من كل التجمعات المسيحية للعبادة:

١. **العشاء الرباني** هو النهاية والغاية الطبيعية التي تتحرك العبادة نحوها، والتي بدونها لا يمكن تصور عبادة مسيحية، لأن المسيح هنا يوحد نفسه مع جماعته كمصلوب وقائم من الأموات ويجعلها واحدا مع نفسه، وهو يبنيها جسدا له (١ كو ١٠:١٧). لذلك فكل الأقسام الأخرى للعبادة هدفها حضور رب الكنيسة القائم من بين الأموات. لذلك فيوم قيامة ربنا هو يوم **الاحتفال المسيحي**.

لذلك أيضا:

- **فكل كرازة يجب أن** توجه نحو إيقاظ الإيمان في الرب وتقويته، وأن تكون على أساس موته وقيامته.
- **وكل قراءة** في الأسفار هي تشير إلى الرب.
- **اعتراف الإيمان** هو اعتراف بالرب الحاضر "كيريوس κύριος".
- **الاعتراف بالخطايا** يكون هدفه نوال المصالحة التي تمت بواسطة الرب.
- **الصلاة** هي قبل كل شيء من أجل حضور الرب ليرى وينظر الآن لنا بالإيمان، وحضوره في الدهر الآتي بالعيان «وستنظره كل عين» وليس فقط عين الإيمان. فحضوره في الجماعة المجتمعة هو سبق لحضوره في مجده في اليوم الأخير.

٢. **أما السمة الثانية للعبادة المسيحية الرئيسية للخدمة**، فهي تظهر لنا في حقيقة ذات وجهين:

الأولى: أن رب الكنيسة القائم من بين الأموات هو **رب الكنيسة الحاضر** الآن والذي يقف في وسط هذا التجمع المسيحي؛

بينما **الوجه الثاني: هو** أنها تشير إلى ما قبل الحاضر، أي **تعيـــد حضـــور الرب، يسوع التاريخ، المصلوب والقائم من بين الأموات،** وفي نفس الوقت **إلى الأمام أي إلى المستقبل،** نحو المسيح الذي سيأتي بمجده في الدهر الآتي.

وما يجعل الخدمة عمل عبادة حقيقي: **هو الروح القدس.** وهذه هي الســـمة المميزة للروح القدس في العهد الجديد **أنه هو الـــذي يجعـل الحـــاضر محـــلا وموضعا لعمل الله الخلاصي،** ولكن على أساس ما قد تم وكمل في المسيح فـــي الماضي، ومستبقا ما نترجى ونتوقع حدوثه في الدهر الآتي.

خـــاتمــــة:

هنا يكمن السبب في أهمية إعطاء الفرصة أيضا للعمل الفردي الحر للـــروح القدس داخل نفوس المؤمنين. فالعبادة المسيحية الأولى هي **عبادة بالروح** (يـــو ٢٣:٤). فبواسطة الروح تـــنبني الجماعة لتصير جسد المسيح. فالمؤمن الحـــق الذي هو هيكل للروح القدس، يعتبر حجرا راسخا في بنيان العبادة الليتورجيـــة، والعبادة الليتورجية بدورها تشعل الروح القدس في المؤمن الحق وتضرم فيـــه المواهب للخدمة لبنيان الكنيسة.

فالفردية والجماعية لازمتان الواحدة للأخرى وتغذيان أحدهما الآخر.

القسم الثاني

الخلاص

في تقليد الكنيسة

الباب الأول

تدبير الخلاص

بحسب تعليم القديس أثناسيوس الرسولي

مقدمة

+ «الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء.» (ابط ١: ١٠)

هذا الخلاص كان وما زال هو موضوع كرازة الكنيسة على فم آبائها ومعلميها. وليس هناك هم آخر ينشغل به الآباء والمعلمون في الكنيسة سوى توصيل كلمة الله الحاملة لبشرى هذا الخلاص. وكل عقائد المسيحية تدور حول هذا الموضوع الواحد: "الخلاص". إن عقيدة لاهوت المسيح، مثلا، ليس التعليم بها لمجرد أنها عقيدة المسيحية الأساسية والأولى، بل لأنه بغير لاهوت المسيح ما كان يمكن أن يكون الخلاص الإلهي للإنسان. هكذا برهن آباء الكنيسة على لاهوت المسيح.

وآباء كنيسة الإسكندرية مثلهم في هذا مثل آباء كنيسة أنطاكية كلاهما دافع عن لاهوت المسيح، إنما كل بطريقته وبتقليده الخاص، ولكن على نفس الأساس الواحد. فإذا كان اهتمام كليهما هو خلاص الإنسان، فعلينا أن نسأل: كيف فهم الآباء هذا الخلاص؟ وماذا كانت طبيعة احتياج الإنسان لهذا الخلاص؟ وماذا فعل مجيء المسيح إلى العالم ليوفي هذا الاحتياج؟

الفصل الأول

كتاب "تجسد الكلمة"

مقدمة:

من الكتابات الشهيرة في عصر الآباء التي أجابت على الأسئلة السالفة، كتابات القديس أثناسيوس الرسولي بابا الإسكندرية العشرين في عداد بابوات الكنيسة القبطية، التي كتبها ليظهر أخطاء التعليم الأريوسي. ولكن القديس أثناسيوس في كتابه المسمى "تجسد الكلمة" يبين، في تعبيرات إيجابية، دواعي التجسد والطريقة التي بها حقق التدبير الإلهي الخلاص للإنسان. وهذا الكتاب ليس كبيرا، وهو لا يذكر فيه شيئا عن الصراع العقائدي الأريوسي؛ ذلك لأنه ربما يكون قد كتبه في شبابه المبكر، أي في تاريخ سابق على اندلاع تلك الحرب العقائدية التي استمرت أكثر من مائة عام، أي عام ٣١٨م؛ لذلك فهو يقدم في وضوح قصة خطيئة الإنسان وخلاص الله، بحسب تعليم كنيستنا القبطية. ونحن حينما نقدم ملخصا لهذه الرؤية الآبائية الصافية في موضوع الخلاص، فإننا نكون قد قدمنا مدخلا مناسبا لدراسة موضوع خلاص الله للإنسان كما ورد في تعليم الآباء القديسين.

عقيدة خلاص الله للإنسان

(كما شرحها القديس أثناسيوس الرسولي)

+ لقد خلق الله الإنسان من العدم على صورته ـ تعالى.

+ إن الإنسان ليس مخلوقا خالدا بالطبيعة، أي غير مائت. لكنه خلق لكي يمكن له فيما بعد أن ينمو إلى شركة غير مائتة مع الله، من خلال التأمل في الكلمة الإلهي.

+ لكن الناس بسقوطهم في الخطيئة سقطوا من مصيرهم الإلهي الذي قصده الله لهم. وكانت محصلة هذه الخطية ذات نتيجة مزدوجة:

١. **العمى الروحي:** فالإنسان فقد معرفة الله التي كانت متاحة له. حتى إن الخليقة صارت بالنسبة للإنسان وكأنها حجاب يحجب معرفة الله عن الإنسان مع أنها (أي الخليقة) خلقت لتستعلن الله للإنسان.

٢. **الفساد والموت:** فقد أعادت الخطية الإنسان إلى الموت (بموجب الحكم الذي سبق أن وضعه الله كأجرة للخطية) وإلى الفساد، أي إلى العدم الذي سبق أن أخرج الله الإنسان منه، في محبته له، وخلقه على صورته.

* * *

ولمقابلة ما نتج عن هذه الخطية تجسد كلمة الله. وإن تجسد الكلمة يستوفي احتياج الإنسان من سبل ثلاثة:

١. دخول الحياة الإلهية إلى العالم:

+ إن حقيقة التجسد في حد ذاتها تعني أن الحياة الإلهية قد دخلت إلى العالم.

+ فالكلمة كان هو الواسطة للخلقة الأولى، لكن الإنسان أثبت أنه ضعيف

جدا عن أن يبلغ ما أعده له الله من مصير مبارك. فبحقيقة التجسد استعاد الإنسان تلك الرابطة بين الإلهي والبشري بطريقة أكثر ثباتا وضمانا. فالكلمة لأنه هو الإله بالطبيعة، ولكونه اتحد بالإنسان في التجسد، أصبح ممكنا للإنسان أن يقتني هذه الحياة الإلهية دون أن يخشى فقدانها مرة أخرى.

٢. إعلان معرفة الله للبشر:

+ إن الكلمة بأخذه جسدا إنسانيا، أعلن للناس في عماهم صورة الله غير المنظور بطريقة يمكن للحواس البشرية أن تدركها مباشرة. فبحياة الكلمة بيننا، وكلامه إلينا، وأعماله معنا؛ استرجع لنا معرفتنا المفقودة عن الله.

+ ومن هنا تأتي أهمية خدمة المسيح التي أداها على الأرض. فالتجسد والموت والقيامة هي أعمال خلاصية حقا، لكن حياة المسيح وخدمته على الأرض كان لها دور هام في إيفاء احتياج الإنسان لمعرفة الله، وهو إعلان محبة الله الآب للبشر.

٣. استيفاء دين موت الإنسان:

+ وأخيرا، فإن موت المسيح كان هو استيفاء مطلب العدل الإلهي الذي كان لابد من أدائه. فالله لم يشأ أن خليقته الخاصة ترجع إلى الفساد فالموت. وفي الوقت نفسه كان لا يمكن أن يتغاضى الله عن القانون الذي وضعه هو بنفسه. لذلك فلكي يتحرر الإنسان من الفساد فإن وفاء **قانون الموت** كان لابد أن يتم. وهكذا استوفاه المسيح الذي، وهو في بشريته الشاملة، صار متاحا لكل الناس أن يموتوا من خلال موته هو على الصليب. لذلك، فإن كل الذين ماتوا بموته يصيرون أيضا قائمين أحياء بقيامته، متجاوزين الفساد الذي سقطوا فيه.

هذه هي الطرق الثلاثة التي بها استوفى التجسد احتياج الإنسان إلى

الخلاص.

وفي أحد الفصول الأخيرة من الكتاب (فصل ٥٤)، الذي يجمع فيه القديس أثناسيوس خيوط الموضوع الذي عرضه على مدى الكتاب، تتضح كل الأفكار السابقة معا في صيغة مركزة ومختصرة هكذا:

[لقد صار ابن الله إنسانا، لكي نصير نحن آلهة.

لقد استعلن نفسه بالجسد، لكي ننال نحن معرفة الآب غير المنظور.

لقد احتمل هو إهانة البشر له، لكي نرث نحن عدم الموت].

إن الخطية استشرت في جذور مشكلة الإنسان. والخطية أدت إلى عمى الإنسان الروحي، وإلى موته. هذه الثلاثة: **الجهل، الموت، الخطية**؛ مرتبطة معا بعضها بالبعض. وكل واحدة منها تعزز وتقوي الأخريين. وكل من الثلاثة هي مظهر أساسي من مظاهر قضية الإنسان، ولا يمكن بأي حال التغاضي عن بحث واحدة منها. وهكذا فعل الآباء إذ استوفوا الثلاثة الأوجه لقضية الإنسان.

■■■

الفصل الثاني

ملخص التعليم عن الخلاص

في المقالات الأربعة ضد الأريوسيين

والرسائل إلى القديس سيرابيون

- ١ -

في المقالات الأربعة ضد الأريوسيين

إن تسامي الله وتعاليه مطلق حقاً، لأن الله ليس في حاجة لأحد من خلائقه ليعبِّر به عن الحياة التي فيه، بل حتى قبل خلقة أي شيء كان الله يحوي الحياة في ذاته، وهذه الحياة تظهر في علاقته الوثيقة مع "كلمته" الأزلي.

الله دائماً مصدر الحياة والحكمة، والكلمة هو هذه الحياة وهذه الحكمة، وهذا هو السبب أن الكلمة أزلي أيضاً. الله دائماً يحيا حياته كاملة في "كلمته"، لكن الله بالرغم من ذلك خلق البشر بكلمته بسبب جوده وحبِّه. لم يخلقهم فقط بل أشركهم في حياته الإلهية. ولما فقدوها وأراد أن يرجعهم ثانية لم يكن محتاجاً لشيء أو لإنسان أو لمخلوق لكي بواسطته يرجعهم له، لكنه ردَّ لهم حياته بتجسد كلمته.

فإذ حلَّ فينا الكلمة بالتجسد، فإنما ليحمل ضعفنا ويُلبسنا ثوب قوته.

الله يريدنا أن نحيا حياته، لذلك ارتضى الكلمة بجسدنا حتى يتحمل الموت

الذي أمسك به ليظفر الكلمة به ويوصّل لنا الحياة الفريدة التي تفوق الموت.

أما الواسطة التي تـنقل لنا هذه الحياة التي في الكلمة فهي: **الروح القدس.**

ما هو الأساس الخلاصي لتعليم القديس أثناسيوس؟

هناك حقيقة خلاصية أساسية لابد أن نفهمها جيداً حتى نفهم ونؤمن بخلاصنا الذي في المسيح، هذه الحقيقة ذات أربعة أوجه متـتامة متكاملة:

١. إن الخلاص يكمل **بتلاقي حقيقي بين الله والإنسان.** الكلمة المتجسد كان الله حقاً، لأن **الله وحده هو** الذي يمكنه أن يُصالح مع نفسه البشرية الساقطة. والجسد الذي اتخذه لنفسه كان **جسداً بشرياً حقاً**، لأنه يمثِّل البشرية، وهو وسيلة ردِّها من السقوط والفساد. لأنه حسب تعبير القديس أثناسيوس "جسد قابل للموت" (كتاب: "تجسد الكلمة")، ولكن بفضل اتحاده بالكلمة قهر الموت.

٢. الكلمة اتخذ الطبيعة البشرية له في اتحاد وثيق تكون فيه طبيعة الابن المتجسد واحدة من بعد الاتحاد بلا أي ازدواج أو ثنائية، حتى إن كل فعل يفعله الكلمة المتجسد **يُنسَب للكلمة ليؤول لخلاصنا ويؤدِّي لشركتنا واتحادنا بالله.**

٣. في هذا الجسد الذي اتَّخذه المسيح، كنا **كلنا ممثَّلين فيه** لأنه من ذات الطبيعة البشرية التي ننتمي نحن جميعاً إليها. هناك **علاقة سرية** بين جسد المسيح وبين البشرية كلها:

[لأن كل ما كُتب عن مخلِّصنا، بشرياً[١] ἀνθρωπινῶς، فهذا يؤخذ على **أنه يخص عموم جنس البشر**، لأن ذاك حمل جسدنا وعرض في نفسه الضعف

(١) هذا التعبير المترجم عن التعبير اليوناني مستخدم في المخطوطات الآبائية العربية المترجمة قديماً عن اليونانية.

البشري.]

(الدفاع عن هروبه ١٣)

ويصفنا القديس أثناسيوس الرسولي ونحن صاعدون إلى السماء في المسيح فيقول إنه:

[لن يكون غريباً على القوات السماوية أن ترانا كلنا نحن الـ **(الذين "معاً في نفس الجسد")**[٢] σύσσωμοι مع ذاك (أي مع الكلمة المتجسد)، ونحن داخلون إلى موضعهم.]

(٤٢:١)

٤. إن **الروح القدس** هو الذي **ينقل لنا كل ما للمسيح** من جهة كل أعماله الخلاصية ورفعته ومجده ككلمة الله، بحيث أنه بدون الروح القدس وسُكناه فينا نظل نحن **البشر في عزلة عن الكلمة المتجسد**، وبالتالي عن الله:

[بدون الروح القدس فنحن غرباء وبُعداء عن الله. وبشركة الروح فنحن متحدون باللاهوتية.] (ضد الأريوسيين ٢٤:٣)

وهذا الروح يتحد بنا **من الداخل** (أي داخل الإنسان). وهذه هي ميزة التجسد، لأن الإنسان بعد التجسد صار **في حال أعلى مما كان لآدم قبل السقوط**:

[لو كان الله قد نطق بكلمة – وهذا في قدرته – ليلغي اللعنة... لصار الإنسان مثل آدم قبل التعدِّي ينال النعمة **من خارج**، ولا يحوزها

(٢) نفس هذا التعبير ورد في رسائل بولس الرسول: «شركاء في الجسد σύσσωμα» (أف ٦:٣)، أي "معاً في نفس الجسد".

متحدة بجسده[٣].]

(ضد الأريوسيين ٢: ٦٨)

إذاً، فعمل الروح القدس في تدبير التجسد يتصل بنا نحن البشر، فالروح بسكناه فينا ينقل لنا بطريقة سريَّة خلاص المسيح وفداءه وتجديده، يُدخله في طبيعتنا (وليس من خارج)، يجعلنا حقاً كلنا **"معاً في جسد المسيح"** بحد تعبير القديس أثناسيوس، وإلاَّ فسيظل تجسد المسيح بعيداً عنَّا وليس "لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا" كما نعترف في قانون الإيمان.

١. مسحة المسيح عند الأردن، وشركتنا فيها:

إن أول حضور سرِّي للروح القدس في البشرية كان عند الأردن، حينما حلَّ الروح القدس على المسيح وقت عماده. وهكذا وتطبيقاً للمبدأ السرِّي الذي كشفه لنا القديس أثناسيوس، يقول:

[إن كان من أجلنا يقدِّس نفسه، وهذا يفعله إذ صار إنساناً، فواضح أن نزول الروح عليه في الأردن كان **نزولاً علينا بسبب أنه يحمل جسدنا**... لم يكن هذا (النزول) لرفعة الكلمة، بل لتقديسنا نحن، لكي نأخذ من مسحته، فيُقال عنَّا: «ألا تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم.» (١ كو ٣: ١٦)

لأنه لما اغتسل الرب في الأردن كإنسان، كنا **نحن** فيه ومعه الذين نغتسل. وحينما اقتبل الروح، نحن الذين كنا **معه مُتقبِّلين هذا الروح**.

(٣) حيثما يذكر القديس أثناسيوس "الجسد"، فهو يقصد بشرية المسيح أو بشريتنا كإنسان كامل المكونات. فهو هنا يقصد "متحدة بكياننا الإنساني كله".

من ذلك نحن أخذنا المسحة والختم، إذ قال يوحنا: «وأنتم أخذتم المسحة من القدوس» (١ يو ٢: ٢٠)، وكذلك الرسول (بولس) يقول: «وأنتم خُتمتم بالروح القدس الذي للموعد» (أف ١: ١٣). لذلك فبسببنا ومن أجلنا كان هذا المكتوب.

فإن كان كما يقول الرب نفسه إن الروح هو روحه، ومِنْ الذي له يأخذ، وهو يرسله؛ فليس الكلمة باعتباره الكلمة والحكمة هو الذي مُسح بالروح الذي هو يعطيه، بل الجسد الذي اتّخذه، فيه وبه قد مُسح، حتى يصير التقديس - **كما صار للرب كإنسان - يصير لكل البشرية.**]

(ضد الأريوسيين ١: ٤٧)

٢. نحن "شركاء" الرب في مسحته:

إن القديس أثناسيوس يكشف موضعنا في معمودية الرب عند الأردن، إننا "شركاء" الرب في مسحته التي مُسح بها، وهو يرجع للمزمور ٤٤: ٧و٨: «كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب الاستقامة هو قضيب مُلكك. أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله بزيت البهجة أكثر من "**شركائك**"».

كلمة "**شركائك**" μετόχους، نقرأها في ترجمات الكتاب المقدس التي بين أيدينا "رفقائك". لكن القديس أثناسيوس يستعملها بهذا المعنى "شركائك" وهي الأصح، لأن فعل μετέχω يعني "يشترك في"، وهذا الفعل هو الشائع لدى الآباء حين التحدُّث عن الشركة في الروح القدس. لذلك يقول القديس أثناسيوس إن الخليقة تشترك في الرب الأزلي، أما هو فلا يشترك في أحد:

[إننا كلنا **"شركاء الرب"**. إنه متميِّز عن الأشياء المبتدأة، فهو الكلمة الحقيقي وحيد الآب، وبهاؤه وحكمته، الذي كل ما هو مبتدأ يشترك فيه ويتقدَّس به في الروح.

لذلك فهو مُسح لا ليصير إلهاً، لأنه هو هكذا من قبل، ولا ليصير ملكاً لأن له المُلك منذ الأزل كونه صورة الله... وهو بنفسه يعطي الروح، كما تكشف الأقوال الإلهية. بل **من أجلنا** قد كُتب هذا.

إنه مُسح، لكي أيضاً كإنسان - إذ يُقال أنه مُسح بالروح - **يهيئ لنا نحن البشر سُكنى الروح** وأُلفته، كما رفعتنا وقيامتنا.]

(ضد الأريوسيين ١: ٤٦)

٣. الروح يهب التقديس:

إن هبة التقديس ننالها بسُكنى الروح فينا من معموديتنا في الرب. وعن هذه الهبة يتكلم القديس أثناسيوس في أكثر من موضع من كتاباته ضد الأريوسيين:

[يقول الرب نفسه عن نفسه في إنجيل يوحنا: «أنا أرسلتهم إلى العالم، ومن أجلهم أقدّس أنا ذاتي، لكي يكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق».

أي شيء يعنيه سوى هذا: أنا الكائن كلمة الآب، بصيرورتي إنساناً أعطيت الروح لنفسي، أنا الذي صرت إنساناً. وبهذا أُقدّس نفسي أنا الصائر إنساناً، **لكي الكل يتقدَّسوا فيَّ** أنا الحق، «كلمتك هو حق».]

(ضد الأريوسيين ١: ٤٦)

٤. وحدة شخص الكلمة المتجسد: يأخذ ويعطي:

واضح في حياة الكلمة المتجسد، أنه يأخذ ويعطي. فهو بشرياً يأخذ؛ وإلـهياً يُعطي. فهو يأخذ لأجلنا لا لاحتياجه، ويُعطينا لأنه لهذا تجسد من أجلنا ومن أجل خلاصنا. وهذا ما يتم في مسحة الروح القدس:

[يسوع المسيح الأمس واليوم هو نفسه إلى الأبد، باقٍ بلا تغيير، وهو نفسه **المُعطي والآخذ**، **المُعطي** باعتباره كلمة الله، **والآخذ** باعتباره الإنسان. ليس الكلمة إذاً هو الذي يتمجد، لأن الكل له كان، ودواماً له الكل، ولكنهم البشر هم الذين يقتنون بدايتهم فيه وبه. فحينما يُقال الآن، بشرياً، أنه مُسح، **فنكون نحن الممسوحين فيه**. ولما تعمَّد **فنحن المعتمِدين فيه**.

والمخلِّص نفسه يكشف هذا كله حينما يقول للآب: «المجد الذي أعطيتني أنا أعطيتُهم ليكونوا واحداً فينا كما أننا واحد» (يو ١٧:٢٢). فبسببنا هو يسأل المجد. أخذ وأعطى، ونحن فيه نتمجد، كما قدَّس ذاته من أجلنا، لكي نحن نتقدَّس فيه.]

(ضد الأريوسيين ١:٤٨)

٥. أخذناه يقيناً:

[واهب الروح، أي الكلمة نفسه، تكلَّم عن نفسه أنه مُسح بالروح من أجلنا. لذلك فإننا **يقيناً** βεβαίως(٤) **أخذناه**، حينما قيل إنه مُسح بالجسد، لأن الجسد لكونه قد تقدّس أولاً فيه، وإذ قيل إنه بسببه قد

---

(٤) ويمكن ترجمة هذا الظرف بكلمة "بثبات".

مُسح كإنسان، **فنحن صار لنا فيض نعمة الروح آخذين من ملئه** (يو ١:١٦).]

(ضد الأريوسيين ١:٥٠)

٦. سُكنى الروح فينا، هو بسبب الاتحاد السرِّي في التجسد:

إذاً، فسُكنى الروح فينا حقيقة يقينية نلناها كنعمة بسبب التجسد، من خلال اتحادنا السرّي بالكلمة في جسد المسيح:

[بسبب قرابتنا (نسبنا) بجسده، فقد صرنا نحن أيضاً **هيكل الله**، وقد جُعلنا لذلك **أبناء الله**، حتى إن الله صار معبوداً فينا الآن، والناظرون يشهدون، كما قال الرسول: «إن الله بالحقيقة فيكم» (١ كو ١٤:٢٥)... وفي رسالة يوحنا يكتب "بهذا نعرف أنه يمكث فينا بروحه الذي وهبه لنا." (١ يو ٣:٢٤)]

(ضد الأريوسيين ١:٤٣)

٧. الروح القدس فينا، روح البنوَّة لله والشركة فينا:

إن **البنوّة لله** التي هي ثمرة شركتنا في الطبيعة الإلهية، استُرجعت لنا ثانية بالروح القدس الذي انسكب فينا بسبب التجسد. هذا هو قصد التجسد في النهاية، أن يُشركنا في حياة الله فنصير أبناءً في المسيح.

في هذه الحقيقة الخلاصية يفيض القديس أثناسيوس ويستفيض، لأن كل انشغاله كان أن **يبشّر بمصير الإنسان الأبدي** الذي استُرجع له، من بعد السقوط، بتجسد الكلمة الأزلي.

إن حق الإنسان في هذا المصير، هذه الهبة الإلهية المجانية للبشرية، هي

برهان القديس أثناسيوس وحجته على لاهوت وأزلية الكلمة (وفيما بعد على لاهوت وأزلية الروح القدس). إذ لا يمكن أن يتحقق هذا المصير للإنسان **إذا توسَّط المخلوق** ليُشركنا في حياة الله الأزلي. الله نفسه هو وحده القادر على ذلك.

هذه العطية الإلهية التي بلغ فيها تدبير التجسُّد أقصى غايته، صارت هي الميراث المُشاع للاَّهوت الإسكندري، ومنه للاَّهوت الشرقي عموماً، ابتداءً من القديس أثناسيوس الذي جعله محوراً لتعليمه اللاهوتي عن الخلاص، وباعث ومبرر نضاله المرير الذي عاناه طول أيام حياته.

"النعمة" عند القديس أثناسيوس وباقي آباء الكنيسة الشرقية، **هي مرادف للشركة في الطبيعة الإلهية** أو **الروح القدس** أو **الاتحاد بالله** أو **التألُّه**؛ وكل هذه الأسماء تعني نفس الشيء، وهو التقابل بين البشرية وبين الله، أو هو صيرورة النفس واحداً مع الله. فالنفس لا تستطيع أن ترى الله طالما هي في عزلة فسادها وسقوطها، لكنها بهبة الشركة في الله تستطيع أن ترى الله وتعرفه.

فالنعمة ليست "شيئاً" آخر غير الروح القدس حالاً في النفس ناقلاً إليها فعل خلاص المسيح، مكمِّلاً اتحاد الإنسان بالله، فهي تَقَابُلُ "شخص" مع شخص، وليس مع "شيء" أو مع "قوة" أو مع كائنٍ غير مشخَّص:

> [هو الروح الذي في الله، وليس نحن من أنفسنا. وكما نحن أبناء وآلهة بسبب الكلمة الذي فينا، هكذا في الابن وفي الآب سنكون، وسنُحسب في الابن وفي الآب لنصير واحداً بسبب **أن الذي فينا هو الروح**، الذي **هو في الكلمة الكائن في الآب**.]

(ضد الأريوسيين ٣:٢٥)

[لأنهم لا يستطيعون أن يصيروا **أبناءً** بسبب كونهم بالطبيعة مخلوقات،

ما لم ينالوا روح الابن الحقيقي الكائن بالطبيعة.

لذلك ولكي يصير هذا فإن "الكلمة صار جسداً"، لكي يجعل الإنسان مستقبِلاً اللاهوتية.

نحن لا نكون أبناءً بالطبيعة، بل الابن الذي فينا؛ والله لا يكون أبانا بالطبيعة، بل أب الكلمة الذي فينا؛ هذا الذي فيه وبسببه نصرخ: أبا أيها الآب.

وكما الأمر هكذا، كذلك الآب، فالذين يرى هو فيهم ابنه، فهؤلاء يدعوهم أبناءً.] (ضد الأريوسيين ٢:٥٩)

٨. سُكنى الروح فينا لا يلغي إنسانيتنا:

إن كان الإنسان مدعوًّا ليشترك في حياة الله، فإن ذلك يكون دون حدوث اختلاط بين طبيعته وطبيعة الله، ودون اختزال لحرية الإنسان. ليس في شركتنا في الله ما يسمَّى بالفناء في الله، بل **الإنسان يظل إنساناً والله يظل هو الله.** بل بالعكس فإن الإنسان بهذه الشركة تتجلَّى إنسانيته كما قصدها الله أن تكون، إنسانية صحيحة القدرات والمواهب مكلَّلة بموهبة عدم الفساد، وأولاها حرية إرادته.

لذلك ليس في تعليم القديس أثناسيوس عن الروح القدس صراع بين **"النعمة"** و **"الطبيعة"**، وليس هناك صراع بين أهمية **"النعمة" ولزوم "الجهاد الإنساني"**؛ لكن جهاد الإنسان وأعماله كلها بالله معمولة (يو ٣:٢١)، إذ يُفترض مسبقاً أنه سبق **ونال "النعمة"** أي سُكنى الروح القدس في النفس لحظة المعمودية، فكل عمله الروحي معمول بالله، في مشاركة وتناغم بين الاثنين يُعبَّر عنه باسم **"السينرجيا"** συνεργεία، أي **"المشاركة في العمل"**.

ثم يؤكد القديس أثناسيوس على هذا التـنبيه بقولـه "**لا يتلاشى جوهرنا الخاص**" أي **أننا بالاتحاد بالله لا "نفنى" في الله أو تذوب شخصياتنا وتتمحي من الوجود كما يقول المتصوفون:**

[ولكن مما لا شك فيه، أننا **بنوالنا الروح لا يتلاشى جوهرنا الخاص.** وهكذا حينما صار الرب من أجلنا إنساناً وحمل جسداً، ظل هو الله بالرغم من ذلك، لأنه لم ينحصر في نطاق الجسد، بل أَلَّه هذا الجسد وجعله غير مائت.]

(رسالته عن مجمع نيقية ١٤)

٩. في سر المعمودية، نتقبَّل الروح القدس حاملاً التقديس والتبنِّي:

كل هذه الهبات الخلاصية تـنتقل إلى كل شخص من خلال سر المعمودية:

[حيث يكون الآب فهناك يكون الابن، وحيث النور فهناك بهاؤه. وما يعمله الآب فهو بواسطة الابن يعمله. والرب نفسه يقول: «كل ما أرى الآب يعمل، فهذا أنا أعمله أيضاً». فحينما تُمنح المعمودية، فالذي **يعمِّده الآب**، **فهذا يعمِّده الابن** أيضاً، والذي **يعمِّده الابن فهو** يتكمل **(يتقدَّس) في الروح القدس.**] (ضد الأريوسيين ٢:٤١)

[لأنه أمرنا أن نتعمَّد ليس باسم مَنْ لا بداية له وباسم مَنْ له بداية، أي باسم مَنْ هو غير مخلوق (الآب والابن) وباسم مَـنْ هو مخلوق (الروح القدس – كما تقول هرطقة مقدونيوس)؛ بل باسم الآب والابن والروح القدس. لأنه هكذا نصير نحن الذين تقدَّسنا، أبناءً بالحق $\acute{\alpha}\lambda\eta\theta\tilde{\omega}\varsigma$، وناطقين باسم الآب، حتى بهذا الاسم نعرف الكلمة الذي

هو في الآب.

وهو (أي المسيح) إذ أراد أن يكون أبوه أبانا، فلا يصح أن نضع أنفسنا موضع الابن بالطبيعة، لأن ما نقوله (أننا أبناء) فهذا بسببه (أي بسبب اتحاد الابن بنا في سر التجسد). لأنه لما حمل الكلمة جسدنا وصار فينا، فبسبب الكلمة الذي فينا يُقال بالتبعية أن الله أبونا.

لأن **روح الكلمة الذي فينا يسمّي أباه**، من خلاله، **أبانا**. وهذا هو فكر الرسول حينما يقول: "بعث الله روح ابنه إلى قلوبنا صارخاً يا أبا الآب." (غل ٤:٦)]

(رسالته عن مجمع نيقية ٣١)

ـ ٢ ـ

في الرسائل إلى القديس سيرابيون

معنى "الثيئولوجيا" (أي الكلام عن الله) عند القديس أثناسيوس الرسولي:

شتّان ما بين "الثيئولوجيا" Θεολογία (أي الكلام عن الله) عند القديس أثناسيوس والآباء، وبين ما يُسمَّى "علم اللاهوت" كما تعارف على فهمه الناس الآن.

لقد كان القديس أثناسيوس في عصره يواجه أحد آثار علم اللاهوت المنهجي

"المتعدد الأوجه" الذي أدخله بعض الفلاسفة الذين آمنوا بالمسيح ودخلوا الكنيسة. ونقصد بالمتعدد الأوجه، أي المنهج الذي يلتزم بسد كل ثغرة في التفكير، وبالرد على كل سؤال عن الله، وبتغطية كل القضايا اللاهوتية والربط بينها في تحديدات محددة وألفاظ معينة تعييناً. هذا النوع من اللاهوت يفسر ذاته بذاته عن طريق السؤال والجواب، والجدل العقلي، وبالشك والبرهان.

وأي علم لاهوت منهجي من هذا النوع، لكي يكمّل بنيانه لابد أن يستعين بالفلسفات السائدة في العصر. وقد استعان أريوس بالفلسفة الأرسطوطالية التي تهتم بالأشياء في حدّ ذاتها، وتبرهن على الحقائق المجردة ببراهين من ذاتها، دون النظر للإنسان ككائن وجودي حي، ودون الالتزام بموقف روحي سابق، أي الإيمان بحقائق الوحي الإلهي.

أما القديس أثناسيوس، فبالرغم من أن تربيته اللاهوتية كانت في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التي كان يسود عليها اللاهوت الأوريجاني (وهو أول لاهوت منهجي دخل الكنيسة)، إلا أن خبرته الإيمانية العالية التي التقطها من معلميه الشهداء (أمثال البابا بطرس خاتم الشهداء)، بالإضافة إلى الخبرة النسكية العملية التي رسخت في شخصيته بسبب تلمذته وصلته المستمرة بالقديس أنطونيوس، صنعت منه لاهوتياً بالحق، لا بحسب لاهوت منهجي عقيدي، بل بحسب لاهوت آبائي رسولي حي نابع من موهبة الروح «كلام حكمة... كلام علم.» (١ كو ١٢:٨)

ما هو علم اللاهوت في عُرف الآباء؟

من الواضح أن تعليم الآباء وكرازتهم كان لاهوتياً، أي مؤسساً على إلهام روحي ووحي فائق، لحقائق إلهية تختص بخلاص الإنسان ومصيره الأبدي، وهي حقائق تفوق قدرة الإنسان على التخيُّل أو الحدس أو التخمين، أو

الاستشفاف العقلي.

ومن ناحية أخرى، وكما يقول القديس غريغوريوس النزينزي، فإن الآباء تكلموا باللاهوت: "على نمط الرسل وليس بفلسفة أرسطو" (عظة ٢٣:١٢). أي أن علمهم وكلامهم عن اللاهوت ظل "كرازياً" رسولياً حتى حينما دخل عليه النسق المنطقي وعُزّز بالجدل العقلي. فاللاهوت الكرازي هو شهادة، شهادة للحياة في المسيح التي أُعطيت للبشرية: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة... نشهد ونُخبركم بالحياة الأبدية... لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا.» (١ يو ١:١-٣)

فعلم اللاهوت لدى الآباء، هو شهادة حيَّة يُكرز بها ليكتمل قصد التجسد: "الشركة في الآب بالابن في الروح القدس"، أو "الحياة في المسيح".

إذاً، فبمعزل عن "الحياة في المسيح"، فإن الكلام عن اللاهوت لا يحمل أية رسالة أو أهمية، وإن هو انفصل عن حياة التقوى في المسيح، فسيتحوّل إلى جدل عقيم أو "مباحثات غبية" بلا أدنى هدف أو منفعة.

لذلك فعلم اللاهوت عند الآباء كان مؤسساً أصلاً على التزام سابق مطلق بالإيمان المسلَّم مرَّة للقديسين، وبالحياة في المسيح، مستمدة دائماً ومتجددة بالروح القدس من خلال الأسرار ومُعاشة بالنسك وتنفيذ وصية الإنجيل.

وهذا العلم اللاهوتي الآبائي نجده فقط لدى آباء الكنيسة، مُعلَناً ومكروزاً به من على منبر داخل كنيسة، أو في صلاة ليتورجية، أو في طقس سرائري، أو رسائل راعوية، أو في دفاع عن الإيمان في مواقف شهادة تاريخية، أو في تفسير لآيات الكتاب المقدس. أي أنه كان يُقدَّم دائماً في إطار حياة في المسيح نشطة وفعَّالة كانت الكنيسة تعيشها وتنمو فيها.

العلم اللاهوتي بهذه الصورة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الكنيسة كجسد

المسيح، غير منفصل عنها ولا متعارض معها، بل بالعكس هو التعبير عن عمل الروح القدس الحي فيها على مدى العصور والأجيال، والعامل في أعضائها في صراعهم مع العالم ورئيس هذا الدهر.

بهذه المقدمة نستطيع أن نتعرف على:

موقف القديس أثناسيوس من الجدل حول لاهوت الروح القدس:

بعد صراعه المرير ضد الأريوسية، وبينما كان القديس أثناسيوس في الصحراء في اعتكاف شبه إجباري من وجه أعدائه، استلم رسالة من الأسقف سيرابيون أحد أساقفة الوجه البحري، يلتمس منه تعليماً ورداً على جماعة "التروبيكون" (الذين ينحون نحو التفسير المجازي) الذين زعموا أن الروح القدس مخلوق.

ولم يكن القديس أثناسيوس في البداية ينوي أن يبعث رداً، والسبب هو:

[لأن ما سُلِّم بالإيمان يجب أن لا يُقاس بالحكمة البشرية بل بسَمْع الإيمان. وأي منطق يا ترى يستطيع بجدارة تفسير الأمور التي تفوق الطبيعة المخلوقة؟ وأي سَمْعٍ يستطيع فهم الأشياء التي لا يسوغ للبشر سماعها أو النطق بها؟] (١:٧)

لذلك فبالرغم من أنه عزم أولاً على "التزام الصمت"، إلاَّ أنه بسبب رجاء الأسقف سيرابيون الشديد، كتب "بإيجاز" بالرغم من "شعوره بعدم المقدرة على القيام بهذه المهمة".

إن عقيدة "الروح القدس" عقيدة تتصل بالحياة الأبدية، لذلك فالذين حاربوا الروح القدس (هذا هو الاسم الذي أطلقه القديس أثناسيوس على المقلِّلين من قدر

الروح القدس في الثالوث الأقدس):

[هم في عِداد الموتى لأنهم **خالون من "الروح"**. إذاً، فلكونهم أناساً طبيعيين – بحسب تعبير الرسول المغبوط – فإنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا ما لروح الله، لأن هذه الأمور يصير الحكم فيها روحياً.]

(٣٢:١)

أما الكلام عن الروح القدس والشهادة لشخصه، فهو عمل يعتمد تماماً على سُكنى الروح القدس (الخاص بالله) في النفس وشهادته للإنسان من الداخل عن الآب والابن:

[أما المتفكِّرون بالحق فإنهم يحكُمون في كل شيء، لكنهم هم أنفسهم لا يصير الحكم فيهم من أحد، لأن **فيهم** الرب الذي يعلن لهم ذاته في الروح القدس، وهو بنفسه يعلن الآب في شخصه.] (٣٢:١)

بهذا الأساس الروحي الإنجيلي النابع من حياة متأصِّلة في المسيح يكتب القديس أثناسيوس شاهداً للروح الذي فيه، لأسقف قديس عالم هو الأسقف سيرابيون أسقف تمي الأمديد:

[وفق الإيمان الرسولي المُسلَّم إلينا بالتقليد من الآباء، قد سلَّمتُ التقليد دون اختراع أي شيء دخيل عليه.] (٣٣:١)

●●●

١. مصير الإنسان الأبدي
هو برهان العقيدة

كمثلما بشر وكرز القديس أثناسيوس بمصير الإنسان الأبدي بشـــركته فـــي الطبيعة الإلهية، كأساس للإقرار بحتمية لاهوت الابن الكلمة؛ فبنفـــس الغـــيرة والبساطة، يتكلم هنا أيضا عن حتمية لاهوت الروح القدس المنسكب فينا:

بالروح القدس نتحد بالله:

[من ذا يتحدكم بالله، إن لم يكن لكم روح الله نفسه، بل لكم روح ينتمي للخليقة (كما يدعي الهراطقة على الروح القدس)؟] (٢٩:١)

[فلو كان الروح القدس مخلوقا، لما صارت لنا شركة الله فيه. لو كنـــا حقا متصلين بمخلوق، لأصبحنا غرباء عن الطبيعة الإلهية لأننا لـــم نشترك فيها.

ولكن بالنظر إلى هذه الحقيقة – وهي أننـــا دعينـــا شـــركاء المســـيح وشركاء الله – يتبين أن المسحة والختم الذي فينا لا ينتمي إلى طبيعـــة الأشياء ذات البداية، بل إلى طبيعة الابن الذي يتحدنا بالآب بـــالروح القدس الذي فيه،

وإن كنا بالاشتراك في الروح القدس نصبح "شركاء الطبيعة الإلهية"؛

فمن الجنون أن نقول إن الروح القدس ذو طبيعة مخلوقـــة لا طبيعـــة الله. لهذا فالذين فيهم الروح القدس هؤلاء يؤلـــهون Θεοποιοῦνται. وإن كان الروح القدس يؤلهنا Θεοποιεῖ، فلا شك فـــي أن طبيعتـــه هي طبيعة الله.] (٢٤:١)

الروح القدس يمنح البنوة للخليقة:

[الذي يتحد الخليقة بالكلمة لا يمكن أن ينتمي إلى المخلوقات، والذي يجعل المخلوق ابنا لا يمكن أن يكون غريبا عن الابن، وإلا فالحاجة هي إلى البحث عن روح آخر يتحدنا بالكلمة، وهذه سخافة.

إذا، فالروح القدس لا يمكن أن ينتمي إلى المخلوقات، بل هو خاص(*) بلاهوت الآب، الذي به الكلمة يؤله المخلوق (أي الإنسان).] (١:٢٥)

الروح القدس باعث القداسة والتجديد:

[هناك تقديس واحد يصير من الآب بالابن في الروح القدس.]

(١:٢٠)

[الروح القدس هو روح القداسة والتجديد.] (١:٢٢)

[الابن هو الحياة، ونحن لأننا صرنا أحياء بالروح القدس، يكون المسيح نفسه حيا فينا... والأعمال التي نعملها بقوة الروح القدس هي أعمال المسيح.] (١:١٩)

[كما أن الابن الكلمة الحي واحد، هكذا القوة الحية والهبة التي بها يقدس وينير، ينبغي أن تكون واحدة كاملة تامة، وهي نفسها التي قيل إنها منبثقة من "ἐκ" الآب لأنها تشرق من "παρα" الكلمة المعترف بأنه من الآب. وهي المرسلة والمعطاة منه.] (١:٢٠)

(*) آثرنا ترجمة كلمة "ἴδιος" بكلمة "خاص بـ"، وهو اللفظ المستخدم في المخطوطات القديمة المنسوخة بالعربية والمترجمة عن اليونانية.

ولادتنا الجديدة تتم في المعمودية بالآب والابن والروح القدس في مساواة كاملة:

إن المعمودية – منذ أيام الرسل، وما زالت في الكنيسة الأرثوذكسية – كانت ذات شأن كبير جداً في حياة المسيحيين، لأنها تتضمن تحوُّلاً كاملاً عن العالم ودخولاً كاملاً للحياة في المسيح، فكل ما يحدث في المعمودية يمتد أثره في حياة المؤمن على مدى عمره الأرضي وفي الدهر الآتي.

لذلك فطقوس المعمودية هي إظهار للشركة المبتغاة في الله، وهي إعلان لوحدة الثالوث وعمله المتساوي فينا:

[عندما اعتمد ربنا وهو في الهيئة البشرية بسبب الجسد الذي حمله، قيل إن الروح القدس نزل عليه. ولكي يُعطيه للتلاميذ قال: «اقبلوا الروح القدس». كذلك علَّمهم: «وأما الباراكليت الروح القدس الذي سيُرسله الآب باسمي فهو يعلِّمكم كل شيء». وبعد قليل تكلَّم عن نفسه: «ومتى جاء المعزي الذي أُرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي». وقال أيضاً: «لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم». وبعد قليل: «ولكن إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين فقد أَقبَلَ عليكم ملكوت الله».

فلكي يتمم (الروح) فيه (أي في الابن) كل "ثيئولوجيا" (كل علم معرفة الله)، وكل تكميلنا (أي تكميل شروط انضمامنا للكنيسة) التي فيها يُتحدنا بنفسه، وبواسطته يُتحدنا بالآب، أوصى تلاميذه: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم (التعليم للموعوظين = الثيئولوجيا) وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».] (٦:١)

[الآب بالكلمة في الروح يخلق كل شيء، لأنه حيثما يكون الكلمة

فهناك الروح، وما خُلق بالكلمة يقتني قوة كينونته من الروح بالكلمة.] (٥:٣)

[إيماننا بالثالوث هو أنه غير مفترق أو غير متباين، لذلك فيلزم أن تكون قداسته واحدة وأزليته واحدة وطبيعته غير المتغيرة واحدة.

الإيمان بالثالوث المسلَّم لنا يُتحدنا بالله. فمَنْ ينتزع شيئاً من الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس، فهو لا ينال شيئاً. بل يظل فارغاً وغير مستوفٍ شروط الانضمام، هو والذي ظن أنه منحه المعمودية.

يترتب على هذا أن المعمودية التي تُمنح باسم الآب والابن والروح القدس، تقطع بأن الآب والابن والروح القدس متساوون متماثلون، وليس فيهم واحد مخلوق.

وإلاَّ فتكون معموديتان وإيمانان، إيمان ومعمودية باسم الآب والابن، وإيمان ومعمودية باسم ملاك مخلوق، حينئذ لن يكون لكم تأمين ولا حق.] (٣٠:١)

إذاً، فمعموديتنا الواحدة باسم الآب والابن والروح القدس وإيماننا بالثالوث، هما البرهان الحي والعملي على لاهوت الروح القدس.

●●●

٢. وحدة الثالوث الأقدس
وسكناه في النفس

إن القديس أثناسيوس يُعلن هذه الحقيقة: وحدة الأقانيم الثلاثة، وبالتالي فإن طبيعة الروح القدس لابد أن تكون واحدة مع طبيعة الابن والآب. لأن طبيعة الأقانيم الثلاثة غير مفترقة وإن كانت متمايزة.

[الإيمان الرسولي ليس كذلك (أي ليس كما يدَّعي محاربو الروح القدس). لأن الثالوث القدوس المبارك لا يفترق، وهو واحد في ذاته، وحيثما ذُكر الآب فإن كلمته يكون حاضراً وكذلك الروح الذي في الابن. وإذا دُعِيَ الابن فيكون الآب في الابن. الروح ليس خارج الكلمة، لأن واحدة هي النعمة التي من الآب بالابن في الروح القدس.] (١:١٤)

شركة النفس هي مع الثالوث:

[+ عمل الثالوث واحد، وما يوهب فهو يوهب في الثالوث، لأن الكل هو من الله الواحد.

+ لا يوجد شيء لم يُخلق ولم يُصنع بالابن في الروح القدس.

+ التبرير هو «باسم ربنا يسوع المسيح وروح إلهنا» (١ كو ٦:١١). لأن الروح غير مفترق عن الكلمة.

+ عندما يقول: «سنأتي أنا والآب» (يو ١٤:٢٣)، فإن الروح يحل معهما، بكيفية لا تختلف عن حلول الابن الساكن فينا.

+ إن كان الابن فينا، فالآب فينا أيضاً.

+ عندما يكون الكلمة في الأنبياء، فإنهم في الـــروح القـــدس نفســـه يتـــنبأون.

+ وهكذا نرى أنه عندما يُقال إن الروح القدس في أيٍّ واحد، فإن هــذا يعني أن **الكلمة حالٌ فيه مانحاً الروح القدس.**](١:٣١)

[مَنْ يقبل **الروح القدس** يُدعى هيكلاً لله.] (٣:٣٠)

إن تلازم الآب والابن والروح القدس في سكنى النفس، حقيقة سرِّية تحـــدث في النفس لتكميل الخلاص الإلهي. والروح القدس يحقق ويعطي للبشرية كل ما قاله وأكمله المسيح:

[كما أن الرب يُدعى ابناً، هكذا يُدعى الروح القدس **روح البنوة**. كمـــا أن الابن هو **الحكمة والحق**، فالروح القدس قيل إنـــه **روح الحكمـــة والحق**. الابن هو **قوة الله ورب المجد**، والروح القدس يُدعـــى **روح القوة والمجد**.] (١:٢٥)

معرفة الابن تقود إلى معرفة الروح:

ويترتب على هذا أن معرفتـــنا للابن إذا كانت صادقة وصحيحـــة، وهـــي تَكمُل طبعاً بشهادة الروح فينا («هو يشهد لي» يـــو ١٥:٢٦)، لأمكـــن لنـــا أن نعرف الروح في شخصه معرفة حقيقية أيضاً، لذلك خصص القديس أثناسيوس إحدى رسائله الأربعة لسيرابيون للكلام عن الابن حتى:

[إذا ما عرفنا الابن أمكن أن تكون لنا معرفة حقيقية بـــالروح، لأننـــا سوف نتبين أن علاقة الروح القدس الخاصة بالابن تماثل تلك العلاقة بين الابن تجاه الآب.] (٣:١)

[يجب أن نستقي المعرفة عن الروح القدس من الابن.] (٣:٣)

كل ما للآب هو للابن،
وكل ما للابن هو لنا في الروح القدس:

[كما قال الابن: «كل ما للآب هو لي» (يو ١٦:١٥)، هكذا سنجد أن كل هذه الأشياء (المعبَّر عنها بكلمة «ما للآب») هي بالابن في الروح القدس. وكما أوضح الآب عن الابن قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت» (مت ٣:١٧)، هكذا الروح أيضاً هو روح الابن. يقول الرسول: «أرسل الله **روح ابنه** إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب.» (غل ٤:٦)

كما قال الابن (للآب): «كل ما لي هو للآب» (يو ١٧:١٠)، فالروح القدس الذي هو روح الابن هو روح الآب أيضاً.]

(١:٣)

الروح القدس يشهد للابن فينا:

[إنه يُدعى الروح المحيي وأما المخلوقات فإنها تحيا به، والروح القدس يُدعى مسحة وهو الختم، والخليقة خُتمت به ومُسحت به وتعلَّمت كل شيء.

المسحة لها عبير الماسح ورائحته. والممسوحون يقولون إذ ينالون المسحة: «نحن عطر المسيح.» (٢ كو ٢:١٥)

والختم له شكل المسيح الذي يختم، والمختومون يشتركون فيه وهم يتشكَّلون بحسب شكله، كما يقول الرسول: «يا أولادي الذين أتمخض

بهم، إلى أن يتشكل المسيح فيكم.» (غل ٤: ١٩)

وهكذا، فالمختومون يصيرون بحق شركاء الطبيعة الإلهية، كما قال بطرس الرسول (٢بط ١: ٤).

وهكذا تشترك كل الخليقة في الكلمة بالروح القدس.](١: ٢٣)

[إن كنا نستنير بالروح القدس، فالمسيح هو الذي ينيرنا في الروح القدس.] (١: ١٩)

شركة الثالوث ومواهب الروح:

مواهب الروح يسبقها سكنى الروح في النفس، مع الآب والابن بالضرورة:

[الروح القدس ليس خارجاً عن الكلمة، بل لأنه في الكلمة فإنه في الله بالكلمة، وهكذا تُمنح المواهب الروحية في الثالوث.]

(٣: ٥)

[+ المغبوط بولس علَّم بأن كل: (المواهب الروحانية) يصير صنعها في الله الآب الواحد، قائلاً: «أنواع مواهب موجودة ولكن **الروح** واحد، وأنواع خِدَم موجودة ولكن الرب (يسوع المسيح) واحد، وأنواع أعمال موجودة ولكن الله (الآب) واحد الذي يعمل الكل في الكل.» (١ كو ١٢: ٤-٦)

+ فالمواهب التي يقسمها الروح القدس لكل واحد تُمنح من الآب بالكلمة، لأن كل ما للآب هو للابن أيضاً.

+ إذاً، فما يوهب من الابن في الروح القدس هو مواهب الآب.

+ عندما يكون الروح القدس فينا، يكون فينا أيضاً الكلمة **الذي يمنح الروح القدس**، والآب الذي في الكلمة.

+ **ولا يمكننا أن نشترك في الموهبة، إلا بالروح القدس.] (١:٣٠)**

تميُّز الروح القدس عن المخلوقات التي تشترك فيه:

إن الإيمان بلاهوت الروح القدس يعني ضمناً اعترافنا بتميُّزه عن الخليقة التي تشترك فيه، **وهذا ما يميز إيماننا عن المذاهب الفلسفية القديمة:**

[الروح القدس هو مالئ الكل، وأيضاً خارج الكل.] (٣:٤)

[الروح القدس غير قابل للتغيير، وغير متحوّل، لأنه في الله. أما طبيعة المخلوقات والمبتدآت فهي متغيرة، لأنها كائنة خارج جوهر الله، ومن العدم صارت أقانيم.

أما هو فهو صورة الكلمة وخاص بالآب.

+ روح الرب يملأ المسكونة، أما الأشياء المُبدَعة ففي مواضعها المحددة.

+ فإن كان الروح يملأ الكل، وفي الكلمة هو حاضر فيما بين الجميع، وإن كانت الملائكة أقل منه وحيثما تُرسلُ فهناك تكون حاضرة، فلا ريب، إذاً، أنه ليس بمبدوء ولا هو بملاك.

+ يُشترك فيه، ولا يَشترك هو في أحد.

+ فالملائكة وسائر الخلائق (العاقلة) تشترك في الروح نفسه، لهذا

فإنهم يمكن أن يسقطوا عما يشتركون فيه.

+ أما الروح القدس فهو هو دائما كما هو، لأنه لا ينتمي للمشتركين فيه، لكن الكل فيه يشترك].

٣. الجانب البرهاني

وموقف القديس أثناسيوس منه

يبقى بعد ذلك الجانب البرهاني الجدلي الذي لجأ إليه القديس أثناسيوس لا ليقنع المخالفين (الخالين من "الروح"، كما يصفهم هو)، بل للذين "خدعوا فيما يختص بالروح القدس".

١. الدراسات اللغوية:

في الرسالة الأولى يفرد القديس أثناسيوس قسما كبيرا للدراسة اللغوية لكلمة "الروح" في اليونانية واستخدامها في الكتاب المقدس، وأيها تشير إلى الروح القدس، وأيها تشير إلى روح الإنسان أو الأرواح المخلوقة.

ففي رده على الذين يسيئون تفسير التركيب اللغوي لكلمة "روح" كما وردت في الكتاب المقدس، مما يجعلهم ينكرون لاهوت الروح القدس، يضع القديس أثناسيوس مبادئ التمييز بين مدلولين لكلمة "روح" πνεῦμα في الكتاب المقدس لا ثالث لهما:

١ – فإذا وردت كلمة "روح" مع إضافة كلمة أو حرف إليها مثل: الله، الآب، ياء المتكلم، المسيح، الابن، كلمة "مني" أي من الله حتى بدون أداة التعريف، أو إذا كانت كلمة "روح" مسبوقة بأداة التعريف "أل το " أو الاصطلاح الكامل "الروح القدس"، أو "روح الحق"، فهي تعني الروح القدس

الأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس والمساوي للآب في الجوهر.

٢ - أما إذا وردت كلمة "روح" بدون أن يقترن بها أحد الصفات أو الإضافات السابقة، فهي روح مخلوق، وعلى الأخص إذا اقترنت بمخلوق مثل: "روح الإنسان"، "أرواحنا"... الخ.

٢. التشبيهات المادية للثالوث:

يلجأ القديس أثناسيوس للتشبيهات المادية للثالوث (كمثل أن الآب ينبوع والابن نهر، والآب نور والابن شعاعه، وتشبيه الأبوّة والبنوّة البشرية... الخ)، لا على أساس أنها تستطيع أن توضّح لنا الأسرار الإلهية بل كخطوة لابد أن يسبقها الإيمان:

[لأن اللاهوت كما قدّمنا لم يُسلَّم لنا ببرهان كلام، بل بالإيمان وبالفكر النقي مع المخافة. وإن كان بولس قد كرز بصليب الخلاص: «لا بكلام الحكمة، بل ببرهان الروح والقوة»، «وسمع كلمات لا يُنطق بها ولا يمكن لإنسان أن يتكلّم عنها» في الفردوس، فمَنْ يستطيع أن يتكلم بوضوح عن الثالوث ذاته؟] (١:٢٠)

●●●



الباب الثاني

قضية الإنسان

الفصل الأول

الوجه الأول من قضية الإنسان:

فقدان معرفة الله، ومعرفة الخلاص

«هلك شعبي من عدم المعرفة»، هكذا يقول نبي العهد القديم هوشع (٤:٦). وكلمة "المعرفة" مستخدمة هنا بمعنى "المعرفة الاختبارية لله ولمشيئته". وقد حدد الرب يسوع المسيح مقاصد إرساليته إلى العالم في أن يقود الناس إلى معرفة «الإله الحقيقي وحده...» (يو ١٧:٣)

لقد كانت "المعرفة" هي الهدف المشتهى لدى الإنسان اليوناني قديما في سعيه اليومي؛ ولكنها كانت المعرفة النظرية وليست مثلما كانت عند اليهودي، المعرفة العملية الاختبارية لله.

أما الآباء المسيحيون الأوائل الذين واجهوا اليونانيين بالإنجيل، فقد أكدوا على أن الإنجيل قادر على أن يشفي عمى الناس الروحي، وعلى أن يغلب جهلهم بالله. ألم يعد بولس الرسول اليونانيين الفلاسفة في أثينا بأنه يستطيع أن يبدد جهلهم بمعبودهم «الإله المجهول.» (أع ١٧:٢٣)

وأتى آباء القرن الثاني ليقدموا المسيح "اللوجوس"، و "كلمة الله" (كما ورد في افتتاحية إنجيل القديس يوحنا - الإصحاح الأول)، أو "عقل الله". ومهمة الكلمة أنها تعلم؛ ومهمة العقل أنه ينور الذهن. لذلك فكان من الطبيعي لآباء القرن الثاني أن يقدموا المسيح بأنه الآتي إلى العالم ليعلم هذه المعرفة، وهذا الحق، اللذين كانت أذهان الناس تتلمس الطريق إليهما باشتياق ولكن دون

جدوى.

أنصت إلى هذا النداء الإنجيلي الذي يرد في ختام كتاب: "نداء إلى الوثنيين" للعلامة كليمندس الإسكندري:

[اقبل المسيح، استقبل البصيرة، خذ النور، حتى تعرف الله حسنا والإنسان كليهما... فلنخلع الجهل بالحق ونسيانه، ولننزع الظلمة التي تحجب الرؤية كأنها ضباب ولنتأمل في الله الحقيقي وحده].

سر المعمودية ورجوع معرفة الله:

المعمودية، هي طقس الانضمام للمسيحية، التي بها يمكن لكل من يقبل نداء كليمندس الإسكندري أن يدخل في شركة المسيحية؛ إنها ممارسة وسر يحمل جما من المعاني وغنى في البركات.

إلا أن الاسم الذي شاع بين آباء الكنيسة وهم يتكلمون عن المعمودية، قد يبدو وكأن لا علاقة له بالأفكار البسيطة عن سر المعمودية. هذا الاسم هو "الاستنارة"، وهو يكنى به في كتابات الآباء عن سر "المعمودية". و "القادمون للاستنارة" هم "الموعوظون" المتهيئون للمعمودية، و "الذين استنيروا" هم المعمدون. وهذا التعبير حقيقي، إذ هو يعبر عن أن اللحظة التي يستجيب فيها الإنسان للمسيح بتقدمه للمعمودية، هي ذات اللحظة التي فيها يستلم نور معرفة الخلاص.

إذا، فنحن أمام تقابل بين احتياج الإنسان للخلاص، والخلاص المقدم من المسيح. فالنور والحياة متلازمان معا. وحينما تكلم الرب يسوع المسيح عن معرفة الإنسان "للإله الحقيقي وحده"، فإنه وصفها بأنها هي "الحياة الأبدية": «هذه هي **الحياة الأبدية** أن **يعرفوك** أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو ١٧:٣)

والقديس بولس الرسول قَرَن حديثه في آريوس باغوس عن معرفة الإله المجهول بالحديث عن "القيامة" أي عن "الحياة الأبدية".

و "اللوجوس" الذي هو معلم الذهن ومنوِّر العقل، هو نفسه "اللوجوس" الذي توسط بين عالم الخلود الإلهي وعالم الزمن الزائل البشري. وفي هذا الصدد يقول القديس غريغوريوس النيصي:

[إن خلاصنا يستمد كفايته من شيء أكثر من التعليم، إنه يستمد كفايته من الله الذي دخل في شركة مع الناس].

هل المعرفة "النظرية" تُخلِّص؟

لذلك، فإن التفريق بين "المعرفة النظرية" أي معرفة "التعليم"، وبين "معرفة الحياة" أو "معرفة المحبة"، كان مجالاً عظيماً لكرازة آباء الكنيسة وتحذيرهم؛ ذلك لأنه قامت فئات تنادي بأن المعرفة النظرية وحدها تكفي للخلاص. وهؤلاء هم "الغنوسيون"، واسمهم مشتق من الكلمة اليونانية "غنوسيس" أي "معرفة".

هؤلاء ادعوا أن "الاستنارة" أو "المعرفة" هي كل ما يحتاجه الإنسان. وقد فصلهم هذا الادعاء عن شركة الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة.

لقد اعتقد هذا الفريق من الناس بأن الإنسان هو كائن روحي، فقد طريقه وضل عن منزله الحقيقي حينما دخل في مادة كثيفة منحصرة هي الجسد، وأن احتياجه للخلاص يكمن في استيقاظه من هذا السبات ليعرف من هو حقاً. فالخلاص – كما يظنون – هو قبول الإنسان المعرفة المفقودة عن نفسه. إن الإنسان طبيعة روحانية، ومواطن في العالم السمائي الذي لا يفنى؛ أما العالم المادي الذي يوجد فيه الجسد فهو ليس منزل الإنسان الحقيقي، لكن الإنسان وجد نفسه فجأة داخله.

وفي نظر هؤلاء، فإن معرفة الإنسان لنفسه هي معرفة تخلصه، لأنها تعرفه وتظهر له أنه في طبيعته أعلى من عالم الفساد ومتحرر منه.

لكن ليس كل الناس – بحسب نظر الغنوسيين – من أصل إلهي. فهم إما أعضاء في الجماعة الغنوسية المحددة، وليس لهؤلاء أدنى احتياج لخلاصهم سوى تجلي طبيعتهم الحقيقية. بينما هناك آخرون ينتمون إلى طبقة أدنى في الخليقة، وهؤلاء لا طاقة لهم على الخلاص. بينما هناك فئة ثالثة يقفون بين الفئتين السابقتين، فلا هم بالكائنات الروحية الطاهرة ولا هم عاجزون عن أن يصيروا من بين هذه الكائنات. فهؤلاء محتاجون إلى نوع ما من الخلاص لكي ينقذوا من حالتهم الراهنة.

* * *

نحن نعرض لهذه المفاهيم التي سادت في بدء عصر المسيحية الأول، والتي دفعت الآباء إلى أن يضرموا روحهم ويشحذوا أقلامهم ليعرفونا كنه معرفة الله المخلصة حقا، المعرفة غير النظرية؛ معرفة "الحياة"، ومعرفة "المحبة"، و "الشركة".

أعماق معرفة الله

رؤية واقعية للخليقة والتجسد معا

قبل أن نتطرق إلى الدخول في أعماق معرفة الله، في تعليم الآباء، نتريث برهة أمام تعليم الآباء عن خلقة الإنسان وعلاقته بتجسد ابن الله.

فإن آباء الكنيسة في الشرق، كانوا ينبهون دائما على أنه في القصد الإلهي من خلقة الإنسان منذ البدء كان هناك تجسد "كلمة الله". وذلك معناه أن هناك صلة عميقة بين الخلقة الأولى والتجسد، فهما بمثابة شريكين متضامنين أحدهما

يكمل الآخر. بل إن بعض الآباء لكي يوضحوا هذا الارتباط، كانوا يفترضون أن التجسد كان لابد أن يتم حتى ولو لم يسقط أبوانا الأولان؛ وذلك كتعبير عن الحب الإلهي الفائق وكتحقيق للغاية النهائية من خلقة الإنسان، ألا وهي: الشركة بين الله والإنسان. إن هؤلاء الآباء في تصورهم الفرضي هذا كانوا يضعون نصب أعينهم المكسب الهائل الذي ربحته البشرية من وراء التجسد، ألا وهو الشركة في الطبيعة الإلهية، فكان تساؤلهم: ماذا لو لم يسقط آدم؟ هل كان الإنسان سيحرم من النعم الجزيلة التي يجنيها الإنسان الآن من وراء التجسد؟

إن المتأمل في أيقونة والدة الإله وهي تحمل على ذراعها الطفل يسوع، ليجد فيها بحق أيقونة للتجسد. إن هذه الأيقونة تسمى في علم الأيقونات بأيقونة الـ Eleousa (وهي كلمة يونانية معناها: الرحمة والحنان)، وذلك لأنها تظهر الرحمة الفائقة الوصف للآب (في المسيح) تجاه البشر، والحنان الذي أظهرته البشرية (في العذراء) تجاه ابن الله المتجسد. وهذا هو أيضا نفس مفهوم الكنيسة المجتمعة حول سر الإفخارستيا: فهي استعلان عمق سر شركة التجسد، حيث يظهر في الكنيسة المتحدة بالمسيح في الإفخارستيا، حقيقة اتحاد المحبة الذي تم بين الله والإنسان.

معرفة الله مغروسة في طبيعة الإنسان:

ومن هنا نستطيع أن نسمع للقديس غريغوريوس النيصي وهو يكشف هذا السر، إذ يقول:

[إن الإنسان يحمل في نفسه قدرا معينا من معرفة الله].

ففي طبيعته المخلوقة على صورة الله أعد الإنسان مسبقا لمعرفة الله. فما هي وسيلة هذه المعرفة؟

فرق بين معرفة "العقل"، ومعرفة "الذهن الروحي":

إن آباء الكنيسة يفرقون دائما بين "**العقل**"، وما يختص به من جدل ومنطق يستخدمه في تحليل الأشياء وإثارة التضادات بينها وإقامة الاعتراضات؛ وبين "**الذهن**"، وما يتمتع به من رؤية روحية كاملة تنزع دائما نحو التآلف والوحدة بين المتضادات. ويحدد العلامة أوغريس الفارق بين الاثنين بقوله: "الذهن مقره **القلب**، أما الفكر فمكانه **الدماغ**".

وهذا القول يتماشى مع مفهوم القلب في أسفار العهد القديم، فهو يعتبر وسيلة التفكير لدى الإنسان المؤمن، وهو المركز الفائق للطبيعة في الكيان البشري الذي يأخذ موضع الذهن والفهم.

وهذا التفريق لا يعني إنكار ملكة التفكير المنطقي للذهن، ولكنه يعني أنه لابد لنا من معرفة حدود العقل، حتى يمكن أن يصير لنا "الذهن المتجدد" في المسيح الذي دعا إليه القديس بولس الرسول (رو ١٢:٢).

لقد حرص آباء الكنيسة على ألا يتركوا العنان للعقل الطبيعي في الاستقلال برأيه. فإن الله في استعلانه ومخاطبته للإنسان يتجلى داخل روح الإنسان. ومعرفة الله، ولو أنها فطرية وغريزية في الإنسان، إلا أنها تعتبر دائما هبة روحية. ويمكننا أن نسمي هذه المعرفة الروحية عن الله، إذا اعتبرت هبة روحية؛ أنها "المعرفة الحية"، أو "معرفة الحياة"، أو "معرفة المحبة والشركة".

المعرفة والمحبة:

إن آباء الكنيسة لا يجدون ثمة فرق بين "طريق المحبة" و "طريق المعرفة"؛ بل يرون أن "المعرفة الحقيقية" تكون دائما مقترنة بـ "المحبة"، و "المحبة" مقترنة دائما بـ "المعرفة" أو "الإفراز". والاثنان يسموان إلى فعل واحد غير منقسم هو "المحبة الواعية".

+ لذلك أيضا – وكأبلغ دليل اختباري على ذلك – **يدعونا الآباء في اختبار "الصلاة القلبية الدائمة" إلى تنزيل الذهن إلى القلب**، حتى إذ تصير ملكات النفس البشرية بكاملها متسامية ومستنيرة بالنعمة، يمكن أن تتقابل مع أسرار الله.

+ ولذلك أيضا – وكتطبيق لهذا المبدأ – يوصينا الآباء القديسون دائما أن نطرد أي فكر أو صورة عقلية من شأنها أن تتداخل بين "القلب" (أو "عين قلبنا" أو "الذهن الروحي") وبين الخالق؛ لأن السقوط بدأ من هذه الخطوة.

ماذا فعلت الخطية في "الذهن الروحي":

إن أول ما عملته الخطية الأولى في الإنسان هو أنها فصلت العقل من القلب، والمعرفة من الأخلاق؛ مما أصاب بالوهن في النهاية قوة التمييز لدى الإنسان، أي بصيرته الروحية، أي ذهنه الروحي.

ولكون هذا قد حدث، فقد أصاب الطبيعة الفساد بصفة عامة، لذلك فإن علاجه يتطلب تغييرا شاملا وعميقا للكيان كله. وهذا ما تطلبه الكنيسة منا من عمل "الميطانيا" أي التوبة، ولكن بمعنى "تغيير الذهن" إلى الأفضل وتجديده تماما.

وماذا يفعل الإيمان؟

وهذا التغيير هو من عمل **الإيمان** بصفة عامة. لذلك يجب أن نشدد بقوة على الإيمان بمعناه العام الاختباري، المجدد والمغير.

ويجب – ونحن نذكر الإيمان – أن ننتبه إلى أنه في الكنيسة الأرثوذكسية

ليس الإيمان مجرد مفهومات عقلية محفوظة[1]؛ بل هو يقوم على التغيير الواضح والملموس. إنه الإيمان المعاش في جدة حياة القيامة ذات الاختبار اليقيني بالكائن الأعظم.

المعرفة والتأمل:

وكيف يأتي هذا الاختبار اليقيني بالكائن الأعظم؟ إنه يأتي نتيجة المعرفة التأملية للكائن الأعظم، أي الله. لذلك يقول الآباء دائما: "إن اللاهوتي الحقيقي هو من له شركة مع الله". أي أن "علم اللاهوت" إلى جانب كونه يقوم على تعليم المبادئ الأولى للكرازة بالخلاص، فهو يحمل هبة روحية، هي هبة الشركة مع الله.

والكنيسة لا تكف عن المواظبة والاستزادة والدخول إلى العمق لنيل قوة هذه المعرفة، وذلك بالإصغاء دائما إلى قديسيها وآبائها والاغتذاء باختبارهم للروح القدس وبمناجاتهم للكلمة الإلهي الذي تقدمه للمؤمنين في كل قداس من قداساتها.

المعرفة اللاهوتية لا تأتي من خارج الإنسان:

إن المعرفة اللاهوتية السرية (Mystical) تعني أن: "على النقيض من كل معرفة بشرية تأتي من دماغ الإنسان، فإن المعرفة اللاهوتية السرية لا تعرف إلا بالاستعلان من جانب الله وبالمشاركة من جانب الإنسان بالاستجابة لهذا الاستعلان. وسمو الله فوق الوجود المادي يؤكد لنا أنه لا يمكن أبدا أن نعرف الله من الخارج، ولا يمكن أن نذهب إليه إلا انطلاقا منه، ولا يمكن أن يوجد الإنسان في الله إلا إذا تلامس مع حضرته القدوسة وبمعونة النعم الإلهية".

---

(١)"الكنيسة الخالدة"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، ص ١٢،١٣.

الإيمان المسلم لنا من الآباء هو إلهام من الله:

إن الآباء المدافعين عن الإيمان في الصراعات العقائدية لأجل الحق، في زمن المجامع المسكونية، لم يدافعوا عن أي معرفة ما مجردة منفصلة عن "تدبير الخلاص"؛ بل جاهدوا لكي يحددوا بدقة شديدة الطريق العملي إلى الخلاص، وأن يجيبوا على المسائل الخاصة بحياتنا أو موتنا الأبدي، وقد كان الخلاص في إيمانهم يبدأ وينتهي بالشركة مع الله.

مثل هذا العلم اللاهوتي أو معرفة الله، الذي يتطلب بالضرورة حفظ المبادئ الأولية للتعاليم المسيحية، هو في حقيقته الجوهرية يمهد للطريق لاختبار الاتحاد بالله.

ومثل هذا العلم الإلهي الحقيقي أيضا يفهمنا لماذا يقول الآباء: "إذا كنت تصلي حقا فأنت لاهوتي، وإذا كنت لاهوتيا فأنت تصلي حقا". هذا العلم الروحي هو طريق التأمل، الذي تتجلى طبيعته بالأكثر في سر الإفخارستيا، عندما يكتمل عمل "كلمة الله" في الإفخارستيا، بتحقيق شركة المؤمنين في الله.

توسط النعمة في معرفة الله:

وهكذا يقوم علم اللاهوت، في وعي الآباء الروحي، على أساس توسط النعمة، لأن "لا أحد يمكنه أن يعرف الله إذا لم يكن الله نفسه هو الذي يعلمه"، و "ليس هناك من وسيلة أخرى لمعرفة الله سوى أن نحيا فيه"، "أن نتكلم عن الله فهذا شيء عظيم، ولكن أعظم منه أن يطهر الإنسان نفسه من أجل الله"؛ كما يقول القديس غريغوريوس النيصي.

النسك تمهيد للدخول في معرفة الله:

كما أن الآباء، في تعاليمهم للأصول الأولية، يشيرون إلى أن النسك هو بمثابة تمهيد أو إعداد للتخصص في اللاهوتيات، وأن الصلاة من شأنها أن تجلي الذهن لتجعله متهيئا لاستقبال نور الكلمة ومتفتحا للاستعلانات والإشراقات العلوية.

الفصل الثاني

الوجه الثاني من قضية الإنسان

الموت والحياة

مصير الإنسان الأبدي

لكي نعرف رأي الآباء القديسين وعقيدة الكنيسة في ما أتمه المسيح للبشر من خلاص من الموت، ومن عطية الحياة الأبدية؛ يهمنا أن نتعرف ولو قليلاً على هرطقة الغنوسية التي ظهرت منذ القرون الأولى، لأنه من خلال مجابهة الكنيسة لها تحددت في تعليم الكنيسة معالم عقيدة الخلاص من الموت وعطية الحياة الأبدية.

رأي "الغنوسية" الخاطئ في الخلاص:

إن الغنوسية في نشأتها كانت قضية ثارت تجاه عمل المسيح الخلاصي. فمن وجهة نظر الغنوسية كان هناك المجال الأبدي الذي إليه ينتمي الحق والسلام والحياة والخلود. بينما مجال العالم الزمني متّسم بالخطأ والقلق والموت والانحلال. عالم المجال الأبدي هو عالم علوي نجد فيه الكون الحقيقي والحياة الأبدية، ولكن الناس انعزلوا عنه بدخولهم في مجال العالم الزمني الذي لا يؤدي بهم إلاَّ إلى الفشل والموت.

إن كآبة اليأس التي كانت هي سمة ذلك العصر الذي نشأت فيه هرطقة

الغنوسية جعلت أتباع هذه الهرطقة "يبشِّرون" بالخلاص الذي فيه يتحرر الناس من مجال العالم المادي المنحل المهموم، وينتقلون إلى مجال عالم الخلود. وذلك لا يتم ـ في نظرهم ـ إلا بالانفلات من العالم السُّفلي بالموت، وبالميلاد للعالم العلوي بالخروج من هذا الجسد.

نظرة "الغنوسية" الخاطئة إلى شخص المسيح المخلِّص:

لذلك فقد كان "الغنوسي" ينظر إلى المسيح على أنه المخلِّص من هذا النوع من العالم. وكان ـ بالتحديد ـ يبحث عن مسيح ينتمي إلى العالم النقي العلوي. أما العالم الكائن فعلاً، العالم المادي المتغير هذا، فهو الشيء الذي أتى المسيح لكي يخلِّصهم منه.

والمسيح ـ في نظر الغنوسيين ـ لا يمكن أن يكون مخلِّصاً لو أنه اندمج في هذا العالم، بل يكون قد وقع في شراكه (بحسب تعبيرهم). لذلك فالغنوسيون كانوا ضمن الذين يصرُّون بقوة على اقتصار وجود الطبيعة اللاهوتية وحدها في شخص المسيح (وهم بهذا سبقوا هرطقة المونوفيزية التي ظهرت في القرن الخامس بواسطة أوطاخي). فهو في نظرهم كائن إلهي ينتمي تماماً وبالتحديد إلى المجال الإلهي، وأن الخلاص الذي أتى به هو بأن ينقل الناس خارجاً عن هذا العالم إلى المجال العلوي، لذلك فهم يأنفون من أن ينظروا إلى المسيح على أنه تجسد (أي أخذ جسداً مادياً من هذا العالم) حقاً وبالحقيقة.

نظرة الكنيسة إلى العالم:

أمام هذا التطرف، فإن الكنيسة لم توافق على هذه الصورة من التفكير أو الفهم لعملية الخلاص. فلا الإنسان محتاج إلى هذا النوع من الخلاص، ولا المسيح ـ له المجد ـ أتى بهذا النوع من الخلاص.

المجال الطبيعي ـ أي العالم الحسي ـ هو خليقة الله الحسنة (تـك ١:٢٥)؛ فهو ليس شرًا في حد ذاته، ولا هو كان سبب وعلّة اضطراب الإنسان، وبالتالي لم يكن يصعب على المخلِّص في شيء أن يُشارك فيه أو يتجسده. ولكن بالرغم من هذا الاختلاف الجذري والأساسي مع الغنوسية، فإن ذهن الكنيسة لم يقـف موقف التطرُّف من الجانب الآخر في المعارضة للغنوسية.

المحدودية والموت دخلا إلى العالم بالخطية:

لقد كان اتجاه الكنيسة من العالم المخلوق متوازناً. فإن خليقة الله حسنة فـي حد ذاتها، هذا حق. ولكن للأسف لم تكن هذه نهاية المطاف في خلقة الله. فكمـا رأينا في تعليم القديس أثناسيوس عن تجسد الكلمة، فإن الإنسان حينما خُلِق لـم يُخلق خالداً بطبعه؛ بل بأن يبلغ إلى الخلود فيما بعد. والعالم الذي كان ينبغي أن يَستَعلن الله للإنسان صار حاجباً لله عن الإنسان. والموت الذي كان مقدَّراً له أن يكون نقطة البدء في نمو الإنسان، صار الآن هو الحكم النهائي الذي لا رجعـة فيه. وهكذا صارت المحدودية والموت ثُقلاً وعبئاً على حياة الإنسان، مهددة إياه بالفناء. فكان من الضروري أن ينال الإنسان الخلاص مـن كليـهما: أي مـن المحدودية، ومن الموت.

"الشركة في الطبيعة الإلهية" هي المصير المنتظر للإنسان:

إن اللغة التي تكلَّم بها كثير من الآباء عن الخلاص ربما تبدو حقاً غريبـة عن آذانـنا الآن، وذلك من كثرة تغرُّبنا عن تعليم الآبـاء اللاهوتـي النقـي، وسهولة تأثُّرنا بالأفكار السطحية عن الخلاص التي تحصر عمل المسـيح فـي مغفرة الخطية فقط.

ففي الرسالة الثانية للقديس بطرس الرسول، وهي غالباً آخر ما كُتـب مـن أسفار العهد الجديد، يتكلَّم الرسول إلى المسيحيين مناشداً إياهم أن يهربوا مـن

الفساد الذي في العالم «لكي يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية[١].» (٢بط ١:٤)

لقد قرأنا من قبل الكلمة المأثورة للقديس إيرينيئوس: [الكلمة صار على ما نحن عليه لكي يجعلنا على ما هو عليه]. وفي مناسبة أخرى يتكلم عن الله الذي "جعلنا أولاً بشراً، ثم سيجعلنا فيما بعد آلهة". لكنه في هذا التعبير **لا يرى على الإطلاق أن الإنسان سينفض عنه بشريته ويكفُّ عن كونه بشراً، وكأن الله قد قلب تدبير خليقته الأولى**. ولكنه – في الواقع – يرى درجتين في التدبير الإلهي الواحد:

الدرجة الأولى: إن كلمة الله – الأقنوم الثاني – الذي صار في التجسد على ما نحن عليه لكي يجعلنا على ما هو عليه، هو نفسه "كلمة الله" الذي به خُلِق كل شيء، أي الخليقة الأولى السموات والأرض؛ وهو الذي على صورته خُلِق الإنسان. فآدم خُلِق كطفل طاهر بريء، وإرادة الله كانت أن يبلغ الإنسان إلى كمال صورة الله وشبهه. ولكن هذا الهدف وهذه الرجولة التي قصدها الله تعطَّلت بخطية الإنسان وبالموت الذي لحق بالخطية.

الدرجة الثانية: إنه بالتجسد عاد هذا النمو الذي قصده الله للإنسان يتحرك ويتحقق مرة أخرى. فها قد قام الآن رباط متين من جديد بين الإنسان والحياة الإلهية؛ فالكلمة يكمِّل عمل خلقته الأولى بطريقة لن تتعوق أو تتعطل فيما بعد أبداً.

---

(١) لقد اتخذ الآباء من هذه اللغة الجريئة منطلقاً فتكلموا وأفاضوا في شرح معنى "شركاء الطبيعة الإلهية"، فأسموها بكلمة خاصة شاع استعمالها في عصرهم، وهي باليونانية Θεώσις "ثيئوسيس" أو بالترجمة الحرفية "التألُّه"، وبسبب عدم شيوع هذه اللغة في آذاننا فلابد أن نعرف حدود معناها لدى الآباء.

صورة الله خُلقنا عليها، وشَبَهُ الله هو ما نصبو إليه:

ويتقدّم القديس إيرينيئوس ليوضّح لنا أكثر فأكثر هاتين الدرجتين: فهو يفرّق بين "صورة الله" و "شَبَه الله" اللتين جاءتا في كلمات الخالق قديماً: **«وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا»** (تك ١:٢٦). فيقول القديس إيرينيئوس: [إن آدم خُلق منذ البدء إنساناً **على صورة الله**، لكنه قُدِّر له في النهاية أن ينمو **إلى أن يصل إلى مشابهة الله**]. وبلغة القديس بطرس الرسول "يصير شريكاً للطبيعة الإلهية"، وبلغة الآباء "يصير إلهاً".

* * *

إذاً، فأهم نقطة في تعليم الآباء، هي أن **بلوغ مشابهة الله هو في حقيقته اكتمال إنسانية الإنسان كإنسان**، دون أن يحمل هذا أي نوع من تخلِّي الإنسان عن بشريته (بالرغم من الكلمة اليونانية الشائعة لدى آباء الكنيسة "يصير الإنسان إلهاً")، تماماً كما أن الرجولة الطبيعية لدى أي إنسان هي نمو لطفولته وليست إلغاءً لها. وهكذا تماماً، فإن بلوغ الإنسان مشابهة الله لا تعني أنه سيصير "أقنوماً" إضافياً داخل الثالوث الأقدس. لكن كل ما يقصده الآباء، هو أن الخلاص **ليس فقط إرجاع الإنسان إلى حالة آدم الأولى قبل السقوط، بل بأن يدخل إلى الحياة الأبدية والخلود بمشاركته الطبيعة الإلهية، كقول القديس بطرس الرسول.**

* * *

شمولية التجسد وعطية القيامة

التي مُنحت للبشر بقيامة المسيح

إن الكنيسة المستقيمة الرأي المرتشدة بالروح القدس، آمنت بسر التجسد واستوعبت أعماقه جيداً حينما علّمت بأن الخليقة خُلقت حسنة في ذاتها أولاً، لكن خطية الإنسان جعلت هذه الخليقة حجاباً يفصل الإنسان عن الله، لا استعلاناً لله للإنسان.

والإنسان محتاج إلى الخلاص من موته، وهذا كفله له التجسد. فبالتجسد سُدَّت الهوة التي بين العالمين المادي والروحي. فالطبيعة الإلهية قد أمسكت بالطبيعة البشرية ووهبتها رجاء الخلود.

وقد عبَّر القديس إيرينيئوس جيداً عن تقليد الكنيسة الرسولي، وهو يكتب، لذلك فقد كان يؤكد ويؤكد على أن الخلاص ليس هو خلاص البشرية من بشريتها، وليس هو خلاص الإنسان من العالم، أو خلاص النفس من الجسد في دهرنا الحاضر.

القيامة العامة ستتم بالجسد الجديد:

كان إيرينيئوس يصرُّ، وبوضوح، على قيامة الجسد، أي قيامة الإنسان بجسده الطبيعي الخاص بعد تجلِّيه واشتراكه في الطبيعة الإلهية. وقد كان الآباء مهتمين بتوضيح أن الجسد لابد سيجوز عملية تحويل وتجديد، لأن «لحماً ودماً لا يرثان ملكوت الله» (١ كو ١٥: ٥٠). فهو لابد سيتحرر من هذا الفساد والانحلال اللذين يتَّسم بهما بالضرورة في دهرنا الحاضر.

ولكن الآباء كانوا يصرُّون بطريقة أو بأخرى على أن الجوهر الطبيعي لجسد الإنسان الآن سيكون هو نفسه في القيامة. فالإنسان ليس روحاً مجردة

مغلَّفة بجسد غريب. لكن الإنسان جسد ونفس معاً. والمسيح حينما صار إنســاناً اتَّخذ جسداً طبيعياً بكل مكوِّناته. فمن بين ضرورات الإيمان بالتجسد، أن نؤمــن بأن الكلمة صار جسداً. وبهذا فإن جسد الإنسان، وهو الــذي اتخــذه المســيح، سوف يُشارك في ثمار الخلاص الذي أتى من أجله الكلمة.

ولم يكن القديس إيرينيئوس وحيداً في مناداته بهذه القضية. فما نــادى بــه إيرينيئوس، نادى به الآباء جميعاً من قبله، وعلى الأخص العلاَّمة أوريجانوس.

إن فكر الآباء يقف في صف إيرينيئوس. فهم نبذوا على الإطلاق فكــرة أن الجسد شرٌ مُستَطِير، أو أن خلاص الإنسان يكمن في الهروب من هذا الجســد. فقد أجمع الآباء، بعد إيرينيئوس وكليمنضس الإسكندري، أن مصير الإنسان هو في "**الشركة في الطبيعة الإلهية**"، أي أن يبلغ إلى "الاقتداء بالمسيح" كعملية نمو من وضعه الحاضر إلى الوضع الذي أراده الله له.

والتجسد لم يكن تقديساً أبدياً للمادة، بل هو بالأحرى الواســطة الضروريــة لتــنازل الله لينزل إلينا، ليبلغنا في الحالة التي نحن فيها.

فنحن مغلقٌ علينا داخل المجال الأرضي الجسدي، ولهذا فلا طاقة لنا علــى التأمل حقاً في كلمة الله في طبيعته الإلهية الطاهرة. ولكن مصيرنا سيكون فــي بلوغ إمكانية هذا التأمل أي الرؤية، والتجسد كان هو نقطة البداية. فحينما تقابلنا مع كلمة الله في التجسد، فكان لابد لنا من أن نُفطم من حالة الطفولية التي نحــن عليها. ومن خلال التأمل ومعرفة الله سوف نبلغ إلى الاقتداء بالمسيح.

إن أوريجانوس يبني رؤيته هذه على مَثَل "حبة الحنطة" الذي أورده بولــس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ١٥. فالجسد مثل حبــة الحنطة الذي ينمو ليصير وجوداً روحياً يختفي منه منظره أو محدوديته الأولى، لكن طبيعته لا تــنــتفي أبداً. الجسد الطبيعي الأول هو الذي يُدفن لكنه موجــود

ومتضمَّن داخل الجسد المتجلِّي الجديد.

الطبيعة البشرية التي اتخذها المسيح، تشملنا جميعاً:

إن جواب الكنيسة على مشكلة موت الإنسان مستمد من إيمانها بالتجسد. ففي التجسد اتحدت الطبيعتان الإلهية والبشرية، والطبيعة البشرية قد حُقنت، أو تطعَّمت، بالخلود.

إن آباء كنيسة الإسكندرية كانوا يعتبرون "الطبيعة" كياناً حقيقياً. وكانوا يؤمنون مع القديس غريغوريوس النازيانزي بأن: "ما لم يُلْبَسُ لا يُشفى"، بمعنى أن الطبيعة البشرية إذا لم يكن قد لبسها المسيح فما كان سيمكنها أن تُشفى أو أن تخلص.

لذلك فإن القديس كيرلس الإسكندري، وهو المعلم الذي فهم جيداً الاتحاد الذي حدث في شخص المسيح بين الطبيعتين الناسوتية والإلهية، أكَّد على شمولية الطبيعة البشرية التي لبسها المسيح. فهي – في سر التجسد – لا تخص شخص المسيح وحده؛ بل هي تخصنا كلنا، كما يقول القديس كيرلس في أكثر من موضع: **[نحن كلنا كنَّا فيه]**.

وبهذا، فإن تجسد المسيح – وبالصورة الدقيقة التي صاغها القديس كيرلس – قد حلَّ المشكلة البشرية العامة، أي موت الإنسان، **لأن المسيح حينما قام من بين الأموات "كنا كلنا فيه" أيضاً**، وبهذا أعطانا جميعاً رجاء وإمكانية القيامة من بين الأموات.

الفصل الثالث

الوجه الثالث من قضية الإنسان:

الخطية وافتداء الإنسان

المسيحية هي بشارة بالخلاص:

آباء الكنيسة كرزوا بالخلاص لرعيتهم، وباشروا رعايتهم لهم من أجل تحقيق هذا الخلاص على الواقع العملي في حياة كنائسهم.

ويتميز آباء الكنيسة الشرقية في تعليمهم عن خلاص الإنسان وافتدائه بعدة مبادئ لاهوتية تعليمية هامة.

فأول كل شيء، فإنهم في تعليمهم عن فداء الإنسان كانوا ينظرون إلى أن موت الإنسان ومحدوديته هما أصل المشكلة الإنسانية، أكثر من كون خطية الإنسان هي أصل هذه المشكلة، فموته لا خطيته هو أهم وجه لورطة البشرية. ولهذا لابد من رؤية الإنسان والتأمل في مشاكله بحكم هذا الوضع الواقعي له، ولكن دون تجاهل الخطية وبمعزل عنها. فموت الإنسان يمكن أن يكون سببا مهما لخطية الإنسان، كما أن الخطية هي أيضا سبب موت الإنسان: «بالخطية (دخل) الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس، إذ (أو بسبب أنه) أخطأ الجميع.» (رو ٥:١٢)

يقول القديس بولس إن من خلال خطية الإنسان الأول، آدم، دخل الموت إلى العالم (رو ٥:١٢)، وهكذا فإنه بسبب الخطية فقد الإنسان النعم الفائقة التي

وشحه بها الله بمقتضى جوده ولطفه. لقد فقد قدرته على الامتداد نحـو الخلـود (أي عدم الموت)، هذا الخلود الذي كان في قصد الله أصلا أن يبلغه الإنسـان يوما ما.

وليس هذا فقط، أي ليس فقط أن الإنسان فقد هذه النعم الفائقة، بل وأيضـا أصابه فساد الطبيعة وميل غريزي نحو الخطية. ولكن دون أن يكون كل النسل وأجيال البشر الذين سيأتون في المستقبل مسئولين ومذنبين بخطيـة آدم الأول – وكيف هذا وهم لم يولدوا بعد؟ ولكن الذي حدث هو هذا: فلأنهم يقتنـون نفـس الطبيعة البشرية التي لآدم، فلا يمكنهم أن يظلوا غير متأثرين بما حدث لـرأس جنسهم. إن الوصف التقليدي بواسطة آباء الكنيسة لما حدث للجنس البشري هـو ببساطة أنه من خلال آدم التقط الجنس البشري **عدوى** الخطية (لا ذنبها)، وهكذا زالت تماما من البشر حرية الاختيار الحقيقية الكاملـة والقـدرة علـى فعـل الصلاح؛ بقيت فقط طاقة حرية الاختيار ضعيفة عاجزة مشوهة.

وهكذا تردى الجنس البشري في هذه الورطة ولم يتسنى لهم الهروب منـها. لقد أصابهم المرض، وعاجلا أو آجلا فسوف يفصح المرض عن نفسه بخطايـا هي من صنع اختيارهم الخاص. فالخطية أصبحت طاغية وشـملت الجميـع، وهكذا صار الموت أيضا.

هذه هي نظرية آباء الكنيسة الشرقية تجاه أصل المشكلة الإنسانية. أما آبـاء الكنيسة الغربية فكانوا يرون المشكلة من وجهة نظـر أخـرى. فقـد رأوا أن الخطية وليس الموت، كانـت لها اليد الطولى في تكوين مشكلة الإنسان. وأكثر من يمثل الفكر الآبائي الغربي في هذا المضمار هو القديس أغسـطينوس (٣٥٤ – ٤٣٠م). وتـتلخص رؤيته في وصف طبيعة لوثة الخطيـة التـي أصـابت الإنسان بطريقة لا مفر منها، والتي ظهرت في الخطايا الفعلية التي أتـى بـها الإنسان. لكنه أتى بفكرتين إضافيتين مارستا تأثيرا خاصا على العلوم اللاهوتيـة

والروحية في الكنيسة الغربية قديما (وإن كان هذا التأثير قد بدأ يخبو أثره الآن هناك بسبب التقدم الكبير الذي بلغته المعاهد اللاهوتية في دراسة العلوم اللاهوتية كما علم بها آباء الكنيسة الشرقية)؛ الفكرة الأولى للقديس أغسطينوس تتناول الرد على هذا السؤال:

١. مم تكونت خطية آدم؟

فبمقتضى هذه الفكرة الأولى في العلم اللاهوتي الغربي، كان القديس أغسطينوس يرى أن خطية آدم تكونت أساسا من التمرد ضد وضعه الصحيح المتمثل في اعتماده الكلي على الله، ففضل الاعتماد على الخيرات الدنيا دون الله. وهذه الخيرات الدنيا هي في لغة القديس أغسطينوس "الشهوة الجنسية" التي اعتبرها أنها جوهر الخطية؛ **وفي هذا يخالف تقليد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وكل آباء الكنيسة تقريبا. فأصل الخطية ليس هو الشهوة الجنسية على الإطلاق.**

٢. وعلى من يقع ذنب خطية آدم؟

والفكرة الثانية في نفس هذا اللاهوت الغربي، تتضمن أن الأجيال التي لم تكن قد ولدت حينما أخطأ آدم تكون مذنبة بخطية آدم باعتبارها كانت موجودة في صلب آدم من قبل أن يلدهم آدم، وبهذه الصفة فهم تحت العقوبة العادلة عن الخطية أي الموت. **وفي هذا يخالفه أيضا جل آباء الكنيسة الشرقية ومعظم آباء الكنيسة الغربية**، وسنرى فيما بعد من أقوال هؤلاء الآباء رؤيتهم لهذه القضية. **فالبشر ليسوا مذنبين ومسئولين عن معصية آدم لوصية الله الأولى له**، لأن الذنب يوجد حيث تكون المسئولية، والمسئولية توجد حيث تكون الإرادة والفعل.

طريق الخلاص:

وهكذا نجد تنوّعاً ملحوظاً في رؤية المدى والطريقة التي أمسكت بها الخطية بتلابيب الحياة البشرية. ولكن التمعُّن في الحقيقة الأساسية تُرينا أنه لا خلاف في الرأي في أن كل البشر يخطئون فعلاً بمحض اختيارهم، فهم لهذا مسئولون عن خطاياهم. الخطية هي مشكلة عامة، بل إنها المشكلة الرئيسية للبشر. ففي البشارة بالمسيح، كيف يمكن أن يكون الخلاص من الخطية إذاً، وكيف يكون إشباع احتياج الإنسان للخلاص؟

الفداء عمل إلهي:

إن السمة الغالبة في كتابات الآباء الكنسيين حول موضوع الخلاص، تبيِّن أن الفداء في معالجته لمشكلة خطية الإنسان مُعْتَبَر أنه عمل إلهي أجراه الله أولاً.

وهذا العمل أجراه الله ضد الشيطان، من حيث أن الشيطان أو قوى الشر المجسَّمة قد قبضت على كل نواحي الحياة الإنسانية. وقوة الخطية وقوة الموت هما أداة هذه القوة الشخصية للشيطان على الإنسان.

فكيف تحطَّمت هذه القوة؟

مَثَل "الأقوى" الذي دخل بيت "القوي" ليغلبه:

من يتمعن في الإصحاح الخامس من رسالة رومية يجد أن القديس بولس الرسول كان يهتم أولاً، لا بتقصي أصول الخطية، بل بتوضيح طبيعة عمل المسيح الخلاصي. إن مناقشته لخطية آدم ودخولها إلى العالم لم تكن مناقشة من أجل ذاتها، بل من أجل إلقاء الضوء على خلاص المسيح وكيف دخل إلى العالم وشمل كل البشر. ونفس هذا الأسلوب اتخذه القديس إيرينيئوس أسقف ليون،

وهو يشرح كيف كان خلاص المسيح، وذلك أثناء شرحه التباين بين سقوط الإنسان وخلاص المسيح: فإن آدم الأول وخليقة الله البريئة انغلبا للشيطان أولا بواسطة المرأة العذراء (حواء)، وذلك بعصيان المرأة وصية الله، وهكذا سقط الكل في قبضة إبليس. أما آدم الثاني (أي المسيح) المولود من المرأة (وهي عذراء أيضا) فقد غلب الشيطان بنصرته على الغواية وبطاعته عند شجرة الصليب. وهكذا انكسرت قوة الشيطان.

لقد تكلم المسيح في أحد أمثاله عن "الأقوى" الذي استطاع أن يوثق "القوي" ويدخل بيته وينهب أمتعته (لو ١١: ٢١و٢٢). ذلك الرجل الأقوى هو المسيح. وما فعله إبان خدمته الخلاصية تم وكمل بموته على الصليب. ففي موت المسيح دخل إلى عمق أعماق بيت القوي (أي القبر والجحيم والموت)، وهناك عثر على غنيمته أي الإنسان الذي سبق أن أسره الشيطان وأضله بعدم طاعته لله فأحكم قبضته عليه.

وما اهتم بإيضاحه القديس إيرينيئوس، هو أن آدم الثاني (أي المسيح له المجد)، الذي بطاعته للآب ألغى عصيان آدم الأول؛ لابد أن يكون إنسانا مثل نظيره الأول تماما، وفي الوقت نفسه لابد أن يكون إلها، لأن الله وحده هو "الأقوى" من "القوي". الله وحده هو الذي يستطيع أن يغلب في المعركة مع الشيطان وينتزع الفريسة البريئة من تحت قبضته.

هذه الصورة التشبيهية لنصرة الله في صراعه ضد الشيطان، تضع أمامنا أسس فكر الآباء عن الفداء، وهي الإطار الذي وضعت فيه تأملاتهم. وقوة هذه الصورة تكمن في أنها لم تشرح إلا قصة الصليب والقيامة في لغة رائعة حية لصراع بين الله والشيطان، ويظهر فيها الله منتصرا لحساب الإنسان إذ ربح الإنسان للحياة الأبدية.

هذه صورة من الصور التي شرح بها آباء الكنيسة الأرثوذكسية خلاص

المسيح. ولكن أمامنا صورة أخرى هي صورة:

المسيح الغالب:

وفيها يشرح بعض الآباء موت المسيح لأجل خلاص البشرية بأنه مات "فدية من أجل كثيرين"، كما ورد في إنجيل مرقس ١٠:٤٥. فإن كان الفداء في الصورة الأولى: صورة "الأقوى" الذي اقتحم بيت "القوي" هو عمل الله موجها ضد الشيطان، فإنه في الصورة الثانية يظهر المسيح كفدية يقدم لفك أسر الإنسان من تحت قبضة الشيطان. وكأن نفس المسيح البشرية هي الثمن أو الفدية التي قدمت لفك أسر الإنسان من تحت قبضة الشيطان. وهذه الفدية نفسها هي التي بها أيضا انغلب الشيطان وضاع سلطانه حتى على هذه الفدية، والتي كانت كأنها ثمن نفوس البشر لإطلاق سراحهم وحريتهم من تحت قبضة الذي اختطفهم وارتهنهم تحت سلطانه.

ويشرح قليل من الآباء هذه الصورة بأن الشيطان انخدع برؤيته نفس المسيح البشرية وهي تنفصل عن جسده، فلم ير لاهوته المحتجب وراء ستار التجسد والاتضاع، هذا اللاهوت الذي لم ينفصل لحظة واحدة ولا طرفة عين لا عن نفسه البشرية ولا عن جسده أثناء الموت. وفي هذا يقول القديس غريغوريوس النيصي: "إن الشيطان ابتلع صنارة اللاهوت المخبأ في طعم الجسد".

أي أن اللاهوت وجد مدخلا إلى داخل مملكة الشيطان التي هي الموت، مستترا وراء الجسد، وحينما دخل إلى هناك فتح أبواب السجن إلى الأبد بقيامته المنتصرة من بين الأموات.

ولكن هذه التشبيهات بالرغم من تمادي بعضها في التصور المطلق لكيفية حدوث الخلاص، فإنه يوجد فيها بعض ما تريد أن تقوله الكنيسة للمؤمنين: فالفداء هو عمل الله، هو عمل البر والقوة الإلهيين. فبشرية المسيح كانت

عاملا ضروريا في تحقيق هدف التجسد، لكن الفعالية والقوة في هـــذا العمــل كانـــت للاهوت المسيح. إذاً، فهو عمل الله بكل ما في الكلمة من معنى.

هناك صورة أخرى يستخدمها الكتاب المقدس عن موت المسيح قد تصلـــح لتوفير فهم عام للفداء كعمل إلهي.

فالقديس أثناسيوس يتكلم عن موت المسيح كوفاء لديـــن لمقابلـــة متطلبـــات ناموس الله. والعلامة أوريجانوس (الذي كانـــت عظاته عبـــارة عـــن تفســـير مسيحي لأسفار الشريعة في العهد القديم) يتكلم عن موت المسيح كذبيحة كفارية للآب لمصالحته مع الإنسان.

مثل هذه الصور تقدم الفداء باعتباره عملا موجها نحو الله أكثر من كونـــه مجرد عمل أتاه الله وأكمله. فإذا كان ناموس الله لابد أن يكتمل، فالله وحده هـــو الذي يقدر أن يوفي متطلبات هذا الناموس. وإن كان الله هو الـــذي لابـــد مـــن مصالحته، فالله هو أيضا المصالح. فالفداء هو عمل الله، ولكـــن مـــن خـــلال البشرية المتحدة مع اللاهوت في المسيح.

عمل الله في تكميل رسالة الخلاص، ودور الإنسان في تـتميم خلاصه:

إن الخلاص من الخطية عمل صعب ومتشعب، وشرحه للمؤمنيـــن عمـــل ضروري. لكن إن كان هذا الخلاص تحقق للإنسان بالعمل الفريد الحاسم لله في المسيح، فإن ثمار هذا العمل الخلاصي لابد أن يتقبلها البشر حتى تؤتي أثرهـــا بالكامل فيهم.

فعلى مستوى التغلب على موت الإنسان، فإن التجسد والقيامة فعلان شاملان في عملهما هذا. والطبيعة البشرية ككل تقبلت هذين الفعلين سريا وكأنـــها قـــد

طُعِّمت باللاهوت (على حد تعبير القديس كيرلس الكبير)[1]، أو بلغتنا الحاضرة كأنها قد حُقنت باللاهوت، وذلك من خلال التجسد، كما أن الطبيعة البشرية ككلٍ قد اجتازت الموت بقيامة المسيح.

وأمام القيامة العامة لكل البشر في اليوم الأخير، فالخاطئ والقديس سيَّان، لابد سيكون لكلٍ منهما قيامة لأجسادهما: «لينال كل واحد ما كان (أي جزاء عمله) بالجسد» (٢ كو ٥:١٠). ولكن على مستوى الخلاص من الخطية وعلى مستوى تقبُّل الطوباتية الأبدية في ملكوت السموات فليس هناك من عمل شامل يعمُّ الجميع بلا استثناء. فلابد من جوابٍ صريح يقدِّمه الإنسان عن حياته السالفة بالجسد. وحتى العلاَّمة الإسكندري أوريجانوس (وهو الذي تمادى فتصوَّر خلافاً لتعليم الكنيسة إمكانية حدوث خلاص شامل لكل البشرية) فهو يؤمن في بعض كتاباته بأن خلاص الناس لن يتم بقدر محتوم من المشيئة الإلهية، بل بالأحرى بمجاوبة حرة يختارها البشر مقابل محبة الله، والبشر لا يمكن أن يقوموا ويخرجوا من السجن (الجحيم) إلا بمحض اختيارهم.

وهنا يثور سؤال: **هل الخلاص يعتمد تماما على عمل الله أم على عمل الإنسان؟**

هذا الموضوع لم يكن مشكلة عويصة لدى معظم آباء الكنيسة، لقد كانوا يعرفون أنهم مبعوثون للبشارة بإنجيل نعمة الله. إنه الواجب والتكليف الذي كانوا مقتنعين أنهم مرسلون لتتميمه. فإن أقبل إنسان إلى الإيمان بخلاص الله أفليس هذا هو عمل نعمة الله؟ إن المبادرة الأولى هي لعمل خلاص المسيح، والكرازة بالكلمة تدعو الناس إلى المجاوبة على هذا الخلاص بالإيمان به،

---

(١) راجع: "الفصل الثاني" من هذا الباب: "الوجه الثاني من قضية الإنسان ـ الموت والحياة"، ص ١٧٤ـ١٨٢.

وحتىَ حرية الإرادة كلها أيضا دليل على أسبقية وفضل نعمة الله. ولكن ما يزال على الإنسان دائما أن يقدم نصيبه، أي المجاوبة والإيمان!

وقد يكون عمل الإيمان من جانب البشر صغيرا جدا ليس أكبر من حبة الخردل، ولكن هذا هو على الأقل دور الإنسان. لأنه إن كان عمل الله هو كل شيء فحسب، أفلا يكون الناس كلهم قد وضعوا في حالة الإيمان والخلاص بطريقة آلية، لا حية، تنبض بنبضات الإرادة الحرة؟!

حقا لقد التقط الإنسان عدوى مرض الخطية، ولكن ليس إلى حد تجريده من حرية اختياره. ومهما كان الخاطئ خاطئا، فهو لم يعدم أن يكون فيه أقل مجاوبة للإيمان في حدود إمكانياته. إذا، فما زال هناك دور على الإنسان لابد أن يؤديه.

ولكن ونحن نتحدث عن ضرورة مجاوبة الإنسان على عمل نعمة الله المتفاضلة للخلاص، يجب أن نحذر من محظورين اثنين:

١. فلا يجب أن نظن أن هذه المجاوبة البشرية على خلاص الله تعني أن قضية الإنسان أو دينونته تتوقفان تماما على مجاوبته بالإيمان، وأن هذه المجاوبة بالإيمان مهما كانت صغيرة فهي في مقدرة الإنسان وحده. إذا، فإننا نكون هنا قد أعطينا الدور الأساسي في خلاص الإنسان للإنسان نفسه وليس لله.

٢. كما أنه لا يجب أن نظن أن الإيمان ينطوي على فرض إرادة المشيئة الإلهية على الإنسان، لأن الصلاح لا يمكن أن يفرض بالقوة على الإنسان، ولأن خلاص الله الذي منحه للإنسان منحه على أساس كونه إنسانا حر الإرادة لا مسلوب الإرادة.

ولكن الإيمان الذي هو مجاوبة الإنسان على نعمة الله ليس فقط هو عمل

الله، ولا هو فقط عملنا وحدنا، إنه كلا الاثنين معا. ففي عمل الإيمـــان، هنـــاك اتحاد سري بين عمل الله وعمل الإنسان بطريقة لا نستطيع أن نميز بينـــهما أو نشطرهما إلى اثنين. فخلاص الله هو عمل إلهي يفوق الزمن والحواس والتحليل العقلي المنطقي، لكنه حقيقة دامغة تظهر وتستعلن بجلاء مدهـــش فـــي ثمـــار الخلاص التي تزخر بها حياة الإنسان الذي يعيش خلاص المسيح بالإيمان ككنز ثمين وهبه الله مجانا له، ويحرسه بالأعمال والجهاد ويقويه بأسرار الكنيسة.

هذه صورة سريعة لتوضيح الرؤية النهائية للآباء الكنسيين فـــي معالجتـــهم لمشكلة الإرادة والنعمة التي نشأت في غضون القرون الخمسة الأولى للميلاد.

الباب الثالث

الخلاص

وأسرار الكنيسة المقدسة

مقدمة

الخلاص أكمله المسيح ابن الله الكلمة المتجسد بحياته وموته وقيامتـه. والآن كيف ينال الإنسان هذا الخلاص، أي يقبله ويتقبله، أي كيف يكـون الخـلاص حقيقة واقعة فاعلة فعالة في حياته اليومية العادية؟ إن قبول هذا الخلاص لـدى الإنسان يتم في الواقع العملي من خلال الأسرار الكنسية المقدسة.

إن المعنى الأول لسر المعمودية المقدسة هو قبول الإنسان المعمد للخـلاص الذي اكتسبه لنا المسيح. ومعنى سر الإفخارستيا هو القبول المتجدد أو تجديـد القبول الأول لنفس هذا الخلاص في حياتـنا اليومية بكل قوته ومفاعيله. هـذا القبول يتم بالإيمان وبالتقدم لنوال نعمة هذا السر الكنسـي أو ذاك، ولكـن دون انزلاق من قبل الإنسان في خطر الشكليات الطقسية أو ممارسـة السـر بـلا استعداد قلبي أو خلوا من الإيمان أو تجاسرا على الأسرار الإلهية بدون مخافـة الله.

ولا شك أن البعض من الخارجين (عن الكنيسة الأرثوذكسية) ينكر ارتبـاط قبول الإنسان للخلاص من خلال الأسرار الكنسية، وهم في هذا يرفضون مـن الأساس مبدأ "تحول الطبائع"، أي تحول مادة السر الذي هـو أسـاس عقيـدة الأسرار لدى الكنيسة المسيحية منذ نشأتها، والذي بموجبـه تـتحول المـادة المخلوقة من كونها حجابا كثيفا وحاجزا منيعا يفصل بيـن الإنسـان والله إلـى صيرورتها، بالتقديس والصلاة، حاملا وموصـلا لنعمـة الخـلاص مـن الله للإنسان، وللشكر والتسبيح من الإنسان إلى الله.

فالماء مثلا الذي هو العنصر المادي في سر **المعمودية** له مغزى ومركـز شاملان في حياة الإنسان. فهو النازل من العلاء إلى الأرض في المطر، وهـو

عنصر الحياة الداخل في كل نواحي حياة البشر؛ وهو يستخدم في حياة الناس للتنظيف والتطهير سواء للإنسان نفسه أو لسائر الأشياء. فالماء بالذات ليس مثل أي مادة أخرى، بل هو ذو قدر خاص في حياة الإنسان يجعله جديرا بحمل هذه النعمة الخلاصية العظيمة الآتية من الله إلى الإنسان، أي نعمة الميلاد الجديد للإنسان، والغسل والتطهير، والموت عن العالم والحياة لله.

ويزيد على ذلك الدور الذي يؤديه الماء في حياة البشر العادية، أن له معنى خاصا نستشفه مما ورد عن الماء في أسفار الكتاب المقدس منذ بدء قصة الخليقة، فإن «روح الله كان يرف على وجه المياه» كما ورد في سفر التكوين ١:٢. كما أنه منذ البداية كان الروح هو القوة الفاعلة في بدايات الخليقة. لذلك كان من المناسب جدا أن يصير "الماء" و "الروح"، مجتمعين، ذوي عمل فاعل في بداية الخليقة الروحانية الجديدة للإنسان التي يتممها الله في العهد الجديد. ثم نجد في باقي تاريخ الكتاب المقدس اللاحق أن نوحا خلص من الهلاك بواسطة الفلك الخشبي الذي شق مياه الطوفان فنجا من الموت، وهكذا يخلص الإنسان من دينونة الموت بواسطة خشبة الصليب من خلال مياه المعمودية. وإسرائيل خلص من طغيان فرعون من خلال عبورهم وسط مياه البحر، وبنفس الطريقة فإن المسيحي يعبر إلى الخلاص من خلال مياه المعمودية، بينما قوات الشر التي كانت قد أسرته سابقا تهلك وتبيد في نفس هذه المياه كما غرق فرعون وجنوده في نفس البحر الذي خلص به شعب الله.

هكذا رأى آباء الكنيسة والمسيحيون منذ البداية رموز الخلاص في أسفار العهد القديم. فكل رموز المياه التي وردت في العهد القديم كانت تحمل معنى باطنيا يرمز إلى سر المعمودية في العهد الجديد. لكن هذه الرؤية لم تكن نابعة من محض أفكارهم أو تصوراتهم، بل إن لها أساسا في تعليم الرسل أنفسهم مثلما ورد في رسالة القديس بطرس الأولى، حيث يربط بين الطوفان وسر

المعمودية هكذا: «... إذ كان الفُلْك يُبنى الذي فيه خلُص قليلون أي ثماني أنفس بالماء الذي مثاله يخلّصنا نحن الآن أي المعمودية، لا إزالة وسخ الجسد، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح» (١ بط ٣: ٢٠و٢١)؛ وما ورد بطريقة أخرى في رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل كورنثوس: «إن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة، وجميعهم اجتازوا في البحر، وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر...» (١ كو ١٠: ١و٢)

إن هناك مغزىً هاماً في هذا الربط بين خلاص العهد القديم وخلاص العهد الجديد. فإن المسيحي الذي نال خلاص المسيح له في المعمودية يرى استمرار عمل الله كخالق وكمخلِّص للبشر منذ بدء الخليقة وعلى مدى الأجيال إلى الآن.

بل إن طقوس ومراسيم المعمودية ككل تحمل رموزا غنية بالمعاني أكثر مما لطبيعة المياه وحدها. فالقديس بولس تكلم في رسالته إلى أهل رومية الإصحاح السادس عن المعمودية على أنها دفن مع المسيح ثم قيامة معه: «إننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة» (رو ٦: ٣و٤ ـ والآيات التي بعدها، وهي تكمل وتزيد المعنى وضوحا). هذا المعنى يظهر بقوة في طقوس إقامة سر المعمودية وفي مناسبة إقامة السر منذ بدء الكنيسة المسيحية وإلى الآن.

فالعماد الذي كان يجرى منذ العصور المبكرة جدا كان في معظمه للبالغين، وكان يتم ـ كما هو ما زال حادثا الآن ـ بالتغطيس ثلاث مرات مصحوبا باستدعاء اسم الثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس. كما كان إتمامه بهذه الصورة المثلثة مرتبطا بالأيام الثلاثة لبقاء المسيح مدفونا في القبر قبل قيامته المجيدة من بين الأموات. لذلك كان يتم العماد مرة واحدة في السنة باحتفال مهيب عظيم في ليلة القيامة، أي الليلة ما بين سبت النور وأحد القيامة،

حيث تدور كل القراءات الإنجيلية حول موت الرب وقيامته.

ولقد كان المتقدمون للمعمودية يقضون فترة كبيرة كموعوظين متعلمين المبادئ المسيحية الأولى استعدادا لمعموديتهم القادمة. وكانت فترة استعدادهم هذه تكتمل بدورة للتعليم المكثف أثناء الصوم الأربعيني المقدس. وقد سجلت لنا كتابات آباء الكنيسة الكثير من تلك العظات والتي كانت تلقى على الموعوظين أثناء الصوم الأربعيني المقدس، مثل عظات القديس كيرلس الأورشليمي مثلا (حوالي عام ٣٥٠م). وفي إحدى هذه العظات (وقد ألقيت بالتحديد في أسبوع الفصح وهو الأسبوع الذي يلي أحد القيامة المجيدة)، يذكر القديس كيرلس سامعيه وقد تعمدوا فعلا حديثا، بمعنى الطقس الذي مارسوه قبل أيام قلائل. فيقول: إن المسيح قد نزعت عنه ثيابه وصلب ودفن وقام ثانية؛ وكل هذا قد حدث حقيقة. أما هؤلاء المعمدون فقد اقتدوا بما تم للمسيح، فهم خلعوا ثيابهم قبل نزولهم إلى جرن المعمودية ودفنوا تحت المياه ثم قاموا ثانية خروجا من المياه. فما فعلوه واضح أنه ليس الدفن الحقيقي مثلما حدث للمسيح، ولكنه مشابهة واقتداء وصورة سرائرية له. أما الخلاص الذي تم لهم من خلال هذه المشابهة فهو بالتمام **حقيقي**.

أما القديس غريغوريوس النيصي الذي يحرص دائما أن يقدم التوضيح لكل ما يدور ويحدث، فهو يؤكد على أن نوالنا خلاصنا إنما يكون بأعمال اقتدائنا بالمسيح. فالإنسان المسافر الذي يضل طريقه في متاهة طرقات متشابكة، إنما يحرص – لكي ينجو – أن يقتفي أثر مرشده ليخرج من هذه الورطة. هكذا المسيح مخلصنا فهو ينجينا بأفعاله الخلاصية من أجلنا ونحن ننال هذا الخلاص باقتفائنا أثر أقدامه وباقتدائنا بما فعله. إن أفعال المسيح خلاصية، وهي تقدم لنا الخلاص، لأن الذي أتى هذه الأفعال هو ابن الله المتجسد من أجل خلاصنا. أما أعمالنا التي نقتدي فيها بالمسيح فإنها تجعلنا ننال قوة هذا الخلاص.

وفي المحاضرة التي افتتح بها القديس كيرلس الأورشليمي سلسلة محاضراته للموعوظين، يذكر مستمعيه بقصة سيمون الساحر وعدم جدوى ممارسته المعمودية التي كان قد نالها لأن قلبه لم يكن مستقيما أمام الله (أع ٨: ١٣-٣٤). لذلك فإن آباء الكنيسة حينما يتكلمون عن المعمودية فهم يتكلمون عن قوتها للخلاص، فهم لا يقصدون مجرد أداء شعائر المعمودية، بل هم يقصدون بالأحرى "سر" المعمودية المصحوب بإيمان في اتحاد لا ينفصم.

إن الخلاص في المسيح يناله الإنسان منذ ولادته الجديدة بالروح القدس في سر المعمودية. لكن هذا الخلاص لا يبقى ساكنا فيه، بل يتحقق ويظهر يوما فيوما من خلال جهاده وعبادته الفردية الخاصة التي تستمد قوتها من الشركة مع الكنيسة، جسد المسيح، في العبادة الليتورجية، حيث صفوف القديسين والملائكة أيضا يجتمعون بأرواحهم يقيمون مع البشر احتفالا كونيا سماويا بذبيحة الحمل السمائي الذي قدم مرة واحدة من أجل الكل على المذبح السماوي الحقيقي أمام عرش الآب.

وهذا الخلاص أو هذا الميلاد الجديد تتجدد مفاعيله من خلال توبة الإنسان المتواترة في سر التوبة، ويتغذى وينمو بتناوله من خبز الحياة في سر الإفخارستيا في إطار شركة الكنيسة، ويفيض عليه بالمواهب والنعم الخاصة من خلال سر المسحة المقدسة، ثم في سر الزيجة وسر مسحة المرضى. ويتعمق من خلال أفعال تكريسه اليومي لله وتقديم نفسه ذبيحة حية في ذبيحة المسيح المقبولة أمام الآب، سواء في تطبيقه الدقيق لوصايا الإنجيل، أو في دخوله التكريس الرهباني، أو في قبوله سر الكهنوت، أو في تفاعله اليومي مع الحياة الكنسية في كافة ممارساتها الطقسية، وما أكثرها وما أغنى النعم المذخرة في كل منها.

وهكذا فإن الإنسان المسيحي وهو يتهيأ لملكوت الله، إنما يمارس خلاصه في

حياته اليومية أيضا ويعيش شاهدا لقوة هذا الخلاص، مشاركا - بأن واحد- في الحياة الإلهية من خلال أسرار الكنيسة المقدسة، وأيضا في وضعه الطبيعي البشري من خلال دعوته للشهادة للمسيح في المجتمع والعالم.

فالأسرار بهذا المعنى ليست مجرد نعمة خاصة تنسكب على الإنسان بممارسته طقسا خاصا، هي كذلك فعلا، ولكن في إطار عملية خلاصه الأبدي الذي ناله أول ما ناله بميلاده الجديد بالمعمودية المقدسة.

هذا هو مفهوم المعمودية في الكنيسة الأولى، وبالذات في كنائس الشرق حيث الممارسة والفعل هما سمة الحياة الكنسية للمؤمنين أكثر من كونها موضوعات للتحليل والجدل. فلم يهتم آباء الكنيسة الشرقية بتأليف "نظرية" عن أسرار الكنيسة، بل اهتموا بتعميق ممارستها وتطبيقها والرجوع إلى تعليم الكتاب المقدس لتعميق اختبار الإنسان المسيحي بنعم الخلاص الأبدي المحمولة إليه من خلالها.

الروح القدس معطي الحياة، ولماذا يصل إلينا من خلال المياه؟

(تعليم للقديس كيرلس الأورشليمي):

[لماذا أشار (المسيح في إنجيل يوحنا ٤:٤) إلى نعمة الروح القدس تحت اسم "الماء"؟ لأنه من خلال المياه كل شيء ينال قوامه. لأن المياه تنتج الخضراوات وتعول الحيوانات. لأن المياه التي من الأمطار تنزل إلينا من العلاء. لأنها تنزل في شكل ما، لكن فعاليتها ذات أشكال متنوعة. لأن نهرا واحدا هو الذي سقى كل الفردوس، والمطر ينزل على كل العالم، لكنه يصير أبيض في زنابق الحقل وأحمر في الورود وبنفسجا في زهور البنفسج... إنه يلائم نفسه لكل من يتقبله. هكذا الروح القدس فهو واحد وذو طبيعة واحدة

وغير منظور، لكنه «يقسم نعمته لكل واحد حسب مشيئته (أي مشـيئة الروح)» (١ كو ١٢:١١). وكما تزهر الشجرة الجافة بالأغصـان إذا ما تلقت المياه، هكذا النفس الخاطئة، فهي من خلال التوبـة تـنعم بالروح القدس وتزهر بثمار الروح القدس. فبالرغم من أنه واحد فـي طبيعته إلا أنه يثمر بمشيئة الله وباسم المسيح.]

القديس كيرلس الأورشليمي

(عظة ١٦:١٢)

الفصل الأول

سـر المعمودية

رموز المعمودية وحقيقة الفداء

إن الحياة المسيحية تبدأ بالميلاد الجديد من المـاء والـروح؛ كمـا سـبق أن أوضحنا. وكما توضّـح كتابـات الرسـل (الإنجيـل والرسـائل) وآبـاء الكنيسة فـي القـرون الثلاثـة الأولـى، فـإن التوبـة مطلوبـة أولاً قبـل المعمودية، أي أن التغيير الداخلي العميق والحاسم كـان شـرطاً لنـوال هـذا السرّ العظيـم(١).

إن رموز المعمودية المقدسة متشـابكة وذات أوجـه عـدة. فالمعموديـة يجب أن تمارَس باسم الثالوث الأقدس. واستدعاء الثـالوث مُعتَـبَر أنـه فـي نفس الوقت شرط ضروري لكمال شرعية السـرّ الكنسـي المقـدس.

ولكن المعمودية هي فوق كـل شـيء "لِبْـسُ المسـيح" (غـلا ٣:٢٧)،

---

(١) هذا المبدأ كان مطبّقاً في فجر المسيحية بسبب أن كل المنضمين إلى الكنيسة كانوا كبار السن وكانـت لهم حياة سابقة على المعمودية، بعيدة عن الله، تستدعي التوبة أولاً. هذا المبـدأ لا يتعارض مع إجراء سر المعمودية للأطفال منذ العصور المبكرة أيضاً، لأن الطفل ليست له حياة سابقة يتوب عنها، بل هو مُـقبِلٌ على حياة لاحقة مطلوب منه فيها الحياة المقدسة. ونعمة الميلاد الجديد من فوق من الماء والروح هي المدخل الوحيد لممارسة هذه الحياة المقدسة.

واتحاد بجسد المسيح (١ كو ١٢:١٣). واستدعاء الثالوث مطلوب، لأنه خارجاً عن الإيمان بالثالوث الأقدس مستحيلٌ أن نعرف المسيح أو أن نرى في الرب يسوع أنه حقاً الرب المتجسد "الواحد من الثالوث". إن رموز المعمودية هي فوق كل رمز تشير إلى الموت والقيامة، أي موت المسيح وقيامته:

+ «أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته. فدفنا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضا في جدة الحياة.» (رو ٦:٣و٤)

لذلك يمكن أن يقال إن المعمودية هي قيامة "سرائرية" في المسيح، أي قيامة تشابه قيامة المسيح من حيث أننا نمارسها بالشبه بدفننا في عمق المياه ثم خروجنا منها. ولكنها قيامة حقيقية معه وفيه إلى حياة أبدية: «مدفونين معه في المعمودية، التي فيها أقمتم أيضا معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كو ٢:١٢). القيامة معه تكون بالدفن معه: «إن كنا قد متنا معه (لاحظ أنه يتكلم بصيغة الماضي، فهو يشير إلى الموت السرائري الذي تم في المعمودية)، فسنحيا أيضا معه.» (٢ تي ٢:١١)

في المعمودية يصير المؤمن عضوا في جسد المسيح مطعما فيه: «متأصلين (أي متأسسين، نسبة إلى أساسات البيت) ومبنيين فيه» (كو ٢:٧). وهكذا فإن نعمة القيامة التي انسكبت على الجميع، والتي سوف تظهر في قيامة البشر العامة في اليوم الأخير للدينونة، سوف يكون لها يوم الدينونة ميزة خاصة على المؤمنين حقا بالمسيح. فمن قبل أن تبلغ نعمة القيامة هذه أوجها في هذه القيامة العامة لكل البشر للدينونة، فإن الحياة الأبدية تكون قد استعلنت في نعمة المعمودية للمؤمنين المولودين من الماء والروح، والتي انسكبت عليهم في المعمودية

وأثمرت اتحادهم السرّي مع الـــرب القـــائم مــن الأمـــوات. فــهذا الاتحـــاد السرّي بالرب هو بشير وضمان قيامتهم الأخـــيرة وحياتـــهم الأبديـــة:

+ «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجـــه مكشـــوف كمـــا فـــي مـــرآة نـــتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجـــد كمـــا مـــن الـــرب الروح... حاملين في الجسد كـــل حيـــن إماتـــة الـــرب يســـوع لكـــي تُظْهَرَ حياة يسوع أيضاً في جسدنا... عـــالمين أن الـــذي أقـــام الـــرب يسوع سيُـــقيمنا نحن أيضاً بيسوع ويُحْضِرُنـــا معكـــم... لأننـــا نعلـــم أنه إن نُـــقِضَ بيت خيمتنا الأرضي فلنـــا فـــي الســـموات بنـــاءٌ مـــن الله، بيتٌ غير مصنوع بيـــدٍ، أبـــديٌّ، فإننـــا فـــي هـــذه أيضـــاً نئـــن مشتاقين إلى أن نلبس فوقها مســـكننا الـــذي مـــن الســـماء.» (٢ كـــو ١٨:٣ ـ ٢:٥ آيات مختـــارة)

نحن سنـــتغير، ولكن لن نكون متغربيـــن عـــن شـــخصياتنا. إن الـــولادة الجديدة في المعمودية ثم الحياة النسكية اليوميـــة التـــي تـــتبعها مرتبطتـــان معا. أي أن الموت مع المسيح (في عمق ميـــاه المعموديـــة)، والقيامـــة معـــه (بخروجنا مـــن جـــرن المعموديـــة)، همـــا فعـــلان مســـتمران منـــذ لحظـــة المعمودية وإلى كل لحظات حياة الإنسان، عـــاملان فعـــلا داخـــل المؤمنيـــن. فالقيامة فعالة ليس فقط كعودة إلى الحيـــاة، بـــل وأيضـــا كارتـــــفاع وتجلـــي في المجد. وهي ليست فقـــط اســـتعلانا لســـلطان الله ومجـــده، بـــل وأيضـــا تجليا للإنسان ليظهر نعمة المعمودية المختـــــفية فيـــه، وذلـــك طبعـــا علـــى قدر ما يموت الإنسان كل يوم: «حاملين كل حيـــن إماتـــة الـــرب يســـوع... لكي تظهر حياة يسوع أيضا فـــي جســـدنا».

حقا، إن الكل سيقوم في قيامة الدينونة، ولكن المؤمنين الحقيقيين هم وحدهـــم الذين سيقومون "قيامة الحياة". فهم لن يمـــثـــلوا أمـــام محكمـــة تدينـــهم، بـــل

سيعبرون من الموت إلى الحياة (اقرأ يو ٥:٢٤ـ٢٩؛ ٨:٥١). إنه فقــط فــي الشركة مع الله ومن خلال الحياة في المسيح، فإن عودة شفاء الإنسان ســيكون لها معنى ومظهر جديدان. أما الذين هم في ظلمة حالكة، والذين بمشيئتهم قــد جعلوا أنفسهم في عزلة وبعد عن الله، فهم قد وضعوا أنفسهم خارج دائرة النــور الإلهي، والقيامة ستبدو لهم غير ضرورية ولا لازمة، إنها ستكون لهم بمثابــة "قيامة للدينونة".

وهنا يمكننا أن نفهم كيف أنه بتجسد الكلمــة الــذي هــو بكــر الطبيعــة البشرية المطعمة في الطبيعة الإلهية، فإن كــل الخلائــق قــد انفتــح أمامــها طريق الشركة مع الحياة وطريــق التبنــي لله. وعــن هــذا يقــول القديــس إيرينئوس أسقف ليون مقولته الشــهيرة:

[ابن الله صار إنسانا ليصير الإنسان ابنا لله.](٢)

أما القديس أثناسيوس الرسولي فهو يقول إن هــذه النعمــة صــارت لنــا لأن المسيح الكلمة المتجسد قــد جعلنــا "مستــقبلين للــروح" الــذي أعدنــا لكلا القيامة والصعود، ثم لسكنى وحلــول الــروح القــدس(٣). فمــن خــلال "**الإله الحامل الجسد**" قــد صرنــا نحــن البشــر "**حــاملين الــروح**". لقــد صرنا "**أبناء**"، "**بالنعمة**"، "**وأبناء الله علــى شــبه ابــن الله**"(٤) . وهكــذا استعيد ما كان قد فــقد منذ الخطيئــة الأولــى لآدم، فــإن "تعــدي الوصيــة

(٢) ضد الهرطقات ٣:١٠:٢.
(٣) "ضد الأريوسيين" ١:٤٦و٢٧؛ ١٠٨ـ١٠٩.
(٤) "تجسد الكلمة" ٨.

حول الإنسان عما كان عليه حسب طبيعته"(٥)، أي حوله عن حالة الرفعة التي أنعم بها الله عليه منذ خلقته ـ أي حالة التبني أو الولادة من الله التي وهبت لآدم من دون باقي الخليقة(٦) ـ كما يعبر عن ذلك الإنجيل في وصفه نسب آدم الإنسان الأول: «... آدم ابن الله.» (لو ٣:٣٨)

□□□

سر المعمودية، وسر الميرون

المعمودية وسر حلول الروح القدس:

إن القديس بولس الرسول يصف المعمودية بأنها دفن مع المسيح وقيامة معه. أما القديس يوحنا الرسول فهو يتكلم في إنجيله ورسائله عن احتياج الإنسان إلى أن «يولد من الماء والروح» (يو ٣: ٥). وهذا التعبير الأخير يركز الانتباه على صورة المعمودية باعتبارها الميلاد الجديد الذي يتم بتوسط العاملين المتحدين معا: العنصر الأول وهو منظور (أي الماء)، والعنصر الثاني غير المنظور (أي الروح القدس).

هذه الصورة الأخيرة يشرحها آباء الكنيسة كثيرا. فالعلامة ترتليانوس يرى أنه كما أن روح الله كان يرف على وجه المياه في مبتدأ الخليقة، هكذا تماما فإن روح الله الآن يرف على مياه

---

(٥) "تجسد الكلمة" ٤.

(٦) "ضد الأريوسيين" ٢: ٥٨و٥٩و٢و٢٧و٧٣.

المعمودية، وهو يوصل ـ واقعيا ـ لهذه المياه من قداسته لتنتقل إلى المعمد.

والروح القدس هو مانح المواهب. لأنه إن كانت المعمودية هي اللحظة التي فيها يقبل الإنسان خلاص الله، وفيها ينال الاستنارة (أي استنارة النفس بروح الله)، والميلاد الجديد ومغفرة الخطايا السابقة (إن كان المعمد بالغا)؛ فهو أيضا ينال الروح القدس نفسه في سر المسحة كعطية خاصة من الله لبني البشر.

فإن كان الإنسان يصير في المعمودية ملك المسيح، فهو لابد أيضا سينال روح المسيح. لأنه مستحيل أن نتصور أن يكون هناك مسيحي بدون الروح القدس بحسب قول الرسول بولس: «إن كان أحد ليس له روح المسيح، فذلك ليس له (أي أن من ليس له روح المسيح فهذا "أي المسيح" ليس له، أو فهو "أي المعمد" ليس للمسيح ـ لأن الترجمة اليونانية لنص آية القديس بولس تحتمل المعنيين).» (رو ٨:٩)

لذلك، فإن المعمودية وإعطاء الروح القدس سران قائمان كل سر بذاته، ولكن مرتبطان معا.

نموذج في سفر الأعمال:

وفي سفر الأعمال نجد ملاحظة أخرى جديرة بالانتباه. ففي الإصحاح الثامن من سفر الأعمال، نقرأ عن تجديد أهل السامرة نتيجة تبشير فيلبس أحد الشمامسة السبعة. فقد عمدهم فيلبس، لكنهم ـ كما يذكر سفر الأعمال ـ لم يقبلوا الروح القدس. ثم أتى الرسولان بطرس ويوحنا ووضعا عليهم الأيادي وحينئذ حل عليهم الروح القدس.

في طقوس المعمودية المبكرة جدا (حوالي أواخر القرن الثاني)،

كانـــت المعمودية يتبعها مباشرة الدهن (بزيت) المـــــيرون المقـــدس ووضـــع يدي الأسقف على المعمد. وقد كـــــان طبيعيـــا فــــي (ســـر) إعطــــاء الـــروح القدس أن يكون مرافقــــا لطقـــس وضـــع الأيـــدي. ويصـــف هــذا الطقـــس العلامة ترتليانس عن إنسان تـــقبل الروح القدس فـــــي المعموديـــة فيقـــول:

[ليس في المعمودية وحدهـــــا ننــــال الـــروح القـــدس، لأننـــا فـــي المعمودية نـــــــــتطهر ونــــــتهيأ لنـــوال الـــروح القـــدس (فـــي ســـر المـــيرون)].

فسر المسحة المقدسة الذي يتبـــع ســـر المعموديـــة مباشـــرة، هـــو الســـر الذي فيه نـــتـــقبل موهبة (أي عطية) الروح القـــدس. فـــالروح القـــدس هـــو عطية الله للإنسان المولود جديـــــدا لله.

معنى ارتباط السرين في الممارسة معا:

في الطقس الكنسي لا يمكـــــن فصـــل هذيـــن الســـرين: ســـر المعموديـــة وسر المسحة المقدسة بعضـــــهما عـــن بعـــض فـــي الممارســـة، أو إجـــراء أحدهما وإرجاء السر الآخر. لأنه كيف يمكـــن أن يولـــد الإنســـان جديـــدا ولا ينال روح الحياة في المســـــيح يســـوع، حتـــى يمكنـــه أن "يحيـــا بـــالروح" و "يسلك بحسب الـــــروح"؟

ولكن قد يعرض لقارئ تـــاريخ الكنيســـة أن يصـــادف بعـــض الحـــوادث الاستـــثـــنائية جدا في القرون المبكرة مـــن المســـيحية، حيـــث أجـــري ســـر المعمودية فقط، وقد كان ذلك لأســـباب طارئـــة؛ فقـــد عمـــد شـــخص وهـــو على فراش الموت على يد كاهن في درجـــة قـــس ولـــم يعـــرض أن يكـــون الأسقف في نفس المكان في نفـــس الوقـــت، وكـــان الأســـقف هـــو المكلـــف وحده قديما بإعطـــــاء الـــروح القـــدس بوضـــع الأيـــدي والدهـــن بالمســـحة

المقدسة، مما حتم بعدم إجراء سر الميرون أو وضع الأيدي، ثم حدث أن عوفي هذا الإنسان. وقد كانت تحدث مثل هذه الحادثة في عصور الاضطهاد الأولى. وقد قبلت كنيسة روما آنذاك مثل هذه المعمودية، ولكن أتبعتها بعد شفاء المريض بوضع يد الأسقف وبدهنه بسر الميرون، واعتبر ذلك وضعا استثنائيا لا يعكر القانون العام.

وقد حدث شيء شبيه بهذه الحادثة في الإسكندرية، حينما كانت سيدة مسافرة من أنطاكية في مركب مع ولديها قاصدة الإسكندرية لتعميدهما على يد البابا الإسكندري بطرس (خاتم الشهداء، المستشهد سنة ٣١١م). فقامت العواصف والأنواء في عرض البحر، فخافت الأم على ولديها لئلا يموتا دون أن يعمدا، فجرحت ثديها الأيمن وأخذت من الدم على إصبعها ورشمت على ولديها بالدم قائلة لكل منهما: أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس. وتقول القصة إن الأم وولديها نجوا ووصلوا إلى بابا الإسكندرية ليقوم بتعميد الولدين، ولم تعلمه بما حدث. فحدثت أعجوبة، إذ كلما يهم البابا بإنزال أحد الوليدين في جرن المعمودية يجد أن المياه قد تجمدت، فيغيرها، وهكذا إلى ثلاث مرات. فلما استفسر من الأم عن الأمر وعرفه، اعترف بصحة المعمودية ولم يعدها، ورشم الوليدين بزيت الميرون المقدس فقط.

هاتان الحادثتان وغيرهما قد يقرأهما قارئ تاريخ الكنيسة، وهما لا ينبغي أن يوقفاه أمام أية تساؤلات. ذلك لأنها تدخل في باب الاستثناءات العارضة، وهي لا تؤثر على القانون العام، بل هي بالأحرى تظهر العمل الإلهي الباهر الذي يتم في الأسرار الكنسية المقدسة، وتظهر لنا قيمة كل سر وأهميته وضرورته في حياة المؤمن، والقانون الذي يحكمه. ومن القصة السالفة نتعلم على فم القديس البابا بطرس خاتم الشهداء:

[إن المعمودية واحدة لا تتكرر (يشير إلى المعمودية التي أجريت بصفة استثنائية وليس بحسب الأصول الكنسية، بسبب الطارئ الذي حدث وبسبب بساطة المرأة التي فعلت ذلك وصدق نيتها). وهذه العلامة التي أعلنها الآب السماوي (أي تجمد الماء) تجعلني أكتفي بدهن ولديك بالميرون المقدس].

حتمية إجراء السرين معا

المعنى اللاهوتي وراء ذلك:

وعلى الإنسان ـ كما يقول القديس يوحنا الرسول ـ أن ينال معمودية "الماء والروح"، أي سري المعمودية والميرون المقدس معا. فكلا السرين حتميان لتكميل قبول المؤمن لخلاصه الأبدي.

على أن ما ناله المؤمن في ميلاده الجديد وتوشحه بالروح القدس، ليس إلا بداية الطريق. فالميلاد الجديد يؤول، بجهاد الإنسان اليومي من أجل أن يتمم خلاصه بخوف ورعدة، إلى نمو ونمو لا ينتهي، إلى أن يصل الإنسان الجديد إلى قامة ملء المسيح (أف ٤: ١٣). والروح القدس الذي استقر في الإنسان بسر المسحة المقدسة يضطرم ويضطرم ويضطرم إلى أن يصير الإنسان بحق هيكل الله في الروح (أف ٢: ٢١و٢٢)، وينال نصيبه من مواهب الروح القدس حسب ما يقسمه الروح له (١ كو ١٢: ١١)، ويثمر ثمار الروح من محبة وفرح وسلام في الروح القدس (غل ٥: ٢٢و٢٣).

معنى إجراء سري المعمودية والميرون معا:

في التطبيق العملي كما قلنا، فإن سر المعمودية وسر المسحة

المقدسة قد كانا وما زالا، كما كان منذ العصور المبكرة، يجريان معا في احتفال ليتورجي واحد.

ولا تؤمن الكنيسة الأرثونكسية بفصل السرين عن بعضهما من الناحية الزمنية[٧]؛ كأن يجرى سر المعمودية في وقت، ثم يجرى سر المسحة في وقت لاحق أو سابق، كما حدث في بعض الطوائف، حيث قسموا عملية إعطاء الروح القدس إلى قسمين: إعطاء أولي في المعمودية، ثم إعطاء للتثبيت[٨] في وقت لاحق. ذلك لأن مثل هذا الفصل والتقسيم يؤدي أيضا إلى الفصل في المعنى العميق لكل من السرين.

فالاتحاد بين السرين ليس مجرد طقس ليتورجي، بل هو تعبير – وأي تعبير – عن الحقيقة اللاهوتية الباهرة المختصة بالوحدة بين الثالوث الأقدس في إكمال عمل الفداء. فالمسيح (الابن المتجسد) والروح القدس كانا في شركة في إكمال عمل الفداء. فالروح القدس أعطي للتلاميذ من المسيح القائم من بين الأموات، ثم الصاعد إلى السموات: «لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد» (يو ٧:٣٩). كما أن المسيح حينما حل زمان تجسده استبقه الروح القدس إلى أحشاء العذراء مريم، وعند الأردن حيث أعلن

---

(٧) ليس عبثا تعتقد الكنيسة الأرثونكسية بهذا الاتحاد بين السرين؛ بل إن هذا الاعتقاد كما يترجم إلى طقس ليتورجي، يجب أن يتحول إلى منهج تعليم ووعظ وبنيان أيضا. فلا يصح أن يقتصر التعليم والوعظ المسيحي – أو أن يستأثر – بالتأمل في حياة المسيح وأقواله وتفسيرها فقط؛ بل لابد أيضا إلى جانب ذلك أن يكون هناك التعليم، بنفس الدرجة والحرارة والتركيز، على عمل الروح القدس في تكميل خلاصنا، وإضرام النفوس للاشتياق إلى مداومة الملء منه واقتنائه والسلوك بحسبه؛ لتكتمل وتتكامل حياة المؤمن في خلاص المسيح الكامل.

(٨) تفضل الكنيسة الأرثونكسية تسمية هذا السر بسر الميرون المقدس.

الروح للجموع شخص المسيح كابن للآب. والمسيح نفسه بعد القيامة وقبيل الصعود أوصى تلاميذه أن لا يبرحوا أورشليم ليبدأوا الكرازة بخلاصه الأبدي إلا بعد أن يحل عليهم الروح القدس ويملأهم، ذلك لأن الروح القدس هو الذي يشهد للمسيح وهو الذي يمنطق الكارزين باسم المسيح.

فالمعمودية التي هي اقتداء بالمسيح، مرتبطة بسر حلول الروح القدس ارتباط المسيح بالروح القدس.

حلول الروح القدس وتكوين الكنيسة:

بعد صعود المسيح، فإن الروح القدس العامل في سر الفداء أعلن المسيح أنه ليس فردا مفردا، بل "كثرة". فشخص المسيح بعد الصعود وإرساله الروح القدس هو "جسد" سري سرائري **Mystical** [1] وله أعضاء كثيرون. فالروح القدس يحمل دائما سر الشركة **κοινωνία**، ويجعل الكنيسة هي بحق جسد المسيح وله أعضاء كثيرون.

ففي سر الميرون يتوشح المؤمن المولود جديدا من الماء والروح بالروح القدس، لا ليكون مسيحيا مفردا وحده أو لنفسه، بل ليلتحق بعضوية جسد المسيح الحي المحيي، ويصير عضوا حيا مع سائر الأعضاء الأحياء في جسد المسيح. وهذا هو ما يسمى أيضا بسر الكنيسة.

---

[1] من كلمة **Mysterion μυστήριον** اليونانية، والتي أطلقت على الأسرار الكنسية التي من خلالها تستعلن الكنيسة وتتحقق وحدتها في المسيح، ويعاد حضور الفعل الإلهي وسط الكنيسة. لذلك يصح القول عن الكنيسة أنها جسد المسيح "السري" أي **Mystikos μυστικός** نسبة إلى طبيعته السرائرية التي تتميز عن طبيعة الجسد البشري للإنسان، وعن الجسد "المعنوي" الذي يطلق على المؤسسات والهيئات العالمية ذات العضوية المنتظمة.

معمودية الأطفال

وحرية الإنسان

إن أبسط تصوير لسر المعمودية هو أنها "غسل" أو "حميم". ففي جرن المعمودية يغتسل الإنسان (البالغ) من كل ماضيه الشرير؛ أي أن كل خطاياه القديمة تغفر له. وهنا تكون قوة المعمودية سارية على الماضي. وهذا أحد أفعال المعمودية ولكن ليس كلها، فهي قوة أيضا لنوال الروح القدس الحافظ للإنسان في طريق الحياة، والممهد له أن يمارس الأعمال الصالحة وحياة البر، والفاتح له باب الشركة والاتحاد مع الله.

المعمودية والتوبة في الكنيسة الأولى:

والمعمودية وهي تغفر الخطايا السالفة، تعطي القوة للحياة الصالحة اللاحقة، فهي نعمة الإنسان الحر الإرادة، الذي أصبح عليه واجب استثمار هذه النعمة للبقاء والنمو في حياة البر.

وحينما ننظر إلى سر المعمودية بهذه الرؤية كبداية جديدة وكتطهير من أدران الماضي يثور سؤال مهم هو: خطايا ما بعد المعمودية. ففي بعض أسفار العهد الجديد التي كتبت في أواخر القرن الأول كان هناك تعليم بأن الخطية التي ترتكب بعد المعمودية لا غفران لها. فلا شيء يمكن عمله "للكلب الذي يعود إلى قيئه، وللخنزيرة المغتسلة التي تتمرغ في حمأة الطين" (٢بط ٢:٢٠-٢٢، راجع عب ٦:٤-٦، ١ يو ٥:١٦). وعيسو الذي كانت له فرصة التوبة لكنه رفضها بمحض مشيئته، لما طلبها ثانية بدموع لم ينلها (عب ١٢:١٦و١٧).

وهذا التعليم كان منتشراً في الكنيسة في غضون القرن الثاني الميلادي: "لا توبة للإنسان إلاَّ تلك التي قبل المعمودية، قبل نزولنا في مياه الاغتسال التي تمحو عنَّا خطايانا السابقة".

كان ذلك الوضع الصعب طبيعياً في بداية المسيحية، حينما كان الذي يتقدم إلى المعمودية شخصاً بالغ السن، والذي كان قبل إقدامه على المعمودية قد عزم عزماً صادقاً لا ضغط عليه فيه، أن يسلك طريق الإيمان والحياة الصالحة. ولذلك فقد كان رجوع الإنسان المعمَّد إلى حياة الخطية السابقة وعبادة الأوثان أمراً، بالرغم من أنه كان نادر الحدوث، إلاَّ أنه كان مثيراً للتساؤل عن جدِّية المتقدم للمعمودية.

ولكن بازدياد عدد المؤمنين، وباشتداد الاضطهاد، الأمر الذي دفع بعض المسيحيين الضعفاء إلى الارتداد ولكن سرعان ما عادوا إلى حظيرة الإيمان ثانية، ثار سؤال هام في الكنيسة: "هل يقبل مثل هؤلاء أم لا"؟

وقد عالج مؤلف كتاب "الراعي" واسمه "هرماس" (وهو من الكتاب المسيحيين المشهورين في القرن الثاني الميلادي) هذه المشكلة على النحو التالي: بأن مثل هؤلاء لا ينبغي أن يقبلوا ثانية في المسيحية بالرغم من أنهم راجعون بتوبة وندم حقيقيين، ذلك لأن في حياة المسيحي (حسب ما ذكر هرماس) لا يوجد إلا توبة واحدة فقط، وهي التوبة عند جرن المعمودية. ولكن هذه المعالجة للقضية لم تكن حلا للمشكلة بل تأجيلا لها فقط.

وقد أدت هذه الأفكار لدى بعض مسيحيي القرنين الأولين وإزاء هذا الاتجاه الحازم، إلى تأجيل معموديتهم إلى ما قبل فراش الموت. ولكن هذا الحل لم يكن بالحل الملائم والممكن. لأنه من يستطيع أن يضمن إمكانية معموديته لحظة موته أو قبلها؟

لذلك، فإن مواجهة الكنيسة لهذه المشكلة أدى إلى ازدياد استثمارها لإمكانيات سر المعمودية جيدا للاستفادة من قدراتها الكافية أكثر فأكثر. فإن المعمودية لم تكن فقط قوة لمغفرة الخطايا، بل كانت أيضا - إلى جانب هذا - قوة متجددة مجددة تظهر وتحرض على الحياة المقدسة طوال حياة المؤمن، ويمكن تجديد قوتها بالتوبة اللاحقة في الحياة اللاحقة.

(وهذا هو المدخل الحقيقي لسر التوبة في الكنيسة الأرثوذكسية).

وإلا - كما تساءل البعض - فإن كانت المعمودية فقط هي لمغفرة الخطايا السابقة، إذن فلماذا يعمد الأطفال المولودون من بطون أمهاتهم وهم "لم يفعلوا خيرا أو شرا" - كما يقول الكتاب المقدس في حديثه عن يعقوب وعيسو (رو ٩:١١).

معمودية الأطفال:

إن إيمان الكنيسة الأرثوذكسية هو أن معمودية الأطفال ممارسة قديمة قدم المسيحية نفسها. وبالرغم من أنه ليس هناك نص آمر بهذا في أسفار العهد الجديد (مثلما لا توجد نصوص كتابية آمرة لكثير من الممارسات المسيحية لكنها تسلمت بالتقليد الشفاهي)، إلا أن التقليد المسلم منذ العصور الأولى يرتب بأن طبيعة المعمودية لا تقتصر على مغفرة الخطايا الفعلية السالفة التي ارتكبها الإنسان البالغ بمحض رغبته، بل لأنها في الواقع تحمل ميلادا روحيا جديدا للإنسان إلى حياة روحية جديدة غير حياته الجسدية التي وهبها من والديه - وذلك بحسب كلام المسيح نفسه الذي قارن ضمنا أو وافق على هذه المقارنة (في حديثه مع نيقوديموس - إنجيل يوحنا إصحاح ٣) بين الولادة الجسدية والولادة من الماء والروح.

وبالرغم من أن الممارسة الغالبة فعلا حتى أوائل القرن الثالث كانت أن

البالغين هم الذين كانوا يتــقدمون للمعمودية بسبب انتشار البشارة والكرازة بين الوثــنيين وقبول أعداد غفيرة منهم للمسيحية؛ إلا أن معمودية الأطفال لم تكــن ممنوعة، كما لم يرد أي نص أو تلميح إلى وجود حتــى خــلاف حــول هــذه الممارسة.

فالمعمودية كانت أولا دخولا في شركة الكنيسة المسيحية، وواسطة لنـــوال نعمة الحياة الجديدة في المسيح، وقبول عطية الروح القدس القــادر أن يقــدس الحياة وينميها في طريق ملكوت السموات.

أفليس من الطبيعي أن يسعى الوالدون إلى تقديم هــذه العطايــا والبركــات الروحية وأولاها الحياة الجديدة إلى أطفالهم، وكما أعطوهم مـــن قبــل الحيــاة الجسدية فما الذي يمنع أن يعطوهم أيضا الحياة الروحية من جرن المعمودية؟

وليس في هذا أي قهر لحرية إرادة أطفالهم، مثلما أنه لم يكن هنـــاك قــهر لحرية إرادة أطفالهم حينما ولدوا للحياة الجسدية برغبة ليست هي رغبتهم بــل برغبة والديهم. ومع ذلك فالطفل يأتي إلى الحياة حر الإرادة، وحينما يبلغ رشده يمارس هذه الحياة ويستخدمها كإنسان حر تماما بالرغم من أن تمتعه بهذه الحياة الجسدية قد بدأ بدون رأيه. هكذا نظر الآباء والأمهات المسيحيون والمســيحيات إلى نعمة الحياة الجديدة التي من الروح القدس حينما كانوا يتــقدمون ليعمـــدوا أطفالهم وهم صغار.

ملخص النظرة الروحية الأرثوذكسية للمعمودية:

إن تعليم آباء الكنيسة عن الخلاص قائم على أن البشرية ورثــت، لا خطيــة آدم التي هو وحده مسئول عن ارتكابها، بل ورثـــت الطبيعـــة البشــرية التـــي سقطت وتــقيدت حريتها الحقيقية بالموت بسبب دخول الخطية إلى العالم بخطية آدم، وهكذا ورثـــت الموت والفساد: «لأن أجرة الخطيـــة هـــي مـــوت» (رو

٢٣:٦). ولكن هذه الحالة التي ورثتها الأجيال من "آدم العتيق" بالميلاد الجسداني، قد تحولت بالتجسد والفداء الذي أتمه "آدم الجديد" إلى حياة في المسيح، التي هي في واقعها حياتنا البشرية نفسها، ولكن تجددت في المسيح واشتملت بعطية الروح القدس التي انسكبت عليها في الكنيسة.

فالمعمودية، بحسب آباء الكنيسة، هي الولادة الجديدة في المسيح لتنال طبيعتنا البشرية حالتها الأصلية التي لم يعتورها الفساد، والتي ستنال أيضا ما لم ينله آدم من شركة واتحاد بالله.

وهكذا، فإن آباء الكنيسة يركزون في تعليمهم عن المعمودية أنها "ولادة جديدة". ويوم المعمودية هو يوم الولادة الحقيقية للإنسان، لأن فيه يخلق جديدا وتتشكل صورته الحقيقية جديدا في المسيح، لذلك يأخذ تسمية جديدة أيضا. فالمعمودية في وصف آباء الكنيسة وطقوس صلوات المعمودية تأخذ هذه الأسماء: "ولادة – ميلاد جديد – حميم (أي استحمام) – لبس اللباس غير الفاسد – مسح – عطية – استنارة". وكلها تعني شيئا واحدا: إن هذا السر هو بداية الوجود لمن أتوا للحياة والشركة مع الله.

المعمودية وحرية الإنسان:

فإذا ما اعتبرنا المعمودية "ميلادا جديدا"، فإن هذا ينطوي على أنها عطية حرة مجانية من الله، وهي لا تتوقف على اختيار الإنسان أو موافقته حتى ولو كان في كامل وعيه وبلوغ رشده – كما أوضح آباء الكنيسة في مثال الميلاد الجسداني للإنسان.

ولأن المعمودية في الكنيسة الأرثوذكسية لا ترتكز على مجرد فكرة "الخطية" التي تجعل حتى من الوليد (الذي لم يفعل خيرا أو شرا) خاطئا ملتزما بالتوبة (وهي عمل حر إرادي)، بل ترتكز عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية على

حقيقة أن الإنسان في كل مراحل حياته بما فيها الطفولة محتاج إلـى أن "يولـد جديدا"، أي أن يدخل حياة الروح، ويبدأ حياته الأبدية في المسيح؛ لذلـك فـإن الغاية النهائية الأبدية للميلاد الجديد شيء لا يمكن إدراكه وفهمه حتى ولو كـان المعمد بالغ السن واعيا حتى بالأمور الروحية. فالحياة الأبدية هـي سـر لـن يستعلن بكماله إلا في الدهر الآتي.

فإذا تعمد الإنسان، يصير عضوا في جسد المسيح، وهكذا يصير مرة أخرى متمركزا حول الله، وهكذا يستعيد وضعه وحالتـه الطـاهرة التـي فقدهـا آدم بخطيته، وفقدتها البشرية من بعده. فإذا ما عاد إلى حالته الأولى حين كـان الله هو مركز حياته، فإنه يسترجع أيضا مصيره الأبدي الذي كان مقدرا له بلوغـه، لو لم يكن آدم قد أخطأ. إنه الحياة والنور والمجد الأبدي. هو شـيء لا يمكـن وصفه الآن ولا إدراكه، ولا مقارنته بمعايير حياتـنا الحاضرة.

ويحتـفظ الطقس القبطي الأرثونكسي للمعمودية بالممارسة القديمـة قـدم عصر الرسل، المختصة بجحد الشيطان والاعتراف بالإيمـان الـذي يمارسـه المعمد (إن كان بالغا) أو والداه (إن كان طفلا)؛ وبحسب صلوات وإجـراءات هذا القسم من ممارسة سر المعمودية، فإن هدف هذا الطقس هو "عدم الرجـوع إلى عبودية الشيطان، واستحقاق الامتلاء من قوة الروح القدس؛ ليصير المعمـد من ضمن رعية الآب، وبني الخدر السماوي والوارثين للملكوت غـير الفاسـد الأبدي".

إن المعمودية بهذا تهب الإنسان قوة الحرية الحقيقية بانتـقاله من كونه عبدا للشيطان، ليصير حرا ضمن أبناء الآب السماوي.

□□□

الطقس والإيمان والحياة

في الفصول السابقة التي تحدثـنا فيها عن تعليم آباء الكنيسة القديسين عن سـر المعمودية، ناقشنا كل ما يتصل بهذا السر من مسـائل وأسـئلة: سـر المعموديـة وارتباطه الوثيق بسر الميرون (التـثبيت)، سر المعمودية وطقس الكنيسة، معموديـة الأطفال، عدم جواز اقتصار تـفكيرنا عن سر المعمودية بأن مفعولـه يقـع علـى الماضي فقط أي مغفرة الخطايا، بل بجانب هذا الفعل (في حالة معمودية البـالغين) فهو يسري على المستـقبل أيضا (في كل حالات المعمودية)، فهو مدخلنا إلى الحياة الجديدة كشركة بين الإنسان والله، شركة تـفوق كل مقاييس زماننا الحاضر.

* * *

وبالإضافة إلى هذه الجوانب لسر المعمودية، فهناك جانب آخر على قدر كبـير من الأهمية، وهو كثيرا ما يثير الجدل مع الطوائف التي لا تعتـقد في فاعلية سـر المعمودية. هذه المشكلة هي: الرمز والطقس، ومعناه؛ وعلاقـة هذيـن الاثـنين بعضهما بالبعض، أي اتحاد المعمودية بالإيمان. هذا الموضوع كان مثار اهتمام آباء الكنيسة بالدرجة الأولى، وهو الذي ينبغي أن يكون موضوع اهتمامنا نحن أيضـا، واهتمام الأجيال المتلاحقة دائما.

فنحن، في الواقـع العملي، لا نـرى أن هـذين الاثـنين – أي السر ومعناه – يرتبطان معا دائما في حياة كل المؤمنين، مما يثير الكثير مـن الجـدل مـع غـير المؤمنين بفاعلية الأسرار، إضافة إلى أنه يعرض حيـاة المؤمنيـن لخطـر عـدم الخلاص في الزمان الأخير، إذا فصلوا بين السر والحياة.

إن آباء الكنيسة – في هذه المسألة – لم يقعوا في خطأ إلقاء الثـقل كلـه (فـي أسرار الكنيسة) على الطقس الخارجي وحده. فكما قلنا نعود ونكرر إن المعموديـة كطقس في حد ذاتها ووحدها لا تخلص؛ لأن المعمودية كما أنها نهاية لحياة قديمـة،

كذلك فهي بداية للحياة الجديدة مع الله، إذ أنها تهب كل القوى والطاقات المنسكبة من صليب المسيح وقيامته للإنسان المعمد ليمكنه أن يحيا قيامة الرب من بين الأموات. إن هذه القوى والطاقات هي هبة خلاص المسيح الممنوحة للإنسان حر الإرادة بعد أن شفيت إرادته من مرض الفساد ولوثة الخطية، وعليه الآن أن يكمل حياته الجديدة بإيمانه وأعماله كل يوم.

إن السر الكنسي ليس سحرا بل سرا. والفرق بين المفهومين يكمن في أن السر هو القوة الممنوحة للإنسان حر الإرادة المخلوق على صورة الله ومثاله؛ بينما الظن الخاطئ في السر الكنسي بأن الممارسة الشكلية له دون الإيمان يمكن أن تخلص، هو مفهوم الإنسان مسلوب الإرادة، الذي يريد أن ينال الإكليل دون جهاد، ويصل إلى نهاية السباق دون ركض. إن الإنجيل يعد بالحياة للمؤمن بوصفه: "من يغلب"، و "من يصبر" و "من يركض". والغلبة والصبر والركض كلها تشبيهات مقتبسة من جهاد الحرب والمعاناة والسباق.

ولكن بالرغم من أن آباء الكنيسة كانوا متيقنين من هذا أن الطقس الخارجي وحده ليس كافيا، إلا أنهم كانوا يعتبرونه جد ضروري ولازم للخلاص. فالإيمان دون الفعل الكنسي أيضا لا يخلص. وقد عبر الرب يسوع المسيح نفسه عن هذا بقول واضح: «من آمن واعتمد خلص. ومن لم يؤمن يدن» (مر ١٦:١٦). فالخلاص يستلزم الإيمان والفعل الكنسي الطقسي كليهما معا. وعدم الإيمان لا يغني عنه الفعل الطقسي وحده للخلاص. فالخلاص لا يؤمنه فعل المعمودية إذا خلا من الإيمان والعمل في حياة المؤمن، كما لا يؤمنه انعدام الفعل الطقسي الكنسي.

إن هناك استثناء واحدا اعتبره وقدره آباء الكنيسة، وهو الاستشهاد بسفك الدم؛ فإن الموعوظ الذي كان يتهيأ لنوال سر المعمودية إذا استشهد من أجل إيمانه واعترافه بالمسيح (اللذين كانا سيتكملان بالمعمودية في موعدها المحدد)، فهو معتبر كأنه تعمد؛ بل إن معموديته هنا قد تكملت ــ ليس بالماء ــ بل بالدم على مثال

معمودية المسيح نفسه التي تمت على الصليب (المسيح ـ له المجد ـ سمى موته على الصليب معمودية "بابتزما" أي "اصطباغ" أو "صبغة" ـ راجع لوقا ١٢: ٥٠). ويدخل ضمن هذا الاستثناء أيضا، أن اشتهاء المعمودية إذا استبقها الموت الطبيعي فهو (أي اشتهاء المعمودية) يعتبر مساويا للمعمودية نفسها.

ولكن كل هذه الاستثناءات لا تعيق سريان القانون الإلهي بلزوم المعمودية للخلاص.

إن المشكلة القائمة أمامنا هي مشكلة جد حقيقية وواقعية. فنحن لا نستطيع أن ندعي بأن كل المسيحيين المعمدين يقرنون معموديتهم بالإيمان والحياة بحسب النعمة التي حلت عليهم في سر المعمودية، وأن ممارستهم الطقسية تقترن بالمعنى الكامن فيها. إذا ادعينا ذلك فنحن نعيش في وهم، فكثيرا ما يعيش المسيحيون حياة يظهر فيها هذا الانفصال بين السر والإيمان وبين الطقس والحياة. لذلك فنحن لا نكف عن الدأب، ولا ينبغي على معلمي الكنيسة أن يملوا من تذكير المؤمنين دائما بالمعنى الكامن في السر، وبالقوة والطاقة التي تعمل فيهم بسبب ما نالوه وينالونه في الأسرار، وبحتمية تحقيق هذه الوحدة الكائنة بين الطقس ومعناه وبين السر والحياة بحسب مضمونه. إذ سيكون نتيجة تحقيق هذه الوحدة شهادة باهرة للمسيح وخلاصا وحياة للمؤمنين.

فأنت قد ترى إناء جميلا أو فازة فنية رائعة ولكنها محطمة إلى قطع وكسر متناثرة. إنك لا تستطيع أن تتبين جمال هذا الإناء أو روعة هذه التحفة من محاولتك فهم الجمال الكائن في قطعها المتناثرة كل كسرة على حدة. بل إن جمال الإناء أو التحفة لا يرى ولا يفهم إلا بالتأمل في كيانها وهي كل واحد غير متجزئ. هكذا الأسرار الكنسية، لا يمكن تبين وفهم مضمونها والتطلع في جمالها وهي مجزأة إلى طقس ـ إيمان ـ حياة ـ أعمال؛ كأن نمعن في تبيان جمال الطقس الخارجي دون فض سر جماله وهو الإيمان، أو محاولة تبيان وفهم الإيمان وحده مجردا عن

الشكل الخارجي المعبر عنه وهو الفعل الكنسي الطقسي الخارجي الـــذي يحتـــوي الإيمان ويحفظه.

طقس التغطيس وشرعية المعمودية:

وهذا كله يقودنا إلى الطقس الأساسي في سر المعمودية وهو "التغطيــــس". فالكنيسة الأرثونكسية كلها ما زالت تحفظ بإيمان وإخلاص الممارسة الأصليـــة القديمة لسر المعمودية، أي تغطيس المعمد ثلاثا، معتبرة أن قانونية المعموديـــة وصحتها تستلزم التعميد بالتغطيس «فدفنا معـــه بالمعموديـــة للمـــوت...» (رو ٦:٤)، متسائلة عن جدوى وصحة المعمودية بالرش الذي دخـــل إلـــى بعـــض الطوائف الغربية على غير أساس من الطقس الأصلي. فالتغطيس ثلاث مـــرات هو الممارسة الإيمانية لموت ودفن المسيح في القبر ثلاثة أيام، إنه موت ودفـــن لحياة قديمة، وقيامة لحياة جديدة. ففي بطن المياه يغرق الإنسان العتيق، ومـــن بطن المياه يولد الإنسان الجديد. هكذا فسر آباء الكنيسة رمز المياه أنه يشير إلى الموت والحياة بآن واحد. و "الإغراق" للموت والدفن لا يمكن أن يمثله شـــيء أقل من "التغطيس".

□□□

الفصل الثاني

سر المسحة المقدسة

" الميرون "

هو ثاني أسرار الكنيسة المقدسة، ويسمّى سر الميرون المقدس وسر المسحة المقدسة وسر التثبيت وختم موهبة الروح القدس. والميرون المقدس هو الذي تحتفل الكنيسة بطبخه كل فترة من الزمن على يد قداسة البابا والأساقفة[1].وهو يتكون من زيت الزيتون النقي مخلوطاً به ٤٠ نوعاً من المواد العطرية وعطر البلسم غالي الثمن. إنه يسمى "**دهن الفرح**"، وقد أُشير إليه منذ أواخر القرن الخامس بهذا الاسم.

ويشير أحد كتاب القرن الخامس (المسمى ديوناسيوس) إلى الميرون على أنه "رمز رائحة المسيح الزكية". وبحسب الكتابات القديمة فإن هذا الزيت المقدس المخلوط بالبلسم: "يمثل اتحاد اللاهوت بالناسوت في طبيعة وشخص المسيح الواحدة". كما أنه لا ينبغي أن ننسى أن هذا الزيت العطر كان بالنسبة للكنيسة غير منفصل عن استعلان الروح القدس المحسوس. وبحسب كثير من المراجع القديمة (ترتليان، هيبوليتس، إيرينيئوس، كبريانوس، أوريجانوس، يوحنا ذهبي الفم، وغيرهم)، فإن سر الميرون المقدس لم يكن منفصلا أبدا عن

---

[1]وقد تم طبخه مرة في عهد البابا كيرلس السادس (١٩٥٩ – ١٩٧١)، وأربع مرات حتى الآن في عهد البابا شنودة الثالث (١٩٧١ –).

سر المعمودية، بالرغم من أنه قد يظهر من قراءة كتابات آباء الكنيسة الأوائل أنهم يؤكدون بالأكثر على المعمودية دون المسحة، المسماة أحيانا "المسحة بعد المعمودية". وقد حفظت الكنيسة الشرقية ذلك الارتباط الوثيق بين هذين السرين إلى يومنا هذا. ويؤكد على هذا الارتباط القانون ٤٨ من قوانين مجمع اللاذقية المكاني (في منتصف القرن الرابع)، وكذلك القديس كيرلس الأورشليمي. ويؤكد القديس إبيفانيوس أسقف قبرص في القرن الرابع على أن سر المسحة هو جزء أساسي أصيل في طقس دخول المسيحيين الجدد. ويميز القديس كيرلس الأورشليمي بين سمتين لسر المسحة المقدسة: أولاهما: **الوشم الشخصي**؛ والثانية: **عدم إمكان محوه** (راجع العظة ٢١، والمحاضرة الثالثة من تعاليمه للموعوظين عن الأسرار).

ومن مجمل تعاليم الآباء يمكننا أن نتبين العلاقة الوثيقة بين أوجه هذا السر وبين تدبير الفداء هكذا: إن تجسد المسيح طهر طبيعتنا البشرية، وصليبه محا الفساد وضلال ذهننا، والقيامة أبطلت الموت وأقامتنا للحياة الأبدية؛ والمعمودية تحدث فينا هذه الآثار الثلاثة والتي بها يمكننا أن ندخل في شركة الروح القدس. وبسر الميرون تتم هذه الشركة مع الروح القدس، إذ لم يعد شيء يفصلنا عن الله. وهذا ما يحدث إبان حياتنا هنا على الأرض. ويبقى العدو الثالث الذي يعوق خلاصنا وهو الموت. فإنه بدون قيامة المسيح ما كان يمكن أن يبطل الموت، وبالتالي ما كان يمكن أن نتمتع بالحياة الطوبانية أي حياة العشرة الأبدية مع الله.

فإذا كان سر المعمودية هو البداية، وهو الولادة الجديدة أو الولادة من فوق؛ فإن سر المسحة المقدسة أو سر التثبيت الذي يتبعه مباشرة هو الذي يهبنا القوة والطاقة اللازمتين لتحقيق ما نلناه من نعمة في سر المعمودية.

وفي سر التثبيت أو الميرون هناك "المواهب" العاملة الفعالة، وأفعال

الروح القدس الذي يغذي الجنين المولود حالا من بطن المعمودية.

وفي كل هذا، فإن المسيح هو الذي يعمل، من خلال الروح القدس، ذلك المسيح الحي الذي سبق وأكمل هذا الخلاص الشامل والذي وضع أمامنا رجاء الحياة الأبدية.

ومن الألفاظ التقليدية التي تصف إنسان المعمودية وسر الميرون، أنه يصير مسيحا جديدا، ومسيحيا (أي منسوبا لشخص المسيح Christic). هذه التعبيرات يوصف بها المسيحيون الذين يولدون جديدا ويمارسون حياتهم وجنديتهم للمسيح.

وبسبب هذا المركز الذي أعطاه التقليد الكنسي لسر الميرون، ولعدم جواز تكرار سر المعمودية "نؤمن بمعمودية واحدة" (قانون الإيمان النيقاوي)؛ فإن سر الميرون المقدس يمكن أن يمارس مرة أخرى وبشروط خاصة للمنفصلين عن الكنيسة إذا تابوا ورجعوا، لإعادة الاعتراف بعضويتهم في الكنيسة أو بكهنوتهم(٢).

---

(٢) راجع: ديديموس في كتابه عن الثالوث ٢:١٥؛ القانون السابع من قوانين المجمع المسكوني الثاني سنة ٣٨١، والقانون السابع من قوانين مجمع اللاذقية (أو لاودكية) المكاني (بين سنة ٣٤٣ وسنة ٣٨١)؛ وقد أخذ القانون ٩٥ من قوانين مجمع ترالو - لدى الكنائس الخلقيدونية (سنة ٦٩٢) - بهذين القانونين. حيث كان الآباء يحذرون جدا من إعادة المعمودية للراجعين إلى الكنيسة إلا إذا كانت معموديتهم ليست باسم الآب والابن والروح القدس.

الفصل الثالث

سـر الإفخارستيا

مقدمة

المعمودية - كما قرأنا من قبل - هي نوال الإنسان المعمد ثمـر خـلاص الرب وعمله الإلهي من أجل البشرية، وذلك من خلال ممارستنا - بالشـبه - لأعمال المسيح الخلاصية نفسها: الموت والدفن ثم القيامة. مثل هذا الفهم لنـوال الخلاص يتناسب جدا مع رؤيتنا للمسيح كسابق مـن أجلنـا ومفتتـح لطريـق الخلاص الذي سلكه قبلنا وحده، وبعد ذلك عرفنا واصطحبنا معه في الطريـق تابعين إياه.

هذا هو المفهوم الذي تميز به آباء كنيسة أنطاكية في القرون الأولى.

أما آباء كنيسة الإسكندرية ومعلموها اللاهوتيون، فكـانوا ينظـرون إلـى المعمودية من الجانب الآخر. فكانوا يرون في المسيح - بالإضافة إلـى كونـه مفتتحا وبادئا طريق الخلاص - ممثلا للجنس البشري، وباعتباره ابن الله الكلمة المتجسد، فقد جعل من تأليهه (أي تقديسه) الطبيعة البشرية التي لبسـها أمـرا ممكنا للإنسان أيضا.

بهذه الرؤية، تصير الإفخارستيا سرا ذا تأثير بالغ مكمل للمعمودية. لأن فعل "الأكل" يعتبر رمزا للشركة والاتصال الوثيقين مع ما نأكله. إن سر الإفخارستيا فعل يعبر عن مقياس شديد الحساسية والدقة للاتحاد الذي يحدث بيـن الإنسـان

والله، وذلك حينما نتناول جسد الرب ودمه الأقدسين.

وليمة الأغابي، وسر الإفخارستيا:

لقد كان هناك في القرون الأولى طقس ملازم لسرّ الإفخارستيا، هو طقس "وليمة الأغابي" أي "وليمة المحبة"، حيث كان المؤمنون الأوائل يجتمعون أولاً مساءً، لتناول العشاء معاً لا كمجرد أكلة عادية؛ بل كطقس إلهي استلموه من ممارسة الرب لتناول العشاء مع تلاميذه ليلة آلامه قبل بدئه سر الإفخارستيا. ثم بعد العشاء كانوا (أي المؤمنون الأوائل) يمارسون طقس وصلوات سر الإفخارستيا.

لقد كان ولا يزال تقليد "المشاركة معا في الأكل" في مصر وبلادنا الشرقية عموما فرصا نادرة لممارسة المحبة والوحدة القلبية. ولكنها في الكنيسة كانت تمارس بصورة روحية وبخلفية ومشاعر مسيحية حيث تقترن بالشكر لله وإعلان المحبة والوحدة بين أعضاء الكنيسة. فالمسيحيون الأوائل جعلوا من طقس العشاء المشترك، الذي يسبق سر الإفخارستيا ذا معنى خاص استقوه من حياة المسيح. فهم تأملوا ليس فقط في مناسبة ليلة العشاء الأخير، بل وأيضا في المناسبات التي فيها أكل المسيح مع تلاميذه، وعلى الأخص في الأيام الأربعين التي تلت قيامته من بين الأموات. فقد كانت مناسبات للشكر المقدم لله على كل عطاياه في الخليقة، ثم على قيامة المسيح من بين الأموات وحضوره المجيد وسطهم كرأس الكنيسة الجديدة، ثم على الشركة التي فيها ربطهم الله به من خلال الاتحاد، وعلى صورة الاتحاد الإلهي الإنساني الذي تم في شخص المسيح.

لكن هذا الطقس "وليمة الأغابي"، لم يستمر كما كان ينبغي على مدار السنين الطوال. فإننا نقرأ في الإصحاح ١١ من الرسالة الأولى إلى أهل

كورنثوس عن إساءة استعمال هذا الطقس "وليمة الأغابي"، مما كـــان يسيء أيضا إلى قدسية ممارسة سر الإفخارستيا الذي كان يتبع وليمة الأغابي. كما أن ازدياد عدد المؤمنين المطرد جعل من الصعب ممارسة طقس عشاء كامل قبـل سر الإفخارستيا، مما كان سيستغرق وقتا طويلا. وهكذا بدأ هذا الطقس يتناقص استعماله شيئا فشيئا من الكنائس منذ نهاية القرن الأول. ولم يصمد هذا الطقس إلا في مصر حيث ظل الأقباط يقيمون الأغابي في كثـير مـن الكنـائس مـع الإفخارستيا في كل مصر من الإسكندرية حتى طيبة (الأقصر)، حيـث كـانت الإفخارستيا تقام في المساء أيضا، وظل هذا الاستمرار حتى القـرن الخـامس، حيث بدأ بعد ذلك يأخذ صورا أخرى مثل إقامة أحد الأغنيـاء لطقـس وليمـة الأغابي للفقراء... وهكذا.

على أنه في مصر اقتصر فيما بعد على الأديرة، وما زال يمارس بصورتـه الأولى حتى الآن في أديرتنا العامرة، ولكن استبدل توقيته بأن صار يمارس بعد سر الإفخارستيا، وفي الصباح وليس في المساء.

ولكن ظل سر الإفخارستيا هو هو مركز العبادة وينبوع الحياة المسيحية كما كان منذ القرن الأول، بل إن نفس الصلوات والترتيبات التي كانت تجرى قديمـا ظلت على ما هي عليه وبصورتها النقية الواضحة في قلوب المؤمنين، وعلـى مدى الأجيال.

وظل محور اجتماع المؤمنين في كل جيل وفي كل عصر، ومـهما كـانت الظروف التي تحيط بالمؤمنين، ظل هو سر الإفخارستيا: وليمة جسـد الـرب ودمه الإلهيين، وتحقيق حضوره بين المؤمنين قائما من بين الأمـوات، محققـا ومجددا الشركة والاتحاد اللذين نالهما كل مؤمن ومؤمنة يوم معموديته ومسـحه بالروح القدس، وممارسا خدمة الشهادة والكرازة بآلام الرب وموتـه وقيامتـه وصعوده إلى السموات ومجيئه الثاني المنتظر من السماء للعالم ولكل الخليقـة

جمعاء.

ومن هذه البداية يمكننا التقدم إلى التأمل في سر الإفخارستيا.

١. الإفخارستيا كزاد روحي

+ «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية...» (يو ٦:٥٤)

جسد الرب ودمه هما الزاد الروحي الذي يغذِّي الحياة الروحية للإنسان. ولم يفسر آباء الكنيسة هذه الكلمات التي وردت على فم المسيح – له المجد – في إنجيل يوحنا رمزياً، بل واقعياً. ولكن أضافوا على هذا التفسير، تفسيراً للكلمات السابقة واللاحقة على هذه الكلمات، والتي وردت في نفس الإصحاح من إنجيل يوحنا، حتى يمكنهم أن يكملوا شرح الزاد الروحي للإنسان:

+ «أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلي فلا يجوع. ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا.» (يو ٦:٣٥)

+ «مَنْ يؤمن بي، فله حياة أبدية. أنا هو خبز الحياة... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.» (يو٦:٥١)

+ «الكلام الذي أكلِّمكم به هو روح وحياة.» (يو ٦:٦٤)

فسرُّ الإفخارستيا، كزادٍ روحي، يُقدَّم للإنسان ليس مجرداً أو كطقس منفرد أو ممارسة قائمة بذاتها، بل في إطار العبادة الليتورجية التي تبدأ بقراءة كلمة الله وتنتهي بالتناول من الجسد والدم الأقدسَيْن. فالأكل الروحي يُقدَّم على شقَّين متحدين لا يمكن الفصل بينهما أو الاستغناء عن أحدهما: أكل كلمة الله (المسيح المن العقلي) **بالذهن** (الإنجيل)، وأكل كلمة الله المتجسد **بالروح والحق** (التناول). وهذا كله قوامه الإيمان الحي في شخص ربنا يسوع المسيح:

+ «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله.» (يو ٦: ٢٩)

يسمّي القديس إغناطيوس الأنطاكي (سنة ١١٠م) الإفخارستيا بأنها "ترياق عدم الموت"، ويتكلم عن الإفخارستيا بتعبيرات واقعية قاطعة، فهو يندّد بشدة: "بِمَنْ لا يقولون إن الإفخارستيا هي جسد مخلّصنا يسوع المسيح". وهو يعتبر إنكار هؤلاء بمثابة إشارة إلى إنكارهم بأن المسيح اتخذ لنفسه جسداً حقيقياً، وهم ينكرون كمال بشريّة المسيح. وإن كل ما كتبه القديس إغناطيوس يحمل طابع الرؤية النبوية الباهرة. ولغته، في هذا، تشبه لغة القديس يوحنا الإنجيلي التي تحمل في طياتها أسراراً فائقة تحتاج إلى المزيد من الشرح والتوضيح الدقيقين.

هذا الشرح والتوضيح لم يتأخر كثيرا بعد القديس إغناطيوس. فقد ترك لنا الفيلسوف يوستينوس وصفا مختصرا، ولكنه ثمين بلا حساب، عما كان يتم في احتفالات الإفخارستيا في القرون الأولى المبكرة للمسيحية. فهناك موضعان في كتاباته يلقيان بعض الضوء على المعنى الذي يعنيه "الخبز والخمر" اللذان كانا يتناولان في العبادة الليتورجية في أيامه، فهما جسد المسيح ودمه الأقدسان.

في الموضع الأول من كتاباته، يتكلّم القديس يوستينوس عن التغيير الذي يحدث للخبز والخمر بعد الصلوات التي تُتلى أثناء الخدمة الليتورجية (القدّاس). ثم يتحدث في موضع آخر عن أن هذا التغيير لابد أن يُفهم على ضوء سرّ التجسد حيث صار "كلمة الله" جسداً. هذه الموازاة مع التجسُّد تؤكّد على أن ما يحدث في سر الإفخارستيا هو أكثر من كونه مجرد رمز أو تشبيه.

أما الغرض الأساسي للخدمة الليتورجية فهو قبول شخص المسيح ونوال ثمار الخلاص الذي أتاه المسيح بتجسُّده.

وفي أحد كتاباته، يوضّح أحد آباء الكنيسة المعتبرين، وهو القديس إيرينيئوس (أسقف ليون بفرنسا) بطريقة مشابهة أنه حينما تقتبل القرابين

استدعاء الثالوث الأقدس، فهي لا تعود تصير خبزاً عادياً؛ بل تكون قد صارت تتكون من حقيقتين متحدتين اتحاداً تاماً: حقيقة أرضية، وحقيقة سماوية؛ تماماً كما هو حادث في التجسُّد. فالكلمة لم يتحوَّل إلى جسد، بل كما يقول الإنجيل: «صار جسداً»؛ وهكذا في الإفخارستيا، فالخبز **يصير** جسد الكلمة، والخمر **يصير** دم ابن الله المتجسد. وبالرغم من أن يسوع الناصري كان يبدو لناظريه من معاصريه أنه إنسان (وهو كان كذلك فعلاً)، إلاَّ أنه في عمق الحقيقة أكثر مما يظهر به، فهو ابن الله الأزلي. هكذا الإفخارستيا فهي في ظاهرها خبز وخمر، ولكنها في الوقت نفسه حقيقة أكثر من ذلك فهي جسد ودم ابن الله المتجسد.

وفي هذا يقدِّم **القديس كيرلس الأورشليمي** هذا التوجيه والتنبيه لسامعيه من المعمَّدين الجُدد:

[الخبز الظاهر ليس خبزاً بالرغم من أنه يُلْمَس خبزاً، لكنه جسد المسيح؛ والخمر الظاهر ليس خمراً بالرغم من أنه يُذاق خمراً، لكنه دم المسيح].

في القرون الأولى من تاريخ المسيحية لم يكن هناك كلام منهجي عن طبيعة التغيُّر الذي يحدث للقرابين (الخبز والخمر). ولكن معظم الحديث كان عن اللحظة التي يتم فيها صيرورة الخبز جسداً والخمر دماً بالسرِّ الإلهي. فلأن الكلمة تجسد من الروح القدس، لهذا تُقام الصلاة لاستدعاء الروح القدس ليُحْدِث نفس التحوُّل على الخبز والخمر. في الكنيسة الأرثوذكسية يُستدعى الروح القدس للحلول على القرابين، بما يسمَّى "صلاة الاستدعاء" وباللغة اليونانية **Epiclesis**. وعند تلاوة هذه الصلاة تصير العناصر الموضوعة على المذبح هي جسد المسيح ودمه. أما الكنائس الغربية فتعتبر أن اللحظة الأساسية هي لحظة ترديد الكاهن لكلمات تأسيس السر التي فاه بها المسيح ليلة خميس العهد، كما

وردت في الإنجيل.

وترتبط الطريقة التي يتكلم بها أو يكتب بها آباء الكنيسة عن طريقة صيرورة العناصر جسد المسيح ودمه، ترتبط بالطريقة التي يتكلمون بها أو يكتبون عن المسيح المتجسد.

فآباء كنيسة أنطاكية الذين كانوا يهتمون بإبراز وجود الطبيعتين في شخص المسيح الواحد (أي الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية)، يتكلمون بنفس الطريقة عن الطبيعة المزدوجة للإفخارستيا، فهي في وقت واحد خبز وخمر، وجسد ودم.

وآباء كنيسة الإسكندرية، الذين كانوا يهتمون بإبراز أولوية وحدة الطبيعة الإلهية – البشرية في المسيح، ولكن دون إغفال أو تقليل من أيٍّ منهما، كانوا يتأملون في سر الإفخارستيا بنفس الطريقة. فحقيقة الخبز والخمر قائمة، لكن التأمل يتركز على ما لا يُرى وما لا يُحس بالحواس من خلال ما يُرى وما يُحَسُّ.

لكن القصد الرئيسي من كل هذا التقليد المختص بتحوُّل الخبز والخمر ليصيرا جسد المسيح ودمه، مع تنوُّع هذا التقليد وتعدده؛ هو التأكيد المستمر للمؤمن على الاتحاد الحي بشخص المسيح نفسه من خلال تناول الأسرار المقدسة، تحقيقاً لوعد المسيح: «مَنْ يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو ٦:٥٦)

فالمؤمنون يرون بعين الإيمان أن وراء هذا الخبز وهذه الكأس الموضوعين على المائدة المقدسة، جسد المسيح نفسه حاملاً قوته المحيية. وهكذا يدفعهم جوعهم وعطشهم الروحيان ليأكلوا ويشربوا حتى ينالوا هذه القوة المحيية داخل كيانهم.

في سرِّ التجسد جعل المسيح نفسه في متناول الحواس البشرية. وفي الإفخارستيا، ليس فقط جعل نفسه في متناول حواسنا الخارجية؛ بل جعل نفسه أيضاً قابلاً لأن يُتَمثّل داخل الإنسان بالأكل، أي قابلاً لأن يتحد بكيان الإنسان الداخلي بالروح - كما يقول القديس غريغوريوس النيصي - حتى ينال الإنسان بأكمله، جسداً ونفساً وروحاً، القوة المقدَّسة التي لكلمة الله، فيتشارك في خاصية عدم موته.

٢. الإفخارستيا كذبيحة

+ «لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها، اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يُقرَّب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة لأن اسمي عظيم بين الأمم، قال رب الجنود» (ملاخي ١:١١)

نبوة ملاخي هذه، اعتبرها آباء الكنيسة أنها تحققت بانتشار المسيحية وامتداد الكنيسة في كل أرجاء العالم الوثني. وقد رأوا في هذه "التقدمة الطاهرة" على الأخص، أنها الإفخارستيا المسيحية التي يحتفل بها المسيحيون في كل مكان من العالم.

ولكن أية تقدمة هذه؟

إن تقدمات العهد القديم وذبائحه قد انتهت، وذلك في ذبيحة موت المسيح الكفَّارية. فبأي معنى اعتُبرت الإفخارستيا أنها "تقدمة" و "ذبيحة"؟

لقد أعطى آباء الكنيسة الأوائل لهذا السؤال إجابتين: هما إجابة القديس يوستين الشهيد، وإجابة القديس إيرينيئوس.

أولاً، كان التأكيد على أن الذبيحة الحقيقية هي ذبيحة القلب. فقد كان

الكثيرون أصحاب العقول الكبيرة، من الأمم أو من اليهود، قد بدأوا لا يستسيغون فكرة الذبيحة الحيوانية كواسطة للشركة مع الله، مؤكدين على الجانب الروحي الباطني للذبيحة الحقيقية. فيقول أحد الرابيين معلِّمي اليهود: "كل الذبائح الأخرى سوف تتوقف، لكن ذبيحة الشكر لن تتوقف". وبهذا القول يمكن التقدم لفهم ذبيحة "الإفخارستيا"، فكلمة "إفخارستيا" تعني "الشكر"، وهذه هي حقيقتها فعلاً. فهي تقدمة طاهرة، تقدمة شكر روحية. إنها التقدمة اللائقة بالدهر الجديد الذي بدأه المسيح بموته وقيامته.

ولكن الإفخارستيا لم تكن تقدمة روحية بحتة (أي غير مادية)، فهي تقدمة مادية. وهذه التقدمة "المادية" هي ذات أهمية عُظمى في فكر آباء الكنيسة المناهضين لهرطقة "الغنوسية" التي كان أتباعها يرذلون المادة باعتبارها شرًّا، ومن هؤلاء الآباء القديس إيرينيئوس. فتقدمة الإفخارستيا وهي تتكون من "الخبز والخمر" هي تقدمة طاهرة. بمعنى أنها تمثِّل باكورة خليقة الله مقدَّمة إلى الله الخالق، أي (كما كان يُمارس المسيحيون الأوائل العبادة الليتورجية) هي أوائل إنتاج الحقل يقدِّمه المسيحيون للكنيسة، فمن القمح يُصنع الخبز، ومن نتاج الكرمة يُصنع الخمر.

وتقدمة الإفخارستيا هي تقدمة روحية، أي هي تقديم النفس والمقتنيات لله؛ وهي أيضاً مادية، أي تتمثل في مظهر مادي هو تقديم أوائل غلة الحقل.

لكن تقدمة الإفخارستيا (من الخبز والخمر) مرتبطة بتقدمة أو ذبيحة موت المسيح على الصليب. فتقدمة الإفخارستيا التي تقدِّمها الكنيسة لله متحدة بتقدمة ذبيحة موت المسيح على الصليب. وهي تقدمة وذبيحة شكر لله من أجل تقدمة وذبيحة موت المسيح على الصليب. ونفس هذا الخبز والخمر المقدَّمين لله في ذبيحة ابنه الوحيد يسوع المسيح، يعودان – بعد أن يتقدَّسا بحلول الروح القدس – ليصيرا جسد ودم المسيح المبذول على الصليب من أجل خلاص

العالم، ينالهما المؤمنون حياةً لأنفسهم وغفراناً لخطاياهم.

إن هذا الارتباط بين تقدمة الكنيسة وبين ذبيحة المسيح أوضحهما جيداً القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة (حوالي عام ٢٥٠م). ففي كلمات مختصرة قوية يقول القديس كبريانوس: "إن آلام الرب هي الذبيحة التي نقدمها".

وفي أورشليم يعلّم القديس كيرلس الأورشليمي شعبه المتقدّم للتناول من الأسرار المقدسة: "نحن نقدّم المسيح المبذول من أجل خطايانا". وكما في المعمودية، فهكذا في الإفخارستيا، هناك الاقتداء المثمر في ممارسة الأفعال الخلاصية للمسيح. ففي الإفخارستيا نحن نحاكي المسيح في أفعاله الخلاصية بالموت والقيامة، ولكن بأسلوب آخر مميز.

فالكاهن وهو يقسم القربانة على المذبح، وبحسب تفسير القديس غريغوريوس النزينزي: "يُحدر الكلمة بكلمته، وبقطع غير دموي يقسم جسد المسيح ودمه".

لكن معظم آباء الكنيسة الشرقية ينظرون إلى الإفخارستيا بأنها أيضاً خدمة قيامة المسيح كما هي خدمة ذبيحته. فالخبز والخمر الموضوعان تحت غطاء البروسفارين على المذبح في مستهل القداس الإلهي، يمثِّلان جسد المسيح المودع في القبر مدفوناً. ثم بعد صلاة الصلح، يُرفع البروسفارين عن الجسد والدم استعلاناً للقيامة من الأموات. وبعدها يأتي الاستدعاء وحلول الروح القدس، فيصير هذا الخبز وهذه الخمر هما جسد ودم الرب القائم من الأموات للحياة الأبدية.

ولكن هناك فارقا واضحا في محاكاة أفعال المسيح الخلاصية بين المعمودية والإفخارستيا. ففي المعمودية، يجري المسيح أفعاله الخلاصية في المسيحي عن طريق محاكاة المسيحي لموت المسيح وقيامته بالشبه. ولكن في الإفخارستيا،

يستعيد المسيح منح نعمه الخلاصية. فها الكلمة كائن على المذبح، والجسد يقسم، والمسيح المبذول يقدم على المذبح. هنا الرمز والحقيقة نراهما وحدة واحدة غير مفترقة. وكما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "نحن لا نقدم ذبيحة جديدة، كما كان يفعل كهنة العهد القديم؛ لكننا نقدم دائما نفس الذبيحة، أو بالأحرى نقيم ذكرى[1] الذبيحة السابق تقديمها مرة واحدة فقط". وتقديم الذبيحة، وإقامة تذكارها ليسا تعبيرين متناقضين؛ بل هما طريقتان مختلفتان للتعبير عن نفس الشيء.

فحينما كان آباء الكنيسة يتكلمون عن حقيقة صيرورة أو انتقال الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الأقدسين، فقد كان هدفهم أن يوضحوا أن نتائج ذبيحة المسيح المحيية التي قدمت مرة واحدة على الصليب، هي متاحة تماما لكل المسيحيين في الأجيال اللاحقة على جيل الصليب، كما كانت متاحة تماما للتلاميذ الذين اشتركوا في عشاء يوم خميس العهد.

وحينما كانوا يتحدثون عن حقيقة تقديم ذبيحة المسيح الكفارية، فإنهم كانوا أبعد ما يكون عن الاعتقاد بأن تقديم ذبيحة الإفخارستيا هو تكرار لذبيحة المسيح؛ فقد كانوا يوضحون أن ذبيحة المسيح واحدة وكافية لكل الأجيال، وأن ذبيحة الإفخارستيا ليست سوى إعادة حضور الذبيحة الواحدة الوحيدة بكل بركاتها ونعمها الكفارية، أو صعودنا نحن إلى المذبح السماوي حيث ذبيحة الصليب قائمة دائما أبدا.

وليس أدل على ذلك من ممارسة صلاة الشفاعة من أجل النفوس والتي تصليها الكنيسة بعد تقديس القرابين وتحولها إلى جسد ودم المسيح. فيقول

---

(١) والذكرى في الممارسة اللاهوتية المسيحية تعني أكثر من تذكر حدث مضى، إنها استعادة الآن حضور الفعل الخلاصي والحدث الفدائي الذي تم في لحظة من الزمن.

القديس كيرلس الأورشليمي: "إن الصلوات المرفوعة بينما الذبيحة المقدسة المهوبة موضوعة هناك على المذبح، هي ذات نفع عظيم جداً للنفوس التي رُفعت الصلوات من أجلها".

وبهذا الربط الشديد بين ذبيحة الإفخارستيا وذبيحة الصليب إلى حد التوحيد بينهما، تكون ذبيحة الإفخارستيا هي الواسطة المعطاة من الله لجعل ثمار ذبيحة الصليب الواحدة فعَّالة ومثمرة في الحياة المعاصرة لكل الأجيال اللاحقة.

وأخيراً، ننصت لتعليم للقديس أغسطينوس. فهو يقول: بأنه لا يمكن تقديم تقدمة مقبولة سواء كانت ذبيحة شكر أو تقدمة أوائل غلات الحقل إلاَّ إذا كانت هناك تقدمة النفس أولاً. وهنا يربط القديس أغسطينوس بين تقدمة الإفخارستيا وبين تقدمة الكنيسة نفسها لله. **فالكنيسة هي نفسها جسد المسيح. فإن كانت تقدِّم جسد ودم المسيح، ألا تكون في الواقع تقدِّم ذاتها؟ هي تفعل ذلك فعلاً كما يقول القديس أغسطينوس.** فالمسيح قدَّم ذاته على الصليب؛ فكان بذلك هو – بآن واحد – الذبيحة ومُقدِّم الذبيحة، الكاهن والذبيحة معاً. كذلك في الإفخارستيا، فإن الكنيسة تقدِّم ذاتها. ولكن الكنيسة وهي تقدِّم ذاتها تفعل ذلك بقوة اتحادها بالمسيح باعتبارها أعضاء جسد المسيح. فتقدمة الإفخارستيا هي أحد أفعال جسد المسيح، حيث المسيح والكنيسة هما جسد واحد؛ وهي فعل بذل الذات أيضاً أي تقديم المؤمنين ذواتهم ذبائح حية مقبولة في ذبيحة المسيح الواحدة، والمسيح والكنيسة هما مسيح واحد في وحدة لا تنحل.

إن ممارسة الأسرار أمر في غاية الدقة والحساسية. فقد يمكن أن تتحول ممارسة الأسرار إلى تكرار روتيني لا ينتفع منه المسيحي. أو قد تتحول لغة أسرار الكنيسة إلى جدل عقيم حول موضوعات لا علاقة لها بخلاص الله الذي أتمه المسيح على الصليب "من أجل حياة العالم". وهذا للأسف ما ظهر في الأجيال اللاحقة لعصر آباء الكنيسة، وعلى الأخص في الكنيسة الغربية، مما

أدّى إلى ذلك الانشقاق الكبير الذي خرج به البروتستانت مضحين بكـــل زخـــم وغِنى سر الإفخارستيا في سبيل مقاومة الانحرافات التـــي أدخلتــها الكنيســة الرومانية الكاثوليكية في القرون الوسطى على فهم سر الإفخارستيا ومصطلحاته اللاهوتية. ولكن بدأ الكاثوليك أنفسهم مرة أخرى في إصلاح هذا الفهم والعــودة به إلى المنابع الآبائية الكنسية الأولى، وذلك منذ مجمع الفاتيكان الثاني.

- ونحن نصلّي إلى الله أن يكون رجوع الكنائس والطوائف المسيحية إلـــى منابع التعليم الآبائي الكنسي، هو التمهيد لرجوع الوحدة الحقيقية الكاملـــة فـــي التعليم والإيمان بين الكنائس كلها.

الفصل الرابع

سر الكهنوت

في الكنائس التقليدية (الأرثوذكسية والكاثوليكية)، يُنظر إلى "الكهنوت" من زاويتين:

الأولى: الكهنوت الملوكي لأعضاء جسد المسيح، بمقتضى سرَّي المعمودية والمسحة المقدسة، وذلك بحسب الوصف الذي وصف به القديس بطرس الرسول أولئك الذين وجَّه إليهم رسالته الأولى: «وأما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلاً لم تكونوا شعباً، وأما الآن فأنتم شعب الله» (١بط ٢: ٩و١٠، راجع رؤ ١:٦؛ ٥:١٠). وهذه النظرة مستمدة من أن الكنيسة أصبحت في تدبير الخلاص شعب الله الجديد الذي ورث هذا اللقب من كنيسة العهد القديم، والتي كانت توصف بأنها: «مملكة كهنة» (خر ١٩:٦)، هذا اللقب الذي ناله شعب إسرائيل بعد عبوره البحر الأحمر (رمز المعمودية في العهد الجديد)، وعند تكريسهم وتقديسهم ليكونوا «خاصةً (لله) من بين جميع الشعوب.» (خر ١٩:٥ - رمز سر المسحة المقدسة)

والمسيحيون يشاركون في قداسة المسيح ويقدِّمون حياتهم ونفوسهم ذبائح مقبولة في ذبيحة المسيح الواحدة، بإيمانهم وجهادهم اليومي ضد الخطية حتى الدم (رو ١٢:١، في ٢:١٧، عب ١٢:٤). وبهذا يوفون دعوتهم الكهنوتية

العامة، وتخصُّصهم لله شعباً مفرزاً له.

والثانية: وهي الكهنوت السرائري الإفخارستي، أي رُتب الأسقف والقسوس والشمامسة، والذي فيه يتخصص أعضاء من شعب الله لخدمة مذابح العهد الجديد ليكهنوا على طقس رئيس كهنة العهد الجديد المسمّى "الكاهن الأعظم"، الرب يسوع المسيح، وليرفعوا ذبيحته التي هي ذبيحة الصليب الواحدة غير المتكررة مقدَّمة بخبز وخمر في سر الإفخارستيا. هذا الكهنوت السرائري تسلسل منحدراً إلينا بالتعاقب الرسولي، وأساسه قائم منذ العصر الرسولي، ودليله هو هذا التصريح الواضح: «وهو (المسيح) أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشرين، والبعض رعاة ومعلمين، لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح.» (أف ٤:١١)

وهنا لابد أن ننوّه إلى أن الزاوية الأولى التي تحدث عنها آباء الكنيسة في أكثر من موضع[١]، قد شوّهها قادة حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، بأن أنكروا جملة وتفصيلاً الكهنوت السرائري الخاص وتمسَّكوا بالكهنوت الملكي لأعضاء جسد المسيح، الأمر الذي جعل الكنائس التقليدية تحجب من تعليمها هذه الزاوية، بالرغم من أهميتها، وذلك منعاً من العثرة وانسياق غير المتمكنين من عقيدة الكنيسة الرسولية الأولى وراء هذه الطوائف، وهذه خسارة لاهوتية عظيمة.

ولكن في تعليم الآباء القديسين، لا تنفصل الزاويتان إحداهما عن

---

(١) كأمثلة: ترتليانس في كتابه عن المعمودية ١٧:١و٢، وعن الزواج ٧:٨؛ وأوريجانس في عظة على سفر اللاويين ٩:١، وعلى سفر يشوع ٩:٥؛ والقديس أغسطينوس في مدينة الله ٢٠:١٠؛ والدسقولية.

الأخرى، كما لا يمكن الخلط بينهما، أو النظر إلى كهنوت العهد الجديد بدون أيٍّ منهما، بل بالعكس هما مكملتان الواحدة للأخرى.

وكما هو واضح من أساس التعليم بالكهنوت السرائري الإفخارستي، فإن من بين الأعمال التي أُوكلت لحاملي سر الكهنوت: التعليم والرعاية وتعزية المحتاجين إلى التعزية والوعظ؛ ولأن هذه الأعمال، بالإضافة إلى الخدمة الكهنوتية الأساسية أي خدمة المذبح، التي هي أصلاً عمل المسيح الكاهن الأعظم . لذلك، فحامل سر الكهنوت مُعتبر أنه يحقق سرائرياً، باستدعاء الروح القدس، حضور المسيح رئيس الكهنة وسط شعبه ككاهن وراعٍ ومعلم ومُعزٍّ ومُستقبِل لتوبة شعبه، باعتبار أن الكنيسة هي حقاً جسد المسيح. وأنْ يلقب إنسانٌ بمقتضى سرّ الكهنوت راعياً أو رئيساً للرعاة أو رأساً للكنيسة، فهذا ليس اغتصاباً لألقاب المسيح. لأنٍ سر الكهنوت ليس خدمة بشرية، بل هو خدمة سرائرية. بمعنى أن كل ما يؤديه الكاهن، إنما يؤديه باسم المسيح، وهي خدمة المسيح نفسه، وتؤدَّى بالروح القدس، وهي أداة تجميع أعضاء الجسد وتحقيق وحدتهم حول شخص المسيح، وذلك في سر الإفخارستيا، وفي الخضوع لكلمة الإنجيل، ما يجعل المسيح حاضراً وسط العالم من خلال كنيسته المقدسة، عاملاً وفعَّالاً لتكميل خلاص العالم.

فالكهنوت ليس مؤسسة بشرية قائمة بذاتها؛ بل هي سفارة المسيح، الذي هو الكاهن الأوحد والذبيحة الواحدة، وسط العالم. ويترتب على هذا الوضع التزامات وحدود وقيود صارمة على المنخرطين في سر الكهنوت لا مجال للاستفاضة فيها هنا.

وفي سر الكهنوت يتضح بأجلى بيان عمل الروح القدس في تقديس حياة الكاهن، وفي خدمة الكاهن الذبائحية في تقديس القرابين على المذبح، وفي خدمته كأداة وحدة ومركز تجميع لأعضاء جسد المسيح ، سواء داخل الاجتماع

الإفخارستي حيث تُستعلن الكنيسة وسط العالم بالتئام المؤمنين وعلـــى رأســـهم الكاهن حول الذبيحة الإلهية المقــدسة، أي عمانوئيل الكائن علـــى المذبـــح؛ أو خارج الاجتماع الإفخارستي في عمل المحبة وافتقـــاد الأرامل واليتامى وكـــل مَنْ له حاجة واحتياج إلى افتقـــاد المسيح لهم. وكل هذا يكمل ويتـــم بموهبـــة الروح القـــدس الممنوحة لحامل سر الكهنوت المقـــدس.

الفصل الخامس

سر التوبة والاعتراف

التوبة الحقيقية في عرف آباء الكنيسة هي "معمودية ثانية". وللآباء النساك مثل القديس يوحنا السلمي تعبير يصف به التوبة أو دموع التوبة بأنها "معمودية الدموع". وبحسب تعليم أبينا القديس أثناسيوس الرسولي، فإن التوبة الأمينة والاعتراف الصادق يمحوان كل الخطايا المرتكبة بعد المعمودية (على إنجيل متى: **PG 27, 1388**).

ويتضح في طقس كنيستنا القبطية هذه الحقيقة بأن الله هو الذي يغفر الخطايا، وذلك استجابة لصلاة الكاهن الذي يكون قد تلقى اعتراف التائب عن خطاياه، هذه الصلاة هي صلاة الحل وفيها يضع الكاهن نفسه كأنه "آخر الخطاة" التائبين". وهذه هي الصلاة:

[أيها السيد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب، الذي قطع كل رباطات خطايانا من قبل آلامه المخلصة المحيية، الذي نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار وقال لهم: اقبلوا الروح القدس، من غفرتم لهم خطاياهم غفرت لهم ومن أمسكتموها عليهم أمسكت،

أنت الآن أيضا يا سيدنا من قبل رسلك الأطهار، أنعمت للذين يعملون في الكهنوت في كل زمان في كنيستك المقدسة، أن يغفروا الخطايا على الأرض ويربطوا ويحلوا كل رباطات الظلم،

الآن أيضاً نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر، عن عبيدك، آبائي واخوتي وضعفي، هؤلاء المنحنين برؤوسهم أمام مجدك المقدس، ارزقنا رحمتك، واقطع كل رباطات خطايانا،

وإن كنّا قد أخطأنا إليك في شيء، بعلم أو بغير علم، أو بجزع القلب، أو بالفعل، أو بالقول، أو بصغر القلب؛ أنت أيها السيد العارف بضعف البشر، كصالح ومحب البشر، اللهم أنعم لنا بغفران خطايانا، باركنا، طهّرنا، حاللنا، وحالل سائر شعبك...].

وفي القداس الإلهي تتكرر صلاة الكاهن إلى الله ليغفر خطايا شعبه:

[يا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعترافات شعبك، واغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدوس الذي دعي علينا. كرحمتك يا رب ولا كخطايانا.] (سر اعتراف الشعب)

ومرة أخرى بعد الصلاة الربانية، والجميع يحنون رؤوسهم أمام الرب:

[أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، شافي نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا،أنت الذي قلت لأبينا بطرس من فم ابنك الوحيد، ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح. أنت هو بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي. وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. ما ربطته على الأرض يكون مربوطا في السموات، وما حللته على الأرض يكون محلولا في السموات.

فليكن، يا سيد، عبيدك: آبائي واخوتي وضعفي، محاللين من فمي بروحك القدوس، أيها الصالح محب البشر.

اللهم يا حامل خطية العالم، ابدأ بقبول توبة عبيدك منهم، نوراً للمعرفة وغفراناً للخطايا. لأنك أنت إله رءوف ورحوم، أنت طويل الأناة، كثير الرحمة وبار.

وإن كنا قد أخطأنا إليك بالقول أو بالفعل، فسامح واغفر لنا، كصالح ومحب البشر.

اللهم حاللنا وحالل كل شعبك.] (تحليل الآب)

ويُلاحظ هنا أن سلطان الحل والربط يُستخدم في "حِلّ" التائب من خطاياه في كل الصلوات الليتورجية في الكنيسة. فإذا نال التائب الحِلّ من خطاياه، فإنه يتصالح مع الكنيسة، ويكون أهلاً للتقدُّم لسرّ الإفخارستيا (سر الشركة).

والقوانين التأديبية التي تضعها الكنيسة للتائبين هي شفائية في مضمونها وغايتها، وليست قضائية انتقامية، فهي بمثابة أدوية للشفاء (راجع: عظة القديس يوحنا ذهبي الفم عن التوبة ٣:١). هذا المفهوم الشفائي للقوانين التأديبية قائم على إيمان الكنيسة بأن الخطية هي مرض النفس، وهي الداء الروحي للإنسان. لذلك، فالاعتراف والتوبة اللذان يُقدَّمان للكاهن، إنما يُقدَّمان - في الواقع السرائري - للمسيح نفسه "الطبيب الحقيقي لأمراض نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا"، كما تقول أوشية المرضى.

ويتميز طقس الكنيسة القبطية وصلواتها منذ القديم وحتى الآن بهذه السمة العلاجية لسرّ التوبة والاعتراف، حيث تسمِّي الكنيسة حالة الخطية بأنها: "أمراض نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا". ومن الملفت للنظر أن موهبة التدبير كانت لا تختلف في طبيعتها عن موهبة الشفاء، كما نرى في كنيسة الرسل (القرن الأول الميلادي).

بقي أن ننوّه بأن الكلمة اليونانية الأصلية للتوبة هي **metanoia**، التي تعني

حرفياً "تغيير الذهن"، أي تغيير دفة ووجهة المشيئة لتكون متوافقة مع مشـــيئة الله. فالتوبة عملية شاملة تؤول إلى تجديد الخلقة الجديدة التي نلناها بالمعمودية، بل هي تنميها في اختبارات جديدة في معرفة الله وفي الحياة المقدسة.

ومن حيث أن الخطايا ليست كلها موجَّهة فقط لله، بل أيضاً ضـــد القريـــب، وضد الجماعة المؤمنة، فقانون الاعتراف والتوبة كان قديماً يُحتِّـــم الاعـــتراف العلني أمام الكنيسة المجتمعة. ويكفي أن نتذكَّر حادثة التوبة العلنية التي طلبها القديس أمبروسيوس أسقـــف ميلانو من الإمبراطور ثيئوذوسيوس كشرط لقبوله في الكنيسة.

الفصل السادس

سر الزيجة المقدسة

في الكنيسة القبطية وسائر الكنائس الأرثوذكسية والتقليدية، الزواج معتبر أنه سرٌ كنسي.

لماذا الزواج من دون سائر نواحي الحياة الإنسانية هو الذي يؤخذ على أنـــه سرٌ؟ إن كان المقصود بسرّ الزواج مجرد تقديس الزواج أو سكب معونة روحية على الزوجين أو مباركة إنجاب الأطفال، فكل هذا وحده لا يجعل الزواج مختلفاً عن أي ناحية من نواحي الحياة، فكل لون من ألوان نشاط الإنسان يحتاج إلـــى تقديس ومعونة ومباركة.

ولكن "السرّ الكنسي" كما عرفناه هو "**تحويل**"، وهو يرتبط ارتباطـــاً وثيقـــاً بموت المسيح وقيامته، وهو دائماً سرُ **ملكوت الله**.

فكيف يكون الزواج متصلاً بالصليب والقيامة؟ وبالتالي واسطة للخلاص؟ ما الذي يجعله سرًّا؟

الآية المرشدة هنا هي: «**هذا السرُ عظيمٌ. ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.**» (أف ٥:٣٢)

المضمون الحقيقي لسر الزيجة ليس هو مجرد تكوين عائلة، ولكـــن أيضـــا وأولا هو "**المحبة**". فسر الزواج أوسع نطاقا من العائلة، إنه سر المحبة الإلهية، سر الوجود الشامل، ومن أجل هذا هو يهم الكنيسة كلها، ومن خلال الكنيسة يهم

العالم كله.

ربما يمكن أن تساعدنا الرؤية الأرثوذكسية للزواج في فهم الزواج المسيحي. لهذا فنقطة البداية التي سنبدأ بها، ليس الزواج ولا ما هي المحبة، بل نبدأ بذلك الإنسان الذي له مكان القلب العزيز على حياة الكنيسة، والذي عبَّر أطهر تعبير عن محبة الله والتجاوب مع هذه المحبة ، ذلك الشخص هو القديسة العذراء مريم أم يسوع ووالدة الإله الثيئوتوكوس. إنها الأم والوالدة. والصور والأيقونات الأرثوذكسية للعذراء كلها لا يمكن أن تصوِّر العذراء مريم وحدها ولكن مع ابنها الرب يسوع المسيح على ذراعها أو على حجرها أو على صدرها.

إن القديسة العذراء مريم تجسمت فيها فضيلتان هما: المحبة لله، والطاعة لله، في إيمان وتواضع. فقد قبلت أن يتحقق فيها قصد الله في تجديد الخليقة، فرضيت أن تصير هيكلا للروح القدس، وأن يتجسد منها الله. قبلت أن تعطي لحمها ودمها – أي كل حياتها – ليصيرا جسد ودم ابن الله. قبلت أن تكون أما بأعمق وأكمل معنى، أي أن تعطي حياتها للآخر الأزلي ، وبالتالي تشبع حياتها فيه.

وعلى هذا المثال فإن الحب الزيجي تضرب جذوره وتغور أعماقه ويتحقق شبعه الحقيقي في سر المسيح وكنيسته، الكنيسة التي هي عروس المسيح. فكل زوج وزوجة على حدة، وكل الكنيسة بكاملها معا، هم عروس عفيفة للمسيح. «خطبتكم لرجل واحد لأقدم عذراء عفيفة للمسيح.» (٢ كو ١١:٢)

وكمثل القديسة مريم، العذراء والأم، في طاعتها وتقدمة ذاتها لله، بدأت الكنيسة بدايتها الحية الشخصية، وتبدأ كل عائلة مسيحية حياتها ومسيرتها الأرضية التي تكتمل في السماء.

الطاعة الكاملة في حب، هي مضمون تقدمة العذراء لله. وهـــي مضمــون تقدمة كل زوجين حياتهما لله، وعن هذا الطريق يتّحدان بالكنيســـة المخطوبــة عروساً للمسيح الذي سبق أن «أحب... الكنيسة وأســـلم نفســه لأجلـــها» (أف ٥:٢٥). هذه الطاعة وهذه المحبة لا يمكن أن يقدّمها الزوجان لله، ومـــن ثـمَّ بعضهما للبعض، إلاَّ في طاعة ومحبة المسيح لأبيه على الصليب.

بهذه الصورة يتــقدم الزوجان إلى الكنيسة، ليحوّلا هذا الحَــدَث الطبيعــي، الذي يمارسه كل البشر كشريعة فطرية طبيعية في الخليقة(١)، يحوّلاه إلى السـرِّ العظيم للمسيح والكنيسة، بل يحوّلان محبتهما البشرية الطبيعية بعضهما للبعـض إلى سرّ محبة الله الأبدية. تماماً كما يتحوّل الزيت الساذج إلى زيت دهن الروح القدس في سرّ الميرون، والخبز والخمر إلـــى جســد ودم المســيح فـــي ســر الإفخارستيا.ولذلك فإن الكنيسة الأولى لم تكن تعرف خدمة منفصلة للزواج، أي ما يسمَّى بحفل الإكليل أو "الفرح"، والذي يُجرى أحياناً في البيوت. إن تكميــل الزواج بين مسيحيَّيْن كان يتم في الكنيسة باشتراكهما معاً في الإفخارســـتيا(٢).

---

(١) الزواج الطبيعي الذي يمارسه عامة البشر غير المنضمين للكنيسة، هو زواج طبيعـــي أي بحسب الطبيعة البشرية فقط. والزواج شريعة فطرية طبيعية موجودة حتى في المجتمعـــات البدائية التي لم تعرف الأديان، فالزواج الطبيعي (أي الذي يجري خارج الكنيسة) لا يُنظر إليـــه على أنه في مرتبة الزنا بأي حال، لأن الزنا رذيلة فطرية طبيعية يأنف منـــها حتـــى الإنســان الطبيعي، الذي ليس له شريعة الإنجيل، أما سر الزواج المسيحي فهو يحوّل الـــزواج الشــرعي الطبيعي ليصير زواجاً ملكوتياً في المسيح، يدوم ولا ينفصم حتى بعد الموت، ويكتمل إذ يصــير الزوجان في الدهر الآتي «كملائكة الله في السماء» (مت ٢٢:٣٠)، وهذا هو الفرق بين الــزواج المسيحي والزواج الطبيعي الذي هو من التراب وإلى التراب يعود.

(٢) حتى زمن ليس بالبعيد، كان لخدمة سر الــزواج موضــع ووقــت مخصــص داخــل الليتورجية الإلهية، مثلها مثل خدمة رسامة الشمامسة والكهنة والرهبان، حيث كان يتم السرُّ على مشهد من كل أعضاء الشعب وليس فقط عائلتي العروسَيْن ومعارفهما.

وهكذا ينال الزواج ختمه الأبدي بإدماجه في هذا العمل المقدس الهام الذي تؤديه جماعة المؤمنين، أي الاحتفال بسرّ الإفخارستيا، سر نبيحة الصليب وسر القيامة المقدسة.

لذلك، فالكاهن بعد أن يُتمم عقد الزواج الطبيعي (الذي يجريه لهما قبل الاحتفال بالسر الكنسي)، يقود العروسَيْن إلى داخل الكنيسة، ليركعا أمام مذبح الله، لينالا نعمة سر الإفخارستيا، يقودهما في موكب تحف بهما الشمامسة وكل الشعب بالألحان والصلوات، مثلهما مثل أيٍ "مُكرَّس" داخل لينال نعمة سر الكهنوت أو يقبل إسكيم الرهبنة مثلاً.

ثم يتم طقس "الإكليل" أي وضع الأكاليل على رأسي العروسَيْن. إنها أكاليل المجد والكرامة للإنسان ملك الخليقة «أثمروا واكثروا واملئوا الأرض... وتسلّطوا...» (تك ١:٢٨). كل أسرة مسيحية هي ملكوت، كنيسة صغيرة، وبالتالي يُستعلن فيها سرُّ الملكوت على قدر بذل ومحبة وطاعة الزوجَيْن لله ولبعضهما البعض.

إنه إكليل مجد وكرامة، إكليل الشهداء. فطريق الملكوت هو شهادة للمسيح. وهذا يعني أن في مسيرة الحياة الزوجية صليباً وآلاماً. الزواج الذي لا يصلب الأنانية والاكتفاء الذاتي ليس زواجاً مسيحياً.

في الزواج المسيحي، ثلاثة هم شركاء السرّ الكنسي، وليس اثنين. فالمسيح، وبحسب كلمات طقس سرّ الزيجة، هو الوسيط لهذين الفئتيْن: العريس ومعينته، فهو الذي يوصلهما بعربون الشركة، ليكون زواجهما بأُلفة واحدة برباط المحبة بكلمات الرب لهما: "سلامي أُعطيه لكما، سلامي أنا أتركه معكما".

حضور المسيح هو الذي يحوّل الزواج الطبيعي إلى زواج في المسيح، كما حوّل المسيح الماء إلى خمر في عُرْس قانا الجليل.

وصليب المسيح هو الذي ينهي على الانفرادية والاستقلالية والاكتفاء الذاتـي في الزواج الطبيعي.

إذ بالصليب دخل الفرح (وليس السعادة الأرضية) إلى العالم أجمع. فوجـود الصليب بين العروسَيْن هو ضمان وجود الفرح الحقيقي في الزواج، وامتـداده هو فرح الملكوت الأبدي.

والمعنى الثالث للأكاليل، أنها أكاليل الملكوت. فالحياة الطبيعية وكل ما فـي هذا العالم وهيئة هذا العالم ستزول. أما الزواج المسيحي الـذي تكلّـل بـإكليل الملكوت، فهو ضمان على عدم زوال ملكوت الله، بل هو الطريق إلى الملكوت، وبالتالي على دوام الشركة التي تمت بين العروسَيْن.

أخيراً، وفي سياق طقس الزيجة يدهن الكاهن العروسَيْن بالزيت المقـدس، دهن الفرح، دهن الروح القدس، لمقاومة الأرواح الرديئـة، وليصـيرا هيكـلاً مقدساً لله، ووحدة وخلية مقدسة في كنيسة الله مسـكن الله القـدوس، وصـورة مصغّرة لملكوت الله على الأرض.

بين البتولية والزواج:

إن الكنيسة تنظر إلى البتولية، ليس على أنها مجرد عـدم الـزواج وعـدم الإنجاب، ولكنها الدخول في العلاقة الزيجية مع الرب بحب الله من كل القلـب وحب كل إنسان مثل النفس.

هذا المبدأ الذي تنظر به الكنيسة للبتولية هو نفسه الذي تنظر به للزواج أنـه ليس واسطة فقط لإنجاب النسل أو أن النسل هو مبرر الزواج؛ فالزواج هـدف، إنه تكوين الكنيسة الصغيرة القائمة على الحب المتجدد والمطعَّم بحب المسيح،

وهذه هي النواة لملكوت الله.

وكلا الطريقين (الزواج والبتولية)، بهذه الرؤية الأرثوذكسية المؤسسة على التعاليم الآبائية الراسية في الكنيسة منذ القِدَم، قائمان على رفض الفكرة الخاطئة بأن الخطيئة الجدية تتسرب إلى الطفل المولود من خلال العلاقة الزيجية، مما يسبغ على العلاقة الجسدية في الزواج ظِلاً من الخطيئة، بموجب هذا التعليم الغريب عن الكنيسة الشرقية، والذي تسلل إلى علوم اللاهوت في الكنيسة الغربية، لكنها بدأت تتخلص منه أخيراً في رجوعها إلى علم اللاهوت الآبائي الصحيح.

فالبتولية عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات تعني فقدان كل شهوة جسدية وكل عبودية للشهوات. وهذا هو ما يسمَّى بـ "الأباثيا **Apatheia**" التي يمكن بلوغها أيضاً **حتى من خلال حالة الحياة الزوجية** (رسالة ١٠١ إلى كليدونيوس، عظة ٣٨: ١١ـ ١٣، عظة ١٨:٢).

ويؤكِّد الآباء أن لا حالة المتزوج ولا حالة غير المتزوج يمكن أن تربطنا أو تفصلنا عن الله أو العالم. لكن الذي يفعل ذلك هو **الذهن الروحي** لدى الإنسان، الذي يمكنه أن يعلو فوق الزواج أو العذراوية، وهو الذي يُكمِّل ويقدِّس أي حالة من الاثنين باعتبار أية حالة ـ سواء البتولية أو الزواج ـ المادة الخام للفضيلة توضع بين يدي صائغ الفضيلة الذي هو العقل.

ويقول القديس غريغوريوس (الذي كان متبتلاً): إني لا أرذل الزواج من أجل أن أرفع البتولية. لكني سوف أُحاكي المسيح، العريس وإشبين العريس بآن واحد، فهو الذي أجرى المعجزة في حفل العرس، كما شرَّف الرباط الزوجي بحضوره. فليكن الزواج طاهراً غير مختلط بالشهوات الدنيئة.

ويعتبر القديس غريغوريوس في عظة ٥:٣٧ أن الرب يسوع نفسه هو

"خالق الرباط الزوجي".

حقاً، لقد فضَّل القديس غريغوريوس العيش في حالة التبتل لكنه لم يَدِنْ حياة العمل. فقد كان يقضي الساعات والأيام الطوال في خدمته الكنسية، وكان صاحب أملاك وأرض طيلة أيام حياته.

والقديس مقاريوس الكبير أب رهبان برية شيهيت في القرن الرابع، وبعد زيارته للمرأتين المتزوجتين في الإسكندرية بناءً على إعلان سماوي له، قال لتلاميذه:

[حقاً، إنه ليس عذراء ولا متزوجة، وليس راهب ولا علماني، إنما استعداد القلب هو الذي يطلبه الله، وهو يعطي الجميع نعمة الروح القدس الذي يعمل في الإنسان ويقود حياة كل مَنْ يرغب في الخلاص.]

(مخطوط حياة الآباء – Vita Patrum، الجزء الثالث، ٩٧)

على هذا الأساس الكامل وعلى هذه الرؤية المتكاملة لسرّ الزواج ولسرّ البتولية الروحية معاً، تكرم الكنيسة حياة البتولية باعتبارها الطريق الأفضل والأعلى لإشباع حاجة النفس الروحية إلى حب الله وتمجيد المسيح، ولكن مع اعتبار أن سلوك هذا الطريق ليس للجميع بل لِمَنْ دُعوا حقاً من الله إلى ذلك الطريق، ولِمَنْ استطاعوا أن يحتملوا حسب قول الرب نفسه: «مَنْ استطاع أن يقبل فليقبل.» (مت ١٩:١٢)

وبحسب تعليم القديس بولس الرسول:

+ «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله. الواحد هكذا والآخر هكذا».

+ «ولكن أقول لغير المتزوجينْ وللأرامل إنه حسنٌ لهم إذا لبثـــوا كما أنا. ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأن التزوُّج أصلـــح من التحرُّق».

+ «غير المتزوج يهتم في ما للرب كيف يُرضي الـــرب، وأمـــا المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يُرضي امرأته... غير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً، وأما المتزوجة فتهتم في مـــا للعالم كيف تُرضي رجلها».

(عن الرسالة الأولى إلى كورنثوس ـ الإصحاح السابع)

الفصل السابع

سر مسحة المرضى

يقوم هذا السر على نص رسالة يعقوب ٥: ١٤و١٥: «أمريض أحد بينكم، فليَدْعُ شيوخ (بريسفيتيروس) الكنيسة، فيصلُّوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب. وصلاة الإيمان تشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تُغفر له». وشفاء المرضى بالصلاة ودهن الزيت هو إجراء رسولي منذ حياة المسيح، إذ أن الرسل في إرساليتهم الأولى: «دهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم.» (مر ٦: ١٣)

وكما هو واضح من نص رسالة يعقوب، فإن سر مسحة المرضى مرتبط بسر التوبة، فهو شفاء للجسد كما للروح. وهذا يؤكد من جديد عقيدة خلقة الإنسان ككيان مركب من جسد ونفس (وروح) – راجع تك ١: ٢٧؛ ٢: ٧.

لذلك، ففي نظر الكنيسة منذ أول العصور، هناك علاقة ارتباط قوية بين أمراض الجسد وعلل النفس وآلامها. ولأن الأصل اليوناني لكلمة "يشفي" بالعربية الواردة في نص رسالة يعقوب هو كلمة σώσει [1] (سوزيي) أي "يخلِّص". فسرُّ مسحة المرضى ليس سحراً، بل هو أكثر من مجرد شفاء

---

(١) وردت نفس الكلمة اليونانية σώσει بمعنى النجاة من مرض خطير أو موت في مواضع متعددة من العهد الجديد (شفاء المرأة نازفة الدم مت ٩: ٢١و٢٢، مر ٥: ٢٣؛ شفاء عبد قائد المائة لو ٧: ٣)

جسدي كما ينتظر الكثيرون من وراء إجراء هذا السر. إنه "خلاص" روحي يشمل شفاء الروح أولا ومن بعده شفاء الجسد.

وقد فضح الروح الشرير زيف الذين استخدموا هذا السر كأنه عمل من أعمال السحر، كما يسرد لنا سفر الأعمال عن سبعة بنين لسكاوا الرجل اليهودي رئيس الكهنة (أع ١٩:١٣-١٦). ولعل قصر ممارسة سر مسحة المرضى على الكهنة المرسومين هو إجراء وقائي ضد محاولات هذا الزيف التي جرت في الكنيسة الأولى، لأن موهبة شفاء المرضى كانت منتشرة حتى بين غير المرسومين كهنة، كما يذكر ذلك هيبوليتوس في كتابه "التقليد الرسولي" ١:٥. كما تنتشر بين الحين والآخر ممارسات للشفاء من هذا النوع خارج سر مسحة المرضى ذات أساليب غريبة عن الحس الروحي والذوق الإنساني، وتسبب الكثير من العثرات بين أفراد الشعب مثل بعض أساليب إخراج الأرواح النجسة التي تعتمد على العنف الجسماني وغيرها.

لكن هناك أيضا حالات شفاء تحدث أحيانا نتيجة عمل فائق للطبيعة وخارجا عن الحدود القانونية الكنسية أو الأعمال البشرية، مثل ما حدث أثناء ظهور العذراء في الزيتون أو ما يحدث في حالات مماثلة أخرى استثنائية وفي أمكنة كثيرة في العالم، وهي تشهد وتعلن عن قوة العمل الخلاصي للرب يسوع المسيح وامتداده، وتستعلن بيقين ملكوت الله، وتعلن عن حقيقة تحرير الإنسان من عبودية الخطية والموت، وعن إمكانية قيامة الأجساد وتغلبها على الفساد والموت. إنها لمحات خاطفة آتية من حياة الدهر الآتي، وسبق تذوق وكشف لمستورات وأسرار(٢) ملكوت الله والخليقة الجديدة العتيدة أن تستعلن في ملئها في الحياة الأبدية.

---

(٢) (راجع معجزة إخراج الروح النجس: مت ١٢:٢٧و٢٨، مر ٣:٢٢-٢٧، لو ٤:٣١-٣٧؛ وإرسالية التلاميذ: مت ١٠:٧-١٦، مر ٦:٨-١١، لو ١٠:٣-١٢).

وعلى أي حال، فإن شفاء المرضى بالصلاة، إما من خـــلال الســر، أو مــن خارجه، إنما هو علامة من علامات قوة الله الخلاصية؛ ولكنها ليست عملاً حتميـــاً في الاختبار المسيحي، ولا هي أيضاً مستعصية الحدوث، إن حدثت.

الخاتمة

«فلنسمع ختام الأمر كله» (جامعة ١٢: ١٣)

بعد أن تمتعنا بمعرفة خلاصنا الثمين وأبعاده وأعماقه، وغاياته الممتدة إلى ما بعد هذه الحياة الأرضية، فلنقف وقفة تأمل مع نفوسنا لنفحص التزاماتنا تجاه هذا الخلاص.

إن المسيح وهبنا خلاصه، لا لكي نظل نعيش في عزلتنا، بل لكي نسعى للدخول إلى تلك الوحدة العظيمة للبشرية التي صلى المسيح إلى الآب من أجلها وعمل على تحقيقها، والتي ستبلغ أوجها وكمالها في ملكوت الله. ونحن لا يمكننا أن نربح خلاصنا هذا إن بقينا في عزلتنا معتنين ومهتمين بأنفسنا فقط. طبعا لا جدال في أن كل إنسان يجب أن يقبل خلاص المسيح بصفة شخصية أي أن يكون الخلاص شخصيا له ، لكنه في الواقع لا يمكنه أن يفعل ذلك أو أن يثبت في خلاصه الشخصي وينمو فيه إلا إذا كان معانا من الآخرين، وهو بدوره كان معينا للآخرين، ذلك لأن خلاصنا هو "خلاص مشترك" (يهوذا ٣).

فأن نخلص يعني أن نرتد عن عزلتنا ونتحد بالمسيح ومن خلاله بكل البشر. الخلاص شركة "كينونيا" في المسيح، وبناء عليه فإن على المسيحيين التزاما بأن يجاهدوا ليحفظوا ويعمقوا وحدتهم في المسيح من خلال المحبة بعضهم للبعض ومحبتهم الجامعة الحاضنة لكل البشر: «لأن محبة المسيح تجمعنا[١]

---

(١) συνεχει وتعني "تجمعنا معاً"، "تربطنا معاً"، "تحتضننا معاً"؛ وهذه الترجمة أكثر قوة وتعبيراً عن فعل خلاص المسيح وقوة محبته من كلمة "تحصرنا" الواردة في الترجمة البيروتية.

معاً.» (٢ كو ٥:١٤)

فإن كان المسيح قد أتم عمل الخلاص، لكنه يظل يطرح ثمـــاره باســـتمرار لكي يجمع ويضم كل البشر إلى ملكـــوت الله. والمســـيحيون كخـــدام للمســـيح مُطالَبون بأن يجاهدوا دائماً من أجل وحدة كل البشر في ملكوت المحبة الكاملة، وبالذات مع مَنْ هم ليسوا بمسيحيين. وفيما يلي بعض المجالات التي فيها يظهر التزامهم هذا:

١. رفع العالم فوق ذاته من خلال جحدنا للعالم وذواتنا:

المسيح قدَّم ذبيحته وقام من بين الأموات خارج أورشليم. وخارج أورشـــليم تراءى بعد قيامته ، وذلك كي يقدِّس كل الشعوب التـــي ليـــس لـــها اتصـــال بالناموس القديم. نقرأ في رسالة العبرانيين: «فلنخرج إذاً إليه خـــارج المحلـــة حاملين عاره. لأن **ليس لنا هنا مدينة باقية**، لكننـــا نطلـــب العتيـــدة» (عـــب ١٣:١٣و١٤). وهو يشير هنا إلى الضرورة الدائمة أن نترك العالم وراءنا، أن نرتفع فوق العالم، أن نجحد العالم، وذلك لكي يمكننا أن نقـــود العـــالم إلـــى أن يتجاوز نفسه.

فيا ويل العالم لو ارتبطنا نحن المسيحيين - كأفراد أو ككنيسة - بأي حالـــة أو وضع ثابت في نطاق هذا الوجود الأرضي. لأن هذا ســـيكون معنـــاه أننـــا مرتبطون بالعالم منطوون تحته. فكيف يتسنى لنا، ونحن هكذا، أن نرفعه فـــوق ذاته ليبلغ إلى العالم الجديد؟ والمسيحيون لا ينبغي حتى أن يكونـــوا منطويـــن منكفئين على ذواتهم داخل كنائسهم وطوائفهم، وكأن هذه الكنائس والطوائف هي أيضاً "مدينة باقية"، وإلا فإنهم سيفقدون هويـــتهم كسائحين مسافرين على هـــذا الكون، وسينتـــفي مبرِّر وجودهم في هذا العالم باعتبارهم كمثل "النفس بالنســـبة للجسد"، كما وصفهم بذلك الكاتب المجهول في الرسالة المسمَّاة إلى ديوجنيتوس

(القرن الثاني).

فإذا ارتفع المسيحيون فوق العالم وذواتهم، فسيمكنهم العمل على رفع العالم فوق وضعه كنظام يبدو وكأنه ثابت ، أي رفعه إلى أعلى من ذاته ليكون منجذباً إلى المسيح مركز ونواة الخليقة الجديدة.

والمسيح هو في العالم لكنه أيضاً في السماء. ونحن نصعد إلى المسيح في السماء من خلال المسيح المنبثّ في العالم على الأرض. إن العالم اليوم يسعى حثيثاً إلى الامتداد والتغيير وراء كل وضع ثابت في العالم، ووراء كل حالة زمنية مستقرة في الحاضر، طالباً دائماً الترقي إلى ما هو أفضل. واليوم، ربما أكثر من أي وقت مضى، المسيح يجذب العالم إلى نفسه من خلال هذا التغيير السريع والمستمر الذي يموج به العالم في هذه العقود الأخيرة من القرن العشرين. إن المسيح يعلن ذاته للعالم وراء كل قفزة جديدة وتحوّل مفاجئ وتغيُّر غير متوقع يحدث في العالم. لكن المسيح قد يبقى في هذا مستتراً عن الأعين غير الروحية. ونحن المسيحيين العائشين في خلاص المسيح يجب أن نتحرك مع العالم في طريق تقدُّمه، لنخبر العالم مَنْ هو ذلك "الشخص" الإلهي الذي يدفعه إلى الأمام ويجذبه إلى أعلى. يجب أن نساعد العالم على أن يعرف ماذا يعني "التقدم" الحقيقي إلى الأمام وماذا يعني "الصعود" الحقيقي إلى أعلى. وهذا يُلقي التزاماً خاصاً على المؤمنين اليوم، في عصر تتصارع فيه التغيُّرات والتحولات بطريقة يتضح منها للجميع أن العالم لم يَعُدْ "مدينة باقية" أو "مدينة ثابتة" إلى الأبد. لذلك اتجهت جهود الرجال العظام الملهَمين اليوم إلى ترقية العلاقات بين البشر لتحكمها المحبة والإخاء والمساواة «المحبة لا تسقط أبداً» (١كو١٣:٨).

٢. كشف وجه المسيح المستتر في البشرية:

إن كانت «محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطَى لنا» (رو ٥:٥)، فإنه نتيجة لذلك يمكننا - بل يتحتم علينا - أن نرى البشرية والبشر جميعهم في وجه يسوع المسيح؛ تماماً كما أن الآب حينما ينظر إلى ابنه المتجسد يرانا ويحبنا كأبناء ويتبنّانا من خلال ابنه المتجسد. لذلك فواضح أن التزامنا الخلاصي يحتِّم علينا أن نرى في وجه كل إنسان وجه المسيح نفسه! وإن شئت الدقة، فكل وجه بشري هو بسبب التجسد يحمل صورة وجه المسيح، وإمكانية أن يُسفر هذا الوجه عن الوجه الحقيقي للمسيح ترجع إلى أن كل وجه بشري هو شفافٌ أو معتمٌ بدرجة ما، ليُظهر أو يخفي بدرجات متفاوتة وجه المسيح الحقيقي. لكن علينا نحن المؤمنين دور ومسئولية أن نساعد كل إنسان ليُظهِرَ وجه يسوع المسيح فيه، وبالأوْلى أن يكون المسيح ظاهراً فينا نحن أولاً بأقصى بهائه وبقوة قداسته.

إن بشرية المسيح لم تكن إنساناً محدداً كان عائشاً قبلاً ثم حلَّ فيه كلمة الله، بل إن بشرية المسيح تنتمي إلى طبيعة كل البشر وتمثِّلها حقاً، ربما بطريقة حقيقية أكثر من انتماء أي واحد فينا إلى البشرية. أما بشرية المسيح فهي لكل البشر ومن أجل كل البشر. إنها تمثِّل كل واحد فينا، إنها تبذل ذاتها لتصير مِلْكاً مشاعاً لكل إنسان، ولأن تتشكَّل فيه البشرية الجديدة على مثالها. لذلك فإننا كلنا مدعوون لأن نقبل انعكاس وجه المسيح على بشريتنا، ثم انعكاسه منا على الآخرين، حتى يتسنَّى لنا أن نراه في وجه كل البشر.

ومن كلمات الرب الصريحة الواضحة في إنجيل متى ٢٥:٤٠ « بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم»، فإنه يكون قد قَبِلَ أن يأخذ وجه كل إنسان فقير أو محتاج. لقد وحَّد نفسه بكل إنسان بطريقة تجعل من كل مَنْ يؤمن به غير قادر على أن يرذل أخاه، بل ملتزماً أن يعامل الأخ والقريب

والغريب وحتى العدو الذي يراه على أنه بمثابة "مسيحه" أو "إلهه"، أي كما يعامل الله والمسيح الذي يحبه، وأن يتخلّى عن تمسكه بمقتنياته الخاصة لتكون في خدمة أخيه كما سكب المسيح دمه من أجل خلاص اخوته. حينئذ يمكننا أن نعيش معاً اتحادنا بالمسيح الذي يُضرم فينا قوة ونية بذل ذواتنا من أجل الآخرين والعالم.

٣. قانون الثمر المؤجّل والربح غير المنظور:

إن كل فعل أتمه المسيح ابتداءً من تجسُّده إلى تعليمه، ثم حياة الطاعة للآب التي عاشها، وخدمة محبته لنا من خلال آلام الحياة الأرضية، ثم تقدمة ذاته من أجل حياة العالم. كل هذه الأفعال تؤكِّد على قيمة ممارسة الحياة البشرية على الأرض في نظر الله. فالكمال الاسخاتولوجي (الأُخروي) لا يمكن أن يُغفِل أو يحتقر الحياة على الأرض والجهاد الذي يُصاحب هذه الحياة. فكل وعد من وعود السعادة الأبدية التي وعدنا بها الرب سيتحقّق نتيجة أفعال حياتنا في هذه الحياة وكثمرة لبذرة أو بذار زُرعت وسُقيت في شتى مجالات هذا العالم: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدْعَون» (مت ٥:٩) . فالعمل ينبغي أن يكون «ما دام نهار»، كما وضع الرب هذه القاعدة (يو ٩:٤). حتى القديس أنبا أنطونيوس وكثيرون من القديسين كانوا يسألون الرب أن يمدَّ في عمرهم ليكمّلوا توبتهم.

والمسيح هو الذي في شخصه نخدم الذين يحتاجون إلى خدمتنا في العالم. لقد وحَّد المسيح نفسه بهم. يتكلم الآباء النسَّاك عن هذا العالم كأنه سوق نتاجر فيه لنربح ملكوت السماوات. فكل مَنْ لم يشترك في هذا السوق بالتجارة مع الآخرين، أي مَنْ لا يثمر بتعبه، مَنْ لا يتاجر بوزنته أو بموهبته أو بعمله، سوف يغادر هذه الحياة بنفس خالية الوفاض. فنحن نشتري الملكوت من القريب سواء بما نربحه من تعبنا معه أو من الإمكانيات التي وهبنا الله إياها بإيماننا

بالمسيح لكي نخدمه. ويقول كثيرون من القديسين ما معناه أن الحياة أو الموت يأتي إلينا من قريبنا. فإن ربحنا أخانا نربح الله، والعكس بالعكس، فإن أهلكنا أخانا فإننا نخطئ إلى المسيح ونفقد الملكوت.

ولكننا نشتري الملكوت ليس بالقريب المؤمن فقط. فالسوق عام ومختلط، ولابد أن نتعامل فيه مع كل إنسان. السوق معقود للجميع ولكل واحد منّا نصيبه ودوره فيه. فنحن نقتني الملكوت من الآخر حتى من غير أهل الإيمان، بل إن خدمتنا وعطاءنا لهؤلاء يتطلبان منا مجهوداً أكثر واهتماماً أكثر.

ولكن ليس معنى هذا أن الناس في حدِّ ذاتهم هم الذين يعطوننا أو يحرموننا من الملكوت. بل هو المسيح الذي يعطينا إياه من خلال تعاملنا معهم، وهو سيعطيه إيانا في الحياة الأبدية وليس هنا. لذلك لا ينبغي أن نطلب الثمر سريعاً ومنظوراً ، وكأننا أصحاب حقل "منظور". فحينما لا ننتظر ولا نتوقع المكافأة بل نؤمن أننا سننالها في السماء، حينئذ سنكون بحق فلاحين زارعين في فلاحة الله طالبين الثمر من فوق.

أما الذين يطلبون الثمر العاجل، والذين يريدون أن ينالوا سريعاً العائد المباشر بالمبادلة مع ما أعطوه، والذين لا يؤمنون بأنه من اللحظة التي أعطوا فيها شيئاً فإنهم يكونون في الواقع قد نالوا ملكوت السماوات بالمبادلة، بالرغم من عدم رؤيتهم في الحاضر أي شيء كثمر تعبهم، هؤلاء يحتاجون إلى أن يسمعوا قول المسيح: «إن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم، فإن الخطاة أيضاً يحبون الذين يحبونهم. وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم، فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا. وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم، فإن الخطاة أيضاً يُقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المِثل» (لو ٦:٣٢-٣٤). مثل هؤلاء الناس، بالرغم من كونهم قد نالوا خلاص المسيح، لكنهم يقعون في حبائل هذه الحلقة المفرَّغة، لذلك فهم لا

يتقدمون قيد أنملة في جهادهم الروحي، كما لا يسهمون بشيءٍ في التقدم الروحي للعالم، ولا في ترقية مستوى العلاقات الروحية بين البشر.

٤. خلاصنا وقوة حضور " الشخص " في علاقتنا مع الله:

وفي حديثنا عن "الأشخاص" الذين يتصور المسيح فيهم، نلتقط أعظم كلمة لدى اللاهوتيين المسيحيين قديماً وهي كلمة "**الشخص**"، وقد سلبها منهم جماعة المحللين النفسانيين والأخصائيين الاجتماعيين؛ فصارت وكأنها من صميم اكتشافاتهم، مع أنها نتاج أعظم عقيدة مسيحية وهي عقيدة الثالوث الأقدس.

فنحن اليوم، وعلى ضوء خلاص المسيح، نحتاج إلى أن نعيد التأكيد على فكرة "**الشخص**". إنها لا تعني "الفردية"، بل تعني "**القدرة على الشركة وتبادل العلاقات**". فالكلاب والقطط كائنات "**فردية**"، لكنها ليست "**أشخاصاً**". ولا يمكن للشخص أن يجد تحقيق نفسه في الانعزال والأنانية. إن مثال الثالوث الأقدس يرينا ماذا يُعنَى بكلمة "شخص". فالآب يحبِ العالم بأن يبذل ابنه الوحيد بالمحبة عن حياة العالم، والابن يهب ذاته ويقدِّم نفسه ذبيحة بالمحبة إلى الآب من أجل حياة العالم، والروح القدس يهب نفسه ليسكن فينا ليشهد - لا لنفسه - بل للمسيح ويعطينا شركة الآب بالابن بالمحبة. إن تقدمة الذات أو بذل الذات بالمحبة هو الطريق الوحيد للوصول إلى كمال تحقيق الذات والسعادة في السلام الذي من الله.

إن الثالوث الأقدس يحقق كمال فداء البشرية. لأنه في شخص الابن وحَّد الله البشرية بنفسه. وهذه ليست شمولية، ليس لأنه لا يوجد اضطرار وقَسْر في المحبة، (إنه يوجد بلا شك اضطرار أو إلزام للمحبة، ولكن حينما تتكلم المحبة من وإلى "أشخاص" مكتملي الحرية)، حينئذ يصبح اضطرار المحبة هو بعينه حرية المحبة. إن البشرية التي افتُديت ليست "شيئاً"، بل هي "الأشخاص

البشريون": مرقس ومتى ويوحنا ولوقا وجرجس وإبراهيم. إن الله يدعونا بأسمائنا؛ لقد دعانا خاصته، أهل بيته، فنحن صرنا هدف علاقة شخصية عقدها الله نحونا، وهذه الشركة ستنتصر حتى على الموت والجحيم، بسبب المحبة.

في شخص المسيح يسوع، علَّمنا الله ماذا يعني أن يكون الإنسان شخصاً. فالمسيح حينما أسلم الروح على الصليب لم يتوقف عن أن يكون ابن الله وابن الإنسان بآن واحد. وبكل وعي وإرادة "الشخص"، أكمل الفداء من أجلنا وأرجع لنا ثانية كل قدرات وطاقات أشخاصنا بأن أعاد صورة الكلمة فينا بكل قوتها وبهائها الأول، فأصبحنا معروفين لدى الله ومميَّزين عنده كل واحد منا باسمه وكل واحدة باسمها، **معروفين بأشخاصنا وليس فقط بطبيعتنا البشرية العامة**. لذلك أصبح لزاماً علينا - والدعوة موجَّهة إلينا جميعاً - أن نعود نحن أيضاً فنعرف الله **باسمه وفي شخصه**، وليس فقط "كشيء" مبهم أو كتعليم أو كعقيدة، **بل أن تصير لنا شركة شخصية معه ومعرفة شخصية به في شخصه**. وهذا هو معنى "الإيمان"، الذي يجاوب على المحبة الإلهية التي «أحبنا بها أولاً»، بالمحبة الشخصية له.

بهذا الإيمان الشخصي يمكن للمؤمنين أن يتواجهوا مع العالم الذي نعيش فيه، والمنحصر الآن في المعركة الروحية الدائرة بين روح الله وأعدائه الروحيين من كل الأصناف والأشكال والأحجام والأسماء. والمسيحيون الذين يقتنون الإيمان الشخصي بالله والمحبة الشخصية لله (أي بين شخص وشخص)، يستطيعون أن يشهدوا الشهادة الحسنة للعالم داعين إياه أن يرتد عن شروره ونكرانه لمحبة الله، وهم لا شك رابحون العالم إلى حظيرة ملكوت المسيح، بقوة وقدرات الإيمان الشخصي الذي فيهم والذي نالوه من الله.

٥. المحبة أساس العدالة والمساواة والأُخوَّة والسلام الحقيقي بين البشر:

إن كان يجب على المسيحي أن يرى المسيح في كل إنسان، ويسرع باستجابة كل صرخة استغاثة من المحتاج باعتبارها صرخة المسيح نفسه، فإنه لن يقبل بالتالي أن يرى أخاه في حالة مزرية أو في وضعٍ أدنى منه. فمن طبيعة المحبة المسيحية أنها لا تتسامح مع أيٍ عدم مساواة، لأن عدم المساواة يخلق الهوة والمسافة بين الإنسان وأخيه الإنسان. والذي يحب، لا يمكن أن يعتبر نفسه أعلى قدراً من الذي يحبه. بل بالعكس، فالمحبة تحثنا أن نسعى لتحقيق المساواة والعدالة بين اخوتنا البشر.

وعلى أساس تحقيق المساواة والعدالة المؤسستين على المحبة، تقوم المصالحة بين الأفراد والجماعات والشعوب، وبدون هذه الأسس، أي المحبة ← العدالة ← المساواة، يَضْحى أي سلام أو مصالحة مهدداً بالانهيار، سواء كان بين أفراد أو جماعات أو شعوب.

لذلك، فالمسيحيون مطالبون أن يكونوا صانعي السلام وحاملي المحبة ومحققي العدالة والمساواة أينما حلُّوا، إن في دوائر حياتهم الضيقة أو تلك المتسعة، ابتداءً من أُسرهم، إلى متاجرهم ومصانعهم، إلى داخل كنائسهم، وإلى مجتمعات أوطانهم، وحتى إلى العالم أجمع؛ إذا أُتيحت لهم الخدمة في أحد هذه المجالات أو بعضها.

والعدالة والمساواة والأُخوَّة والسلام الدائم، في المسيحية، ليست مجرد شعارات أو قضايا سياسية، ولا هي تُغتصب بالسلاح. لكن هذه القيم تنبع في المسيحية من حقيقة لاهوتية تتصل برؤيتنا واعتبارنا للعالم المادي الذي نعيش فيه. فالكون المادي المسمَّى بـ "الخليقة" مُقدَّر له في تدبير الله الخلاصي أن يتجلَّى بقوة تجلِّي المسيح القائم من بين الأموات، ليكون كما أراده الله منذ

خلقته: واسطة مقدسة بين الله والإنسان، فيُظهِرَ الله في محبته للبشر، والبشر يردّون على هذه المحبة بالشكر والتسبيح. فالكون لن يبقى بعد حجاباً - كما صار بعد السقوط - حجاباً يفصل الإنسان عن الله ومسرحاً للحروب والنزاعات والخصومات. بل في هذا الكون عينه، ومن الآن، يستبق المسيحيون الملكوت في سرّ الملكوت، أي في سر الإفخارستيا، بعدم استئثارهم بخيرات الأرض، بل بتقديمها (في شكل الخبز والخمر) قربان شكر وتسبيح على عطية الله للخليقة إلى البشر، وبهذا يصير العالم لهم واسطة ونافذة يتلقون منها محبة الله ويرفعون من خلالها شكرهم وتسبيحهم، فيصير لهم العالم حاملاً للحياة الأبدية، وتتحول خيراته المادية بين أيديهم إلى خير مشترك ومُشاع للجميع، فتصبح واسطة وسبباً لتبادل المحبة ولتعميق وحدة البشر بينهم وبين البعض وبينهم وبين الله.

وبقوة صليب المسيح وبقوة قيامته من بين الأموات سيمكن في النهاية تحويل هذا الكون ليكون هو «الأرض الجديدة والسماء الجديدة» (رؤ ٢١: ١) التي رآها يوحنا الرائي والتي وعد بها الرب: «هاأنذا خالقٌ سموات جديدة وأرضاً جديدة.» (إش ٦٥: ١٧)

إنه من واجبنا كمسيحيين نعيش خلاص المسيح أن نُمارس في حياتنا اليومية تحرير هذا الكون من باطل استخدامه الأناني، لكي نتحقق بالرجاء كيف أنه سيُشارك هو أيضاً في «حرية مجد أولاد الله» (رو ٨: ٢١)، هذا المجد الذي سيكون إكليل فخر لأولاد الله في اتحادهم ومحبتهم بعضهم للبعض ومحبتهم لله من كل الفكر والقلب والنفس والقدرة، آمين.



الخلاص الثمين

- ❖ الخلاص في المسيحية ما هو؟
- ❖ ما هو مركزه بين نظريات "الخلاص" في الأديان الأخرى؟
- ❖ الخلاص في العهد القديم ماذا كان معناه ومفهومه عند شعب العهد القديم؟ وكيف تغيرت نظرة الأنبياء إلى هذا المفهوم لتقترب من مفهومه في العهد الجديد؟
- ❖ كيف تحقق الخلاص في العهد الجديد بتجسد ابن الله الوحيد الرب يسوع المسيح؟
- ❖ ما مركز كتاب العهد القديم في العهد الجديد؟ هل لأسفار العهد القديم أهمية وضرورة في المسيحية؟
- ❖ الرب يسوع المسيح هو محور ومركز تاريخ الخلاص في العهدين القديم والجديد وهو مكمل الخلاص الحقيقي. كيف؟
- ❖ وكيف سيكتمل خلاصنا أيضاً في الدهر الآتي؟
- ❖ الخلاص والجهاد والنعمة: كيف عالج الخلاص المسيحي قضية سقوط الإنسان؟ وكيف نكمل ونتمتع بخلاصنا الأبدي الذي أكمله المسيح للبشرية؟
- ❖ الخلاص في الكنيسة والأسرار. ما دور الأسرار في تكميل خلاص المسيح لنا؟ شرح مختصر لكل سر من أسرار الكنيسة السبعة من جهة تكميل خلاصنا الأبدي.
- ❖ خاتمة: ما هي رسالة الكنيسة والمؤمنين حاملي الخلاص تجاه العالم والبشرية والكون.

أيقونة الغلاف : نزول المسيح للجحيم يمثل المسيح وهو يخلص آدم وحواء ويصعدهما من الجحيم إلى الفردوس ليلة قيامته من بين الأموات. وكما نرنم في التسبحة المقدسة : (رفعهم إلى العلو معه .. خلصهم لأ... وأظهر لهم قوته)

ثمن النسخة ٥ جنيهات